الإمارات العربية المتحدة
وزارة التربية والتعليم

المدرسة الإماراتية

2021-2022

ذِئبٌ اسمُه طَوّاف

روزان باري
رسوم: مونيكا آرمينو

"روايةُ القصص في أفضَل أحوالها.
حكايةٌ تلتقط كلَّ سِحر البريَّةِ وروعتها"
آبي إلفينستون

الصف
08

دُبٌ اسمُهُ طَوَاف

تأليف: روزان بـاري

رسوم: مونيكا آرمينو

ترجمة: علاء الدّين أبو زينة

الطبعة الأولى: 2021 م

حقوق الطبع محفوظة

ISBN 978-9948-25-078-4

دار أشجار للنشر والتوزيع

DAR ASHJAR PUBLISHING & DISTRIBUTION

هاتف: 4270575 4 971+ فاكس: 4270576 4 971+

ص ب: 231347 دبي، الإمارات العربية المتّحدة

info@darashjar.com /www.darashjar.com

Darashjar darashjar dar_ashjar Dar Ashjar

darashjar

حاصل على إذن الطباعة من المجلس الوطني للإعلام

رقم إذن الطباعة: MC-10-01-1653051

طبعت في: تركيا

التصنيف العمري: E «تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form, or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the written permission of the publisher. The right of Rosanne Parry and Mónica Armiño to be identified as the author and illustrator of this work has been asserted by them in accordance with the Copyright, Designs and Patents Act, 1988.

Text copyright © Rosanne Parry, 2019 Illustration copyright © Mónica Armiño, 2019 Photos © Oregon Department of Fish and Wildlife

Translation copy right © Ala Eddin A. Abu-zeineh.

إلى كل الذين يجولون
باحثين عن وطن.

ذِئبٌ اسمُه طَوّاف

روزان بـــاري

رسوم

مونيكا آرمينو

ترجمة

علاء الدّين أبو زينة

دار أشجار للنشر والتوزيع

نَواتِجُ التَّعَلُّمِ:

- ARB.2.2.01.033 أَنْ يُحَدِّدَ المُتَعَلِّمُ الأَحْداثَ الّتي تُطَوِّرُ الحُبْكَةَ مُوضِّحًا كَيْفَ يُفَسِّرُ كُلُّ حَدَثٍ الأَفْعالَ الماضِيَةَ أَوِ المُسْتَقْبَلِيَّةَ لِلشَّخْصِيَّاتِ في الرِّوايَةِ.
- ARB.2.2.01.034 أَنْ يُحَلِّلَ المُتَعَلِّمُ الشَّخْصِيّاتِ مِنْ خِلالِ أَفْكارِها وَأَقْوالِها وَأَفْعالِها.

حَوْلَ الكاتِبِ:

- كاتِبَةُ الرِّوايَةِ هِيَ الأَمْريكِيَّةُ روزان باري، الحاصِلَةُ عَلى سَبْعِ جَوائِزَ عَنْ تَأْليفِ رِواياتٍ لِلْيافِعينَ، وَمِنْها رِوايَتُها الأَكْثَرُ مَبيعًا في نيويورك "ذِئْبٌ اسْمُهُ طَوَافٌ"، وَالَّتي تُرْجِمَتْ إِلى إِحْدى عَشَرَ لُغَةً.
- نَشَأَتْ "روزان باري" في بورتلاند بِوِلايَةِ أوريغون حَيْثُ تَعيشُ الآنَ مَعَ عائِلَتِها في "مَنْزِلِ مَزْرَعَةٍ" يَزيدُ عُمْرُهُ عَنْ 100 عامٍ.
- وَتَقولُ عَنْ بَيْتِها: "أَعيشُ في حَديقَةٍ كَثيفَةِ الأَشْجارِ وَالأَعْشابِ، بَيْنَ الدَّجاجِ وَالأَرانِبِ، أَكْتُبُ رِواياتي في الفِناءِ الخَلْفِيِّ لِمَنْزِلي في قِمَّةِ شَجَرَةِ التَّنّوبِ، وَلَدَيَّ العَديدُ مِنَ الأَشْجارِ الَّتي أَعْتَني بِها، كَأَشْجارِ الكَرَزِ وَالكُمَّثْرى وَالتُّفّاحِ وَشَجَرَةِ الخوخِ ذاتِ المَظْهَرِ الغَريبِ جِدًّا".
- تَعْمَلُ "روزان" بائِعَةَ كُتُبٍ بِدَوامٍ جُزْئِيٍّ في مَكْتَبَةِ بورتلاند المُسْتَقِلَّةِ، وَتُقيمُ كُلَّ فَتْرَةٍ وَرْشَةَ عَمَلٍ إِرْشادِيَّةً مَجّانِيَّةً لِلْقُرّاءِ وَالكُتّابِ مِنْ مُحِبّي الرِّواياتِ وَالقِصَصِ.
- لَها قِصَصٌ وَرِواياتٌ كَثيرَةٌ، مِنْ أَهَمِّها:
- قَلْبُ الرّاعي، كَمانٌ ثانٍ، آخِرُ الاسْمِ، حوتُ البَرِّيَّةِ.

الفهرس

يتم تعريف المحتوى على تطبيق التعلم الذكي

قطيـع 11
أسئلة الفصل 22
مُراقبَة 23
أسئلة الفصل 32
مُنافس 33
أسئلة الفصل 42
قِتال 43
أسئلة الفصل 50
أيائِل 51
أسئلة الفصل 62
أَلم 63
أسئلة الفصل 72
أُنثى الغُراب 73
أسئلة الفصل 82
لِـقاء 83
أسئلة الفصل 90
بَرق 91
أسئلة الفصل 100
الوادي 101
أسئلة الفصل 108
شبيهةُ الذِئب 109
أسئلة الفصل 116
طَعام 117
أسئلة الفصل 124
خَوف 125
أسئلة الفصل 132
ماء 133
أسئلة الفصل 140
جَبل 141
أسئلة الفصل 150

صَيْد 151
أسئلة الفصل 158
أَثَر 159
أسئلة الفصل 166
امْضِ 167
أسئلة الفصل 178
عُواء 179
أسئلة الفصل 186
قطيع 187
أسئلة الفصل 199
أسئلةٌ عامّة عن الرواية 200
الذئب الحقيقي وراء القصة 203
عن الذئاب 206
آثار الذئب 208
قطعان الذئاب 209
الذئاب في البرية 210
موائل الذئاب في شمال غرب المحيط الهادئ 212
الصحارى والأراضي الرطبة 214
الغابة 216
ملاحظة المؤلفة 218
شكر وتقدير 219
معجم المفردات 220

معتمد
محتوى هذا الكتاب معتمد
من وزارة التربية والتعليم

قطيـع

أبدأُ في الظلامِ، ويخبرُني أَنفي بكلِّ شيءٍ أعرِفُه.

لديَّ شَقِيق، ثاقِب. وهوَ أكبرُ منِّي، وَدَائِم المشاكسَة. ولديَّ شَقِيقَات؛ وثّابة، التي تهوى المُصارَعة، وميّاسةُ التي تتحدَّثُ بذيلِها. وثمةَ الأَفضَلُ مِن بَينِ كُلِّ إخوَتِي، أَخِي حَمِيم الذي يُحِبُّ أَن يتكوَّر تَحت ذَقني، والجروُ الوَحِيدُ الأَصغَرُ منّي حَجمًا.

أتحسَّسُ بأنفي كلَّ واحدٍ منهُم وأشُمُّ رائحةَ الترابِ الرّطبِ فوقَنا والعشبِ الجافِّ تحتَنا. أدورُ فِي أنحاءِ العرينِ بينَما الآخَرونَ نَائِمُون. وأهرولُ مختبِرًا الطَّرِيقَ إلى المَدخلِ في أعلى النَّفق. يُسَمُّونَني «سريع» لأَنَّني كنتُ أولَ مَن يقِفُ ويَمشِي بينَ إخوَتي. وحيثُما تأخُذني سيقاني، أستديرُ عائدًا إلى تلكَ البُقعَةِ الخالِيَةِ المجوَّفةِ وسطَ العَرين، التي تَعبقُ برائِحَةِ البَيتِ، وبذلِكَ الفَوحِ الذي لا يمكِنُ أنْ أكتفِيَ مِن شَمِّه. وعندئذٍ، يأتي خارجًا مِن الرِّيحِ ذلكَ العبيرُ الأَروَعُ مِن كُلِّ عبير: رائحةُ أُمِّي.

تدورُ هُنيهَةً في العَرين؛ تتحسَّسُ بأنفِها كُلَّ واحِدٍ مِنَّا، ثُمّ تستلقي فِي حُفرَتِها. ويغوصُ إخوَتي، ثاقِبٌ، ووثّابةُ وميّاسةُ، باحثِينَ عَن بَطنِها لِيَشرَبوا. كانَ يُمكِنُ أَن أَكُونَ أولَ الواصِلين، لكِنَّ فراءَ أُمِّي يضُجُّ بالروائحِ، مِن حِضنِها إلى كَتفِها إلى أَنفاسِها اللاهِثَة، كلُّها تعبِقُ بروائِحَ ليسَت لها أَسماء؛ روائِحَ تجعلُني أُريدُ أَن أندَفِعَ خارجًا أبعدَ من تلكَ البُقعةِ عندَ فَمِ النفق، حَيثُ قَالَت أُمِّي،

«لا تذهبوا أبعدَ من هُنا». أضَعُ أَنفي في طريقِ الهواءِ القادِمِ مِن حَيثُ يَأتي الضَّوء.

أتأخَّرُ عَن غدائي. يَزحَفُ حَمِيم نحوَ آخِرِ بُقعَةٍ مُتاحَةٍ للشُرْبِ، لكنَّني أندَفِعُ إليها قبلَه. ثُمّ –أووووب– أَشرَبُ بِسُرعَةٍ وَقُوَّة؛ أعُبُّ في جُرعاتٍ وقَطَراتٍ وشَهقات. وَأُمّي تُغنّي لنا، بينَما نَشرَبُ، أغنيةً عَن العَالَمِ العَريضِ الوَاسِعِ خارجَ عرينِنا، وعَن قِصَّةِ حياتِنا فِي الجِبالِ. وأَنا أَهَلُ أغنيتَها مِثلَ الهَواءِ ومِثلَ الحَلِيب –القطيع، الجِبال، الأيائل، النُّجُوم، الرِّيح، المَطَر، العُوَاء، الصَّيد، الجِبَال، القَطِيع.

كمَا دائمًا، يتكوَّرُ حَمِيمٌ تَحتِي بطَريقَتِهِ المُتصاغِرة. يئِنُّ ويدفَعُ رَأسَهُ تَحتَ ذَقنِي. ثم فجأة، تختفي بُقعَةُ شُربي! نِصفَ شَبعَانَ أَمضِي، حتّى إنّني لَا أُحَاوِلُ أنْ أُزاحِمَ ثاقِب. إنَّهُ كبيرٌوثمّةَ عَضَّةٌ لا بُدَّ أن تأتي بعدَ كُلِّ هذا العُوَاءِ العالِي. أدفَعُ وثّابةَ بمِرفَقي، لكنَّها تلكُمُ رأسِي بقسوَة. تَتخَلَّى ميّاسةُ عَن بُقعَةِ شُربِها عندَما أدفَعُها. وميّاسةُ تَدفَعُ وثّابةَ، التي تَدفَعُ ثاقِبًا، ثمَّ يستَديرُهُوَ إلى حَمِيم وقد كشَّرَ عن أنيابِه، ويعوي بالكلمةِ الوَحِيدَةِ التي نَعرِفُهَا كُلُّنا.

«لي!»

يَزحَفُ حَمِيم مُبتعدًا ويتكوَّرُ وسطَ العرينِ وحيدًا. ونَحنُ نَنسلُّ واحدًا تِلوَ الآخَرِ، ممتلئي البُطُونِ، إلى عالَمِ الأَحلام. ولكنْ، قبلَ أَن يأخُذَني سلطانُ النومِ تجذِبُني رائحَةٌ حُلوَةٌ إضافيَّةٌ لَا تهَبُني السَّلَام. أتثاءَبُ، وأرفَع أَنفِي، و... نعَم، ثمةَ المزيدُ منَ الحَلِيب. إذَا شَرِبتُه، فسَوفَ أُصبِحُ أكبرَ حتَّى مِن ثاقِب. أَجِدُ جُرعَةً واحِدَةً إضَافيَّةً فقَط في كُلِّ بُقعَةِ شُرب. والآن أَعرِفُ شيئًا إضافِيًّا لا يَعرِفُهُ إخوتي وأخواتي: آخرُ الحَليبِ هُو الأحلى على الإطلاقِ. ألعَقُ آخِرَ قَطرةٍ منْ على ذَقنِي وأُكوِّرُ جسَدي حولَ حَمِيم حتَّى لا يدُوسوهُ في الظَّلام.

أقولُ لِأُمّي، وأُشيرُ بأنفي نحوَ النَّفق «أخبريني مَرَّة أُخرى، متى يُمكنُنِي أَن أخرُجَ إلى هُناك؟»

«إنه مَكان جَامِحٌ وجائعٌ هُناكَ في أرضِنا»، تَقُول أُمّي. «وأنتَ غضٌّ ولذيذ، يا ذُئَيبي الصَّغير، يا حَبيبي. انتَظِرْ حتَّى تُصبِحَ أكبر».

تتنهَّدُ أُمّي بينَما ينسَرِبُ شعاعٌ من الضَّوءِ النَّاعمِ عبرَ المدخلِ حيثُ يُمنَعُ المرور، وينفَرِشُ على أَرضيَّةِ العَرين.

«انتظِرْ حتَّى تتسنَّى لكَ فُرصَةٌ للقِتال».

أَمُدُّ أَنفي في اتّجاهِ الضَّوءِ وأخنُقُ التثاؤبَ الذي يأتي مَع التَّمَطِّي. لا أُريدُ أَن أنتَظِر. أَسمَعُ أنفاس النَّومِ البطيئةَ العميقةَ تصعدُ من إخوتي. ورأسِي يَدُورُ من النُّعاس، لكنَّني أُقاوِمُ النَّوم.

«أخبريني بالمَزيد».

«القطيعُ ينتَمِي إلى الجِبالِ والجِبالُ تنتَمي إلى القطيع»، تَقول أُمّي «ونجمُ الذئابِ يُشرقُ علينا جميعًا».

أستَمِعُ إليها، لَكنَّ ذلكَ الدَّربَ الزلِقَ المتلَوّيَ إلى الأحلامِ سُرعانَ ما يَحمِلُنِي إلى البَعيد.

هكذا أغفو وأصحو، وآكلُ وأَنام، حتَّى يأتي ذلكَ اليَومُ عندَما أستَيقِظُ لأجدَ أنَّ أُمّي رَحَلَت. ثمةَ وهجٌ أبيضُ هادئٌ ينسلُّ داخلاً من فمِ العرين. أتفقّدُ روائحَ إخوتي، والترابَ الرّطبَ وَالعُشبَ الجَافَّ وبقايا العبَقِ في مرقَدِ أُمّي الخالي. كُلُّ شيءٍ ما يزالُ هُنا. كُلُّ شيءٍ على ما يُرام.

سِوَى معدتي الفارِغَة. أتحسَّسُ طَريقي مِن جانبٍ إلى آخرَ بينَما أَخطُرُ على أَرَضِيةِ العرين. ثَمَّة حيّزٌ أَقَلُّ في المكانِ الآن. لَا روائحَ جديدةً لأشمَّها، وإنما أجسادٌ أكثرُ طولاً عندما أمرُّ فوقَها فحسْب، وما يزالُ ثاقِبُ هو الأكبرُ حجمًا بينَنا جميعًا.

لَم يَسبِقْ أبدًا أنْ تركَتْنا أُمّي لِوَقتٍ بهذا الطُّول. يَئِنُّ حَمِيم ويمسَحُ رأسَهُ بكتِفي.

«القطيعُ ينتَمي إلى الجِبالِ. وَالجِبَالُ تَنتَمِي إلى القطيع»، تَقُولُ ميّاسةُ.

«ونَجمُ الذِّئاب يُشرِقُ علينا جميعًا»، يتدَخَّلُ حَمِيم.

يُواصِلانِ الحَديثَ كِلاهُما، ويَحكي كلٌّ منهُما للآخَرِ قصَّةً.

يتظاهَرُ ثاقِبٌ بأَنهُ لَا يكترِثُ لِذَهابِ أُمي. لكِنَّهُ يُجرّبُ أَسنانَهُ في وثّابةَ، فَقَط ليستكشِفَ ما إذا كانَ طعمُها سائِغًا. وَهِي تصرَعُهُ وتطرَحُهُ على الأَرضِ. وأنا أَذهَبُ مُتشمِّمًا إلى تلكَ البُقعةِ في بابِ العرينِ حيثُ لا ينبغي العبور، لأَعرِفَ ما يُمكِنُ أَن يَعرِفَهُ جَرُو. يرتعدُ ثاقِب مِن المغامرةِ التي أجرؤُ عليها، لكنّني لا أهتم. أخطو فوقَ الخَطِّ الذي لا ينبغي عبورُهُ قليلاً. يتقدّمُ الرأسُ والكتفانِ الآن، ثمَّ كلُّ سيقاني فَوق الخَطّ.

وأستطيعُ أن أشُمَّ روائحَ أشياء جديدَة. في عَرِين السَّمَاءِ المظلِمِ تُنيرُ دائِرةٌ نَاعِمَةٌ. وتومِضُ حَولَها شراراتٌ أصغَر. الكَثِيرُ مِنهَا. أكثَرُ مِن الذُّيُول؛ أكثَرُ مِن سيقانِ الذِّئَاب، بلْ وأكثَرُ حتَّى مِن المخالبِ والسيقانِ والذيولِ كلِّها مُجتَمِعة. ولا أستَطِيعُ التَّوقُّفَ عن مُشاهدَتِها.

يحمِلُ الهَواءُ البارِدُ أخبارًا عَن أَشياءَ بَعِيدَةٍ كنتُ قَد سمِعتُ عنها في الحِكايات فَحَسب: الصُّنَوبر، الفَأر، البُومَة، التنُّوب، التُّوت البَرّيّ، المَاء. يحملُ لي الهَوَاءُ من روائحِ الأشياءِ أكثرَ ممَّا أَستَطِيعُ أن أسمِّيَ. أركضُ إلى الأمام برغم وكزَةِ التَّحذيرِ مِن ثاقِب.

«لا تعبُر من هُنا».

أتوقَّف؛ أرِبضُ؛ وأتجمَّدُ في مكاني. إنَّهُ ذئبٌ جدِيد.

أتشمَّمُ. وأسكُنُ تمامًا. إنّها رائحةٌ غَيرُ رائحَةِ أمي.

أتشمَّمُ الهواء. أهزُّ ذيلي. وأتجمَّد.

كنتُ قد شممتُ رائحتَهُ على فَروِ أُمّي. إنَّه مِن الأقارِب. أَزحَفُ إلى الأمام.

«لا تعبُر أبعدَ من هُنا!»

عادَ حميم منذُ وقتٍ إلى داخلِ العرين، لكنَّني لا أَستَطِيعُ أن أوقِفَ اهتزازَ ذيلي الذي يمسَحُ سقفِ العرين ويمطِرُ منهُ التُّراب.

«إششششش!»

يتطامَنُ أَنفي إلى الأَرضِ. لا أَقصِدُ أن أنحني، لكنَّ صوتَهُ يجذِبُني إلى أَسفَل.

«استَمِعْ»، يَقُول، بلهجَةٍ ليسَت قَاسِيَةً هذهِ المَرَّة.

أُذُنَاي تدوران. وَالرِّيحُ تَجلِبُ الصَّوتَ معَ الرَّائِحَة.

ثمةَ هسيسٌ وصَريفٌ يصنعُهما مرورُ الرّيحِ في أغصانِ الأشجارِ القَريبَة. وصيحاتٌ وأقدامٌ تَعدو في مكانٍ أَبعَد. ثُمّ صَوتُ عُوَاء.

عووووووو. وينتَصِبُ فِرائي كلُّه. إنّه صوتٌ كنتُ أسمعُهُ فِي أَحلامِي. أَشعُر بعواءٍ يريدُ أن يُجيبَ مِن مكانٍ عميقٍ في داخلي، لكنَّه لَيسَ عميقًا بما يكفي لأنْ لا يُلاحِظَ مُراقِبُ الذئابِ أنهُ على وَشكِ الخُرُوج.

«إششش!» يَقُول. «اصمُتْ!»

أبتلِعُ العُوَاء في داخِلي وأَجلِسُ على ذَيلِي المهتز. أنتَظرُ، وقد نسيتُ الجُوعَ، في غَمرةِ الأَصواتِ الجَديدَة. وينتظرُ هادرٌ، مراقبُ الجراءِ أيضًا. يَخطُو بِبُطء، هيكلاً رماديًّا في دائِرةٍ مِنَ الأَشجَارِ.

أَسمَعُ جريانَ ماءٍ في البَعيدِ، وأزيزًا وتغريدًا مِن مَكانٍ قَريبٍ، ووقعِ أقدامٍ راكضةٍ مثلَ نبضِ قلبٍ مِن مكانٍ مُتوسّط البُعد، ثُمَّ يصبِحُ وقعُها أَقرَبَ، وأَقرَبَ أيضًا. والآنَ أَستَطيعُ أَن أشمَّهُم: أُمِّي وأقارِبَنا.

أصبَحَ ثاقِبٌ ووثّابةُ وميّاسةُ كلُّهم في أعقابي الآن. تجمّعوا بجانِبَي وَهُم يُطلِقُون همهماتِ الجُوع. ثُمَّ تَأتِي أمّي مِن فَوقِ التِّلالِ، راكضةً، والقطيعُ كلُّه مِن حَولِهَا.

أُمِّي! رماديةٌ فضِّيَّةٌ، قَوِيَّةٌ بأذنينِ سوداوَين ونهايةِ ذَيلٍ سوداء. يحكُّ أقارِبُها الأَكتَافَ معَها،

ويَحنونَ رؤُوسَهُم ويهتفونَ بِاسمِها. أَستَطِيعُ أَن أَشُمَّ عبيرَها الحلوَ البريَّ، الهوائيَّ الحَليبيّ.

«تعالَوا»، تَقُول.

أسألُ وكُلّي جذَل. «إلى الخارج؟» أُريدُ أَن أَكُونَ متأكدًا.

«تعالوا»، تقُول أُمّي. «اخرُجوا».

أَنهَضُ وأمشي، لكنَّ أكتافَ ثاقبٍ تتجاوزنُي، ووثّابة تدوسُ على قدَمي الخلفيَّة. أدفَعُها ونخرجُ مِنَ العَرينِ معًا، مُمطرين التُّرابَ على ميّاسةَ وَحَمِيم خلفَنا.

أصبحتُ في الخَارِجِ الآن. في الخارِج! في العَراءِ المفتوحِ واتِّساعِهِ الهَائِل؛ في هذا العرينِ الجَدِيدِ ذي السَّقفِ الأَسوَدِ الذي لا تستَطِيعُ أَيُّ قفزةٍ أَن تَطالَه. لكنَّني أقفزُ على أَيِّ حَال، فقَط من أجلِ المحاولَةِ، والرِّيحُ تَمرُّ عبرَ فِرائي. يتعرَّفُ أَقاربِي عليَّ بأنوفِهِم مِن الرَّأسِ إلى الذَّيل. وأَنا أتنشَّقُ كلَّ واحِدٍ مِنهُم؛ مُنشِدَة، الصيادةَ ذاتَ الفِراءِ الذَّهبيّ؛ وهادِر، مراقبَ الجِراءِ الذي يَمشي بِبُطء وبعَرَجٍ خَفِيف. لا أَستَطِيعُ أن أوقِفَ ذيلي عن الاهتزاز. ألعَقُ الأَرضَ: المِلحَ، والحديدَ، والرَّماد.. الوَطَن.

يقفُ أبي أعلى منَ البَقِيَّة، بِوَجهٍ رَمادِيّ
وأذنينِ سوداوَين، طويلاً، طويلاً، طويلاً.
علامةُ رائِحَتِهِ موجودةٌ عِندَ مدخَلِ عرينِنا.

وَهُوَ صَاحِبُ العواءِ الذي يتبعُهُ القطِيع. أَعرِفُ أَنَّني يجِبُ أَن أَذهَبَ إِلَيهِ لنتشارِكَ الرَّوائِح، لكِنَّهُ صَامِتٌ وَطويل.

لكنَّ ثاقِب يسبقُني إليه، ويناوِشُني بينَما يتجاوزُني. هوَ أطولُ مِنّي بمقدارِ رَأسٍ وينظرُ إليّ مِن أَعلى، فَقَط ليُظهِرَ أَنَّهُ يَستَطِيعُ أَن يذهَبَ إلى أبي قبلي. ذَيلُهُ مرتفعٌ كالمُعتاد، لكِنَّهُ يَنخَفِضُ عِندَما يقتَرِبُ مِن الأَب. عندئذٍ، يُخفِضُ ثاقِبٌ رَأسَهُ وَيُبطِئُ خطوَهُ إلى ما يُشبِهُ الزَّحف. يشمُّهُ أبي شمّتَين ويعوي مرةً واحدَةً ويدفَعُهُ عنْهُ. ويَعُود ثاقِب إلى بقيتِنا، أَسنَانُهُ مُنطَبِقَةٌ، وصرخَةٌ تحتبِسُ فِي حُنجُرَتِهِ، محذرًا إيَّانا مِن أَنَّهُ هُوَ الذي تشَارِكَ الرَّائحَةَ معَ الأَبِ، وَلَيسَ نَحن. يُدمدِمُ حَمِيمٌ قليلاً. وميّاسةُ لا تقُولُ شيئًا، لَكِنَّ ذيلَها المرتفِعَ بأملٍ يرتَخي. ووثّابة تلتقِطُ الطُّعم وتعارِكُ ثاقبًا لتطرَحَهُ على الأَرضِ، وتخسرُ مرَّتَينِ قَبلَ أَن تتَمكَّنَ مِن تَثبيتِه.

أنزَلِقُ متجاوزًا إيَّاهُم جميعًا وأَذهَبُ للقاءِ أبي؛ الذَّيلُ مُرتَفِعٌ وَالأَنفُ شامِخٌ. ولَكِنْ، مَع اقترابي يَسقُط ذَيلِي مِثلَ حَجَر. وأكادُ أَعُود لأجلبَ حَمِيمًا مَعي

حَتَّى أتشجَّع، لَكِنَّ هُناك بَعضَ الأَشيَاءِ التي يَجِبُ أن يقومَ بها الجروُ بِمُفرَدِه.

عَن قُربٍ، أَرى أَن أَبي ليسَ رماديًا وأَسوَدَ فقَط، وَإِنَّمَا ذَهبيٌّ عِندَ الصَّدرِ وفِضيٌّ على الكَتِفَينِ. والأَحمَرُ الدّاكنُ يرتسِمُ في دائرةٍ حَول فَمِه.

«يا بُنّي»، يَعوِي لي. «ابني».

أجلِسُ على ذَيلي لأوقِفَهُ عن الاهتِزاز، لكِنَّهُ لَا يَهدَأ. أنهَلُ رائِحةَ أبي إلى دَاخِلي أعمقَ وأَطوَلَ، حتى يحتلَّ قِطعَةً فِي ذاكرتي مُبَاشَرةً عندَ بُقعَةِ رائحةِ الأُمّ. سَوفَ أَفعَلُ أَيَّ شَيءٍ مِن أَجلِهِ! أقفزُ حولَ نفسي في دائرة، آملاً أَن يُعجِبَهُ ذَلِكَ. أنبَحُ وأهزُّ ذَيلِي.

«إنّهُ أبي. لي».

لا أَستَطيعُ التَّوَقُّفَ عَن شَمِّ رائِحَةِ الأَحمَر الذي علَيه. تَجعَلُني جائعًا مِثلَ رائِحَةِ حَلِيبِ الأُمّ، لَكِنَّ هَذِهِ الرائِحَةَ جَديدَة. لا أَستَطِيعُ مقاومتَها. أمسُّ بأنفي ذَقنَهُ وأشمُّه. ألعَقُ وجهَه. وهُوَ يَمِيلُ نَحوِي ويَفتَحُ فَمَهُ على وُسعِه.

تخرجُ كُتلَةٌ كبيرَةٌ حَمراءُ مِن فَمِهِ، يتَصاعَدُ مِنها البُخار؛ شَيءٌ لَم يَسبِقْ لي أن شمَمتُ مثلَهُ مِن قبل. لَكِنَّ الأَبَ أَعطَاهُ لِي.

أشمُّ؟ أشمّ!

وكُلَّما شَمَمتُه أَكثَر أَحبَبتُه أَكثَر. أدفَعُ أَنفِي في الكتلَةِ ثمَّ أفركُه بفرائي. والأُمّ تُنادِي الجِراءَ الآخَرينَ وتخفِضُ لهُم فَمَها ليلعَقوه. ثمَّ تُخرِجُ كُتلَةً حَمراءَ أُخرى مِن شيءٍ ما مِن فَمِها، وتَدفَعُ ميّاسةَ ووثّابةَ لتُجرّبها. وتفعلُ العَمَّةُ مُنشِدَةُ الشَّيءَ نَفسَهُ مَعَ ثاقِب وحَميم.

أَعُودُ أنا إلى أُعطِيَةِ الأَب.

ألعَقُ، وأَلعَقُ، وألعَق.

طَعمُها سَلسٌ وغَنيّ. ليسَ حُلوًا مِثلَ الحليب، لَكِنَّه يجعلُ ذيلي يهتزُ جذلاً بنفسِ الطَّرِيقَة.

أقضُم؟ أقضُم.

القطِعُ كثِيفةٌ ومطّاطة.

ألتَهِمُ- وألتَهِمُ، وأبتَلِعُ. آآآآآه!

ينضمُّ بقيةُ الجِراء إلى الأكل، ومؤخّراتُهم كُلُّها اهتزاز. آكُلُ وأَشبَعُ حتَّى النُّعاس، وأتكوَّرُ في ظلِّ الأَبِ بينَما النَّومُ يُغالِبُني. يدفعُني الأَبُ بأَنفِهِ إلى مَكانٍ عِندَ قدمَيه.

«الأيائِلُ»، يقُولُ أبي. «هيَ حياةُ القطيع».

أسئلة الفصل

1. بَدَأَتِ الرّوايَةُ بِتَعْريفٍ مُفَصَّلٍ بِعائِلَةِ الذِّئْبِ سَريعٍ.
   - عَدِّدْ أَفْرادَ أُسْرَتِهِ، وَاذْكُرْ مُمَيِّزاتِ وَمُواصَفاتِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ.
   - فيمَ يَخْتَلِفُ الذِّئبُ سَريعٌ عَنْ أَخَوَيْهِ ثاقِبٍ وَحَميمٍ؟
   - عَنْوَنَتِ الكاتِبَةُ الرِّوايَةَ بِـ «ذِئْبٌ اسْمُهُ طَوّافٌ» بَيْنَما الذِّئْبُ اسْمُهُ سَريعٌ، هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تُخَمِّنَ السَّبَبَ بَعْدَ أَنْ قَرَأْتَ الفَصْلَ الأَوَّلَ؟

2. بِاسْتِخْدامِ حاسَّةِ الشَّمِّ، وَصَفَ سَريعٌ العَرينَ الَّذي يَعيشُ فيهِ مَعَ أَفْرادِ عائِلَتِهِ.
   - اِقْرأْ عَنْ أَهَمِّيَّةِ حاسَّةِ الشَّمِّ عِنْدَ الذِّئابِ في المَعْلوماتِ الوارِدَةِ في نِهايَةِ الكِتابِ، أَو في الشَّبَكَةِ المعلوماتية.
   - وَضِّحْ مَلامِحَ العَرينِ كَما تَخَيَّلْتَها.

3. «لكِنَّ ذلِكَ الدَّرْبَ **الزَّلِقَ المُتَلَوِّيَ** إِلى الأَحْلامِ سَرعانَ ما يَحْمِلُني إِلى البَعيدِ» ما دَلالَةُ الكَلِمَتَيْنِ المُظَلَّلَتَيْنِ؟

4. كانَتْ حاسَّةُ الشَّمِّ هي الأَداةُ الَّتي يَسْتَخْدِمُها سَريعٌ داخِلَ العَرينِ، وَحينَ قَرَّرَ التَّعَرُّفَ على ما خارِجَ حُدودِ العَرينِ اسْتَخْدَمَ حَواسَّ جديدةً. وَضِّحْ ذلِكَ.

5. في هذا الفَصْلِ الكثيرُ مِنَ العِباراتِ الجَميلَةِ الّتي لا بُدَّ أَنَّكَ تَوقّفْتَ عِنْدَها، سَجِّلْ بَعْضَها هُنا أَوْ حَدِّدْها بِلَوْنٍ فُسْفورِيٍّ لِتَعْلَقَ في ذاكِرَتِكَ.

مُراقبَة

كُلَّ الصَّيفِ يَصطادُ القَطِيع. وهادِرٌ يراقبُنا ويَعتني بِنا عِندَما يَذهَبُون. وعِندَما يَعُود القَطِيعُ إلى المَنزِلِ يَجلِبونَ أكوامًا مِن لَحمِ الأيائلِ لِلجَمِيع. ثُمَّ، بعدَ ذلِكَ، يأتي أَفضَلُ شَيءٍ على الإطلاق: العُوَاء. يَبدَأ الأَبُ، ثُمَّ الأُمُّ ثُمَّ مُنشِدَة. يجعَلُ الصَّوتُ فرائي ينتصِبُ وذيلي يهتَز. ونَحنُ الجِراءُ نَعوي معًا، وكُلٌّ يُحاولُ أن يكُونَ صَوتُهُ هُوَ الأعلَى، بينَما نَمدُّ أعناقَنا إلى الأمامِ والأَعلى كما يفعَلُ الأَب. ونعبُّ أنفاسًا عميقةً من الهواءِ لِلفَوزِ بِأَطوَلِ عُواءٍ أَو بِأَعلى صَوت. لكنَّهُ عواؤُنا، عاليًا كانَ أَم خَفيضًا؛ طويلاً أَم قصيرًا، هوَ الذي يجعلُنا قطيعًا. نحنُ كلُّنا قطيعٌ واحِد، وهذِهِ الأرضُ موطنُنا ولَنا. أصواتُنا ترتدُّ عَن الجِبالِ. وتصعَدُ فَوقًا إلى نَجمِ الذِّئاب.

ويملؤني الصوتُ مِثلَ مَاءٍ عَذبٍ.

يُطلِقُ هادِرٌ عواءَهُ الخفيضَ المنتحِبَ آخرَ الجَميع.

إنَّه الذئبُ التَّابِعُ، مُدرِّبُنا على المصارَعة، وصانعُ السَّلامِ في القَطيع.

بِحُلولِ الوقتِ الذي يتحَوَّلُ فِيه لونُ المَرجِ إلى الذَّهَبِيّ في أَواخرِ الصَّيف، أَستَطِيعُ أَن أتفوقَ عَلَيهِ في الرَّكض؛ ومع قدُومِ أولِ الصَّقِيع أستطيعُ أَن أَجعَلَهُ يُسبِلُ لي ذَيلَهُ عِندَما أَضرِبُ الأَرضَ بقدَميَّ الأماميتَينِ وأنفشُ الفراءَ على كتفَيّ.

أَمَّا ثاقِب، فلا يَخفِضُ ذيلَهُ لي أبدًا، مَهما حاولتُ أَن أَجعلَهُ يَفعَل. أصارعُهُ كلَّ يَوم، لكنَّه ينزلقُ مِن بينِ مخالبي. أستطيعُ أَن أركضَ أبعدَ مِنه. أن أعوِيَ أطولَ، وأبتَلِعَ كميةً مِنَ اللَّحمِ أكثرَ مِن أيِّ أحدٍ آخَر، لكنَّهُ مَا يزالُ أثقلَ مِنِّي وأَقوى. أستطيعُ أَن أركضَ أسرعَ مِنه، لكنَّ هذا هُوَ انتصاري الوَحيد. والأُمُّ تَراني وأَنا أُحَاوِلُ وتمنحُني بِضعَ لعقاتٍ إضَافِيَّة وقتَ النَّوم.

«الذئبُ القَائِدُ يُطعِمُ قطيعَه»، تَقُول أُمِّي. «لن تنفعَ أيُّ حيلَةٍ أخرى».

وَهَكذا، عِندَمَا يسقطُ أولُ الثَّلج، وبدلاً مِن مُناوشَةِ نُدَفهِ والتزلُّجِ على البركِ المتجمِّدةِ معَ بَقيَّةِ الجِراء، أركضُ معَ أَبِي إلى مكَانِ لُعبَةِ المراقبَة. تستنفِدُ مواكبتُهُ كُلَّ قُوَّتي، لكنَّني أُصبِحُ أَقوى كُلَّ يَومٍ. وعِندَما نصلُ إلى الصخرةِ المسطَّحةِ بجِوار نَهر الوَطَن، أجلسُ عِندَ قدمَيه؛ هُوَ يَدرُسُ سفحَ الجَبَل، وأَنا أراقبُهُ بينَما يُراقِب.

يستمِعُ أَبي إلى صيحاتِ أسودِ الجبلِ ونُباحِ ذئابِ القيُّوطِ الصّغيرةِ ونداءاتِ الغربانِ الزاعِقة. يستمِعُ إلى المِياهِ الجاريَة؛ والدَّفقِ؛ والنَّخير، وقَهقهةِ الدِّبَبةِ، وارتطامِ أسماكِ السلمون بجوانبِ النَّهر، ثمّ صَوتِ التَّمزِيق والمضغِ السَّعِيد بينَما تلتهمُ الدّببةُ السَّمَك. وأَنا استمعُ إليهِ بينَما يستمِع.

يَجرِي سنجابٌ برتقاليُّ البطنِ مِن قاعِ شجرةٍ إلى أُخرى. وَهُوَ سَرِيعٌ، لكنَّني أَسرَع.

«هل أستطيعُ أَن أصطادَهُ يَا أبي؟» وأجثمُ، مُستعِدًّا لِلوُثوب.

«هل تَستطيع؟»

أتحوّلُ كُلي إلى قَفزَة جاهزَةٍ للانطلاق. وَفي طُرفَةِ عينٍ يكونُ السنجابُ قد دارَ خلفَ الشَّجَرة، وَأَنَا أرتطِمُ بمقدِّمتِها. أنزَلِقُ تَحت الساقِ بينَما

يتسلَّقُ السنجابُ الشجرةَ أعلى وَأعلى، ويتقافزُ مِن غصنٍ إلى غصنٍ مثلَ طائِر. أهزُّ جسَدِي لأطرُدَ قِطَعَ اللحاءِ مِن فِرائي.

أَبِي لا يَضحَك مِنّي. لكِنَّهُ يهزُّ ذيلَهُ قليلاً.

أجلِسُ مرةً أُخرى وأراقبُهُ وَهُوَ يراقِبُ الجِبَال.

الريحُ تهُبُّ. والطيورُ تتحدَّثُ إلى بعضِها البَعض.

«هناك، يَا أبي! انظُرْ هُناك!»

ثمةَ شيءٌ قصيرُ الأرجلِ يُشبِهُ ابنَ عرسٍ يُخوِّضُ فِي الجدولِ تَحتَنا. لَونُه أَسوَدُ كاللَّيل، ويمتدُّ شريطٌ عريضٌ أبيضُ مِن رقبتِهِ حتَّى ذيلِه، ويمتدُّ آخَرُ نحيلٌ أبيضُ أيضًا على طولِ أنفِهِ، وهوَ سمينٌ. سيكونُ لذيذًا.

«أستطيعُ اصطيادَه. أعرفُ جيدًا أنَّني أستطيع».

أقفُ مثلَ نابضٍ مستعدٍ للانطِلاق. قفزتانِ فَقَط وسأمسِكُ بِه. يضربُني أَبِي بيدِهِ على كَتِفي ويضغطُني على الأَرض.

«ما الذي قالتهُ أُمُّكَ عَن أكلِ الأشياءِ البَيضاء؟»

«التوتُ الأبيض»، أقولُ، وأتلوَّى مُحاولاً التملُّصَ مِن قَبضَتِهِ. «الفطرُ الأَبيَض. لَا تلمسها أبدًا، ولا حَتَّى لعقةً واحدة».

أناضِلُ وأتلوَّى تحتَ يدِهِ لكِنَّهُ لا يَدَعُني أَنهَض. يشاهدُني وَأَنَا أكافِحُ. لكِنَّني لا أستطيعُ حَتَّى أنْ أجعلَهُ يتعَب. أنخُرُ وأنفُخُ وأشدُّ وأتقلَّصُ، وأتدحرَجُ أخيرًا، وأُرِيهِ رَقَبَتي. وعندئذٍ يُطلِقُني.

أقفزُ ناهضًا على أقدامي وأنفي يُشِيرُ إلى فريستي. «لكنَّ هذا ليسَ توتًا. ولَيسَ فطرًا. إنّهُ يمشي!»

«نعم، يَمشِي. في وضحِ النهارِ وعلى مَرأًى مِن الجَمِيعِ، مُظهِرًا لَنا شريطًا أبيضَ بِلا خَوف. مَا الذي يُخبِرُكَ بِهِ هذا الحيَوان؟»

أخفِضُ أَنفِي وذيلي.

«سُم؟»

«بل أسوأُ مِن السُّم».

أرتخي وأنهَدُّ على الغُبَارِوأُسقِطُ ذَقني على قدمَيّ.

«أستطيعُ أَن أصطادَهُ معَ ذلِكَ. أستطيعُ أَن أنالَ مِنهُ وحدي».

«ليسَ، حَتَّى، لعقةً، واحدَة».

أرفَعُ أنظاري إلى أَبِي. إنَّهُ لا يَضحَكُ منّي أيضًا. ليسَ سِوى هزّةِ الذَّيلِ الصغيرةِ تِلك. أتأمَّلُ آثَارَ شَبيهِ ابنِ عُرسٍ هَذا وأدرسُ طبعةَ قدَمهِ ذَات الأصابعِ الخَمس. ويتبخترُ هذا الشيءُ الذي ليسَ طعامًا متمايلاً بِبُطء، بطريقةٍ مغيظةٍ تقريبًا، ذاهبًا بعيدًا إلى الغَابَة. أرغبُ فِي الأنين، لكِنَّني أتذكَّرُ أَن أحتفظِ بشكوايَ في داخِلي وأتقمَّصُ الاعتداد. مَن يحتاجُ إلى الأَكْلِ؟ لَيس أَنا، بِالتَّأكِيد.

أجلِسُ بجوارِ أَبِي. المَزِيدُ مِن المُراقبَة. تصبحُ الظلالُ أطوَلُ وهُوَ ما يزالُ يُراقِب. بقيةُ الجِراءِ يلعبونَ طوالَ اليَوم، لَكِنَّ أبي ما يزالُ يُرَاقِب. وقد كفَّ ذَيلِي عَن الاهتزازِ مُنذ فترةٍ طويلَةٍ، لكِنَّني معَه، ما أَزالُ أُراقِب.

تُنبِّهُني ضجةُ شجارٍعندَ حافّةِ الشَّلاّل. يظهَرُ أنفٌ أسودُ لحظةً خاطِفَةً، متبوعًا بابنِ عُرسٍ له شَعْرٌ هُو الأكثرُجموحًا على الإطلاق. شعراتُهُ طويلةٌ صلبَةٌ تبرزُ مثلَ أمواجٍ فِي كُلِّ اتجاه - حَتَّى إنّهُ يسيرُأَبطَأَ مِن ابنِ عرسٍ الأَخِير. أستطيعُ أن أمسِكَ هذا الشَّيء. أَنظرُإلى أَبي. لكنَّني لَا أَرَاهُ جاثمًا، بل مستعِدًّا للانقضاض.

أراهُ يُنظَرُ في اتِّجاهي.

«هل هوَ لذيذ؟» أسألُ.

«ربّما يكونُ كذلك».

يذهبُ الشيءُ إلى شجرةِ صُنوبرٍ ويشرُعُ فِي قضمِ لحائها. لونُ شعراتهِ السميكةِ فضيٌّ مائلٌ إلى الرّمادي عندَ أطرافهِ وأسودُ عِند القاعِدَة.

«هل هُو سامّ؟»

«لا». ويهُزُّ ذيلَه –قليلاً فَقَط.

أُطلِقُ نُباحًا صغيرًا ليسمعَنا في حالِ لَم يشُمَّنا ونحنُ نراقبُ قريبًا مِنهُ إلى هذَا الحدّ. لكنّهُ يلتفِتُ ولا يتراجعُ. ليسَت حيواناتُ الغَرِير والويلفرين كبيرةَ الحَجم، لكنَّ أمّي حذرتْنا منهَا.

«هل يصطادُنا هذا الشيء؟»

«لا شيءَ يستطيعُ أن يصطادَ ذئبًا بالِغًا إلَّا البشَر».

«إنه صَغِيرٌ جدًا. لِماذا لا يخاف؟»

«النّيصُ لا يخشَى أحدًا ولا يُقاتِلُ أحدًا».

«لكنَّني أستطيعُ أَن أنالَ منهُ بقفزة واحِدَة. إنَّه بَطيءٌ جدًّا».

«كلُّ مَن يشتبكُ مَع النَّيصِ، سوفَ ينحَني لَهُ بعدَ ذلكَ إلى الأبد».

يَستحيلُ أَن أنحني لذلكَ الشَّيء. أراقبُهُ بينَما يتسلَّقُ شجرةَ الصُّنوبرِ ببطءٍ وخَرَق. لا شيءَ أنيقًا أَو قويًا أَو فطِنًا بشأنِه. سَوف أجعلُ أَخِي ثاقِب يشتبكُ معَهُ. وعندئذٍ سوفَ أعرِفُ أَنَا ويتولّى هوَ مسألةَ الانحِناء.

تهدَأ الريحُ وتَدنو الشمسُ أكثر. تَأتِي الغِربان. تحومُ في دوائرَ حولَ أَبي وتنطلِقُ نحوَ البَراري. تدورُ عائدةً وأَبي يَعوِي لَها كما لَو أنَّهم يستطيعونَ التحادُث. تنقَضُّ الغربانُ حائمةً حولَهُ مرةً أُخرى، قريبةً جدًّا حتّى تكادُ حوافُّ أجنحتِها الطويلةُ السَّوداءُ تُحرّكَ الفراءَ على كتفَيه. ثمَّ تُحلِّقُ عائدةً إلى البَراري من جديد.

«هناك!» يقولُ أَبِي، وأنفُه يشيرُ إلى الأرضِ المفتوحةِ في الأَسفَلِ حيثُ تلتقِي أعشابُ البَراري بالأشجارِ والسرخَس على سَفحِ الجَبَل. أَنظُرُ ولا أَرى أَيَّ شَيءٍ. يُنادي أَبِي على أُمّي ومُنشِدَة. أرفعُ رأسي لأشُمَّ الهواء، وتأتيني خافتةً –رائحةُ غزالةٍ وجروِها. تَأتي أُمّي والعمَّةُ مُنشِدةُ راكضَتَين وتقِفان إلى جَانِبِ أَبي.

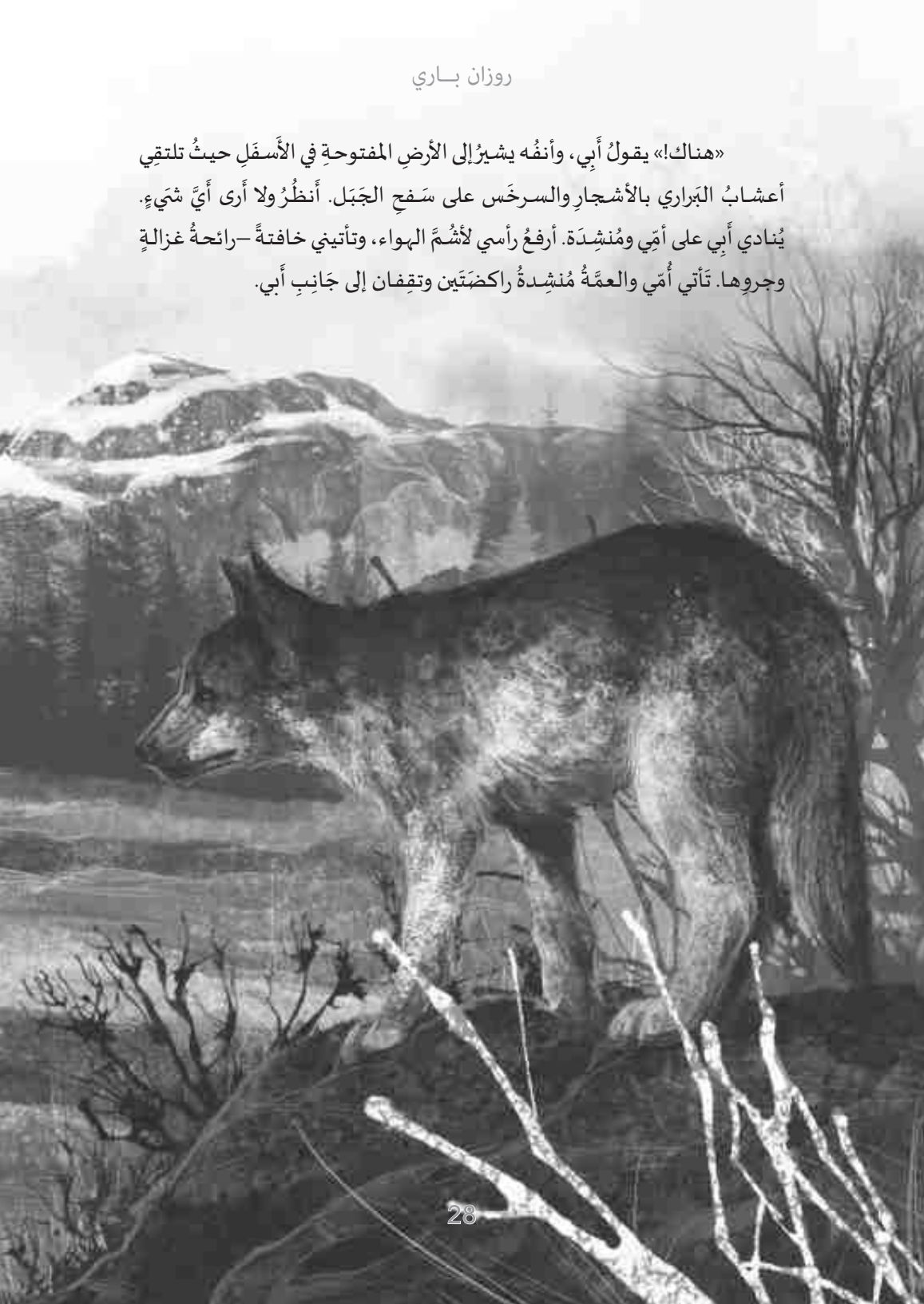

وعندئذٍ أُشاهدُ كلَّ شَيء: الاقترابَ السريعَ الصَّامت؛ خطَّ الهُجُوم، اتجاهَ الرِّيح، الطريقةَ التي يدورُ بِها أَبِي حولَ المُقدِّمةِ ليُعيدَ الغزالَةَ إلى أشداقِ أمّي ومُنشِدة. وفي رأسي، أكونُ هناكَ مَعَهُم، أُطارِدُ وأدورُ وأَجري. سَوفَ أُطعِمُ قَطيعي. سَوفَ أفعلُ. أفضلَ مما يفعَلونَ جميعًا.

أشاهِدُ أبي وهوَ يصطادُ كلَّ يَوم. وحتَّى بَينما أَكبُرُ مِن جَروٍ إلى ذئبٍ بالِغٍ ابنِ سنَة، أتعلَّمُ. أتذكَّرُ وأَجري. أجري فقَط لكي أَشعُرَ بالريحِ وهيَ تتخلَّلُ فرائي وأسمَعَ ضرباتِ أقدامي على العشبِ الحُلوِ وإبَرِ الصُّنوبَرِ النَّاعمَةِ في أَرض موطني. في بَعضِ الأحيانِ، يَجرِي أَخي حَميم ورائِي، وفي بَعضِ الأحيانِ أتمرَّنُ بهِ على الصَّيدِ. نَعملُ على تحسينِ مهاراتي، انقضاضي، مُطاردتي، انطلاقي. إنَّهُ ذئبُ تَعقُّبٍ رائِعٌ، أفضلُ بكثيرٍ مِمَّا يمكنُ أَن أكونَ أنا في أيِّ وَقت. سوفَ أَكُون ذئبًا قائدًا؛ يُمكِنُني أَن أشعُرَ بذلِك.

أسئلة الفصل

1. « الذِّئْبُ القائِدُ يُطْعِمُ قَطيعَهُ» مَنْ قائِلُ هذِهِ العِبارَةِ، وَما أَثَرُها عَلى الذِّئبِ سَريعٍ؟

2. ما دَلالةُ العُواءِ في عالَمِ الذِّئابِ فيما قَرأْتَ، اقرأ المزيدَ في الشبكةِ المعلوماتيَّةِ أَو في المعلوماتِ الوَارِدةِ في نِهايةِ الكِتابِ عَنِ العُواءِ.

3. ما الدَّرْسُ الَّذي كانَ الأبُ يُحاوِلُ تَعْليمَهُ لِابْنِهِ في أوَّلِ خُروجٍ منَ العَرينِ؟

4. ما تَفْسيرُكَ لِحَوْمِ الغِرْبانِ حَوْلَ الذِّئْبِ الأَبِ قَريبَةً مِنْهُ؟

5. «سَوْفَ أَكونُ ذِئْبًا قائِدًا». ما الَّذي جَعَلَ الذِّئْبَ سَريعًا يَعْتَقِدُ بِهذا؟

مُنافس

بينما ترحلُ آخرُ الأيام الدافئةِ لصيفِ عامِنا الأول، تُعلِّمُ أمي شقيقَتيَ، وثّابة ومياسَة، كيفَ تحفرانِ عَرينًا. أراقبهنَّ وهنَّ يفعلنَ وأتذكَّرُ النّيص. إنّها فُرصَتي الآن.

«ثاقِب. وجدتُ شيئًا لنصطادَه».

«أهو أيّل؟»

«بلْ شيٌ أفضل».

«إذا لم يكُن أيّلاً، فلستُ مُهتمًا».

«يمكننا أنا وحميم أن نفعلَ ذلكَ وحدَنا إذن». أستديرُ وأمضي، وذيلي ينتصِبُ طويلاً، ويسيرُ معي حميم.

«لا تنظُر إلى الوراء»، أقولُ لنفسي مِن تحت أنفاسي.

أسمعُ اشتباكَ أقدامٍ راكِضة، ثمَّ الخطوتين اللتين تتخذهُما قبل أن تنقَضّ. أتدحرَجُ إلى جانب. ويضربُ ثاقِبُ التراب.

أحبُّ ذلكَ عندما يحدُث. لكنَّ فرحتي

لا تدومُ طويلاً. بنبحَةٍ وعضّةٍ

يُثبّتُني ثاقِبُ على الأرض.

«أينَ تظنُّ أنكَ ذاهِبٌ من دوني؟»

أراوِغُ وأتلوّى وأشدُّ وأدفَعُ، لكنّني لا أستطيعُ أن أحرِّرَ نفسي. وبنبحةِ اشمئزازٍ أكشِفُ له رقبتي، فيدعُني أنهض.

«نستطيعُ أنا وسريع أن نصطادَ من دونِك»، يقولُ حميم. ويجلسُ حتى يوقفَ ذيلَهُ عن الاهتزاز.

«أوه، كلا، لَن تفعلا»، يقولُ ثاقِب. «هذه المرّة لي أنا».

الأمورُ تسيرُ كلُّها بأفضلَ مما خطَّطتُ لها.

«هناكَ، بجانبِ بُقعةِ المراقبة»، أقول. «عندَ أشجارِ الصنوبر».

يتولى ثاقبُ القيادة، وكلُّهُ اختيال. ونتبعُهُ أنا وحميم على مسافةٍ آمنة. ولا يستطيعُ أيُّنا أن يوقفَ اهتزازَ ذيلِه. نصلُ إلى البقعةِ حيث يراقبُ أبي الجبال، ونسمعُها كُلنا في الوقتِ نفسِه –الغربان- سحابة كاملة منها. ننظرُ بعيدًا إلى البراري. ونرى النسورَ وهيَ تحومُ فوق الغربان. لقد قتلَ أحدُهم فريسةً. لكنَّ أمي وأبي لا يصطادانِ اليوم. أنظرُ تحتَ سحابةِ الطيور، وهناك أرى الذئابَ، الكثيرَ منها.

«هل يجبُ أن نُخبِرَ__»

أجدُ أن حميمًا قد ذهبَ مُسبقًا وبعدَ بضعِ دقاتِ قلبٍ تكونُ أمي إلى جانبي. تنظُر، وتخطو.

«هل نُغادِر؟» يقولُ حميم. «هل يجبُ أن نذهَب؟»

كلَّ مرةٍ أنظرُ يبدو لي أن ثمةَ المزيدَ من الذئاب في البراري. يسقطُ قلبي. وتستديرُ أمي إليَّ، تُثبّتُني بتحديقتِها الكهرمانيةِ ولا أستطيعُ أن أُبعِدَ أنظاري. أقفُ أكثرَ طولاً. وتقفُ وثّابة وميَّاسةُ على جانبَيَّ. يرفعُ ثاقِب نفسَهُ ليكونَ أطولَ بمسافةِ رأسٍ مِن بقيَّتِنا. أدفَعُ حميمًا برفقٍ ليثبُتَ في المكان.

«نحنُ ننتمي إلى الجبال»، تبدأ أُمّي.

«والجبال تنتمي إلينا»، نجيبُ نحن.

«أُنْظُروا إليكُم –كلُّكُم كبرتُم»، تقول. «ما الذي يمكنُ أن أخشاه ولديَّ مثلُ هؤلاءِ الذئاب. ابْقَوا هنا. سوفَ نضعُ أنا وأبوكُم علاماتٍ على حدودِنا».

يركُضانِ معًا ليضعا علاماتٍ رطبةً على الأشجار عندَ حافةِ أرضِنا، ليرسِلا رسالةً إلى أيّ أحدٍ قد يحاوِلُ العبور. وعندما يعودان نقيمُ حفلَ عواء–ويا لَهُ من عُواء! يندالحُ عاليًا وطويلاً في قلبِ الليل. ندفعُ الذئابَ الغريبةَ بعيدًا بأغنيتِنا بينما تصفرُ أولى رياح الشِّتاءِ الباردةِ هابطةً سفوحَ جبالِنا.

بعدَ أيامٍ قليلَةٍ، عِندَما تنفرِشُ أوراقُ الشَّجَرِ الصَّفراءُ والبُنيةُ سميكةً على الأَرضِ وتنبُتُ للريحِ أسنانٌ تعضُّ ويستحيلُ جدولُ الوطنِ فضيًّا زلقًا عِند الحوافّ، يدعُونا أَبِي لصيدِنا الأول. قبلَ ذَلِك، كُنَّا نتبَعُ القطيعَ وننتظرُ بَين الأَشجار، مُنهِرينَ حابسي الأَنفَاس، بينَما يُطيحُ أفضلُنا بأيِّل. ويأكلُ الصيادونَ أولاً، لكنَّنا نندفِعُ عندئذٍ إلى الفراغاتِ بينَهُم لنأخذَ حصَّتَنا.

«تعالوا»، يَقُولُ أَبِي. «نحن الآنَ ذئابٌ كثيرونَ والأيائِلُ أصبحَت أقلَّ مما كانت عليه سابقًا».

يقودُنا الأبُ إلى مَرجٍ مفتوحٍ بينَ تلَّتَينِ صخريتَينِ يقطَعُهُ جدولٌ متجمدُ السَّطح. نقِفُ في الجانِبِ المواجِهِ للرّيح حَيثُ لا يستَطِيعُ قطيعُ الأيائلِ أن يلتقطَ رائحتَنا.

«يجبُ أَن نجعلَهُم يَركضُونَ أولاً لنَرى مَن يتعثَّر»، يَقولُ أَبي. «سوفَ أركضُ على جانِبِ الشَّمسِ مِنَ القَطِيعِ مَع ثاقِبَ وميّاسة. وستركضُ الأُمُّ ومُنشِدةُ ووثّابةُ على الجانِبِ الآخَر».

يسقطُ ذَيلي إلى الأَرضِ. إنَّهُ لا يُريدُني في الصَّيد. لَنْ أكونَ أبدًا ذئبًا قائدًا إذا لَم أستطعِ اصطيادَ اللَّحم.

«حميم، أنتَ ستبقى على الأَرضِ المُرتفِعَةِ وتمنعُ القطيعَ مِن الركضِ إلى أَعلى الجدول»، يقولُ أَبي.

ينفِشُ حَميمٌ فراءَهُ الذهبيَّ الرَّماديَّ بِفَخر. إنّهُ عملٌ سَهل. فالأيائل تُفضِّلُ الهرَبَ إلى أَسفَلِ النَّهرِوليسَ إلى أَعلاهُ. لكنَّهُ يقدِّمُ مُساعدةً للقطيع.

«سريع! اركُضْ أنتَ أمامَنا وغَطِّ الأَرضَ المنخفِضَة. حوِّلهُم إلى أَعلى التَّل. كلَّما استَطعنا أَن نجعلَهُم يستديرونَ أَكثَر، أصبحَ مِن الأسهلِ أَن نجعلَ أحدَهُم يتعثَّر».

نعَم! خنقتُ صَرخَةَ السَّعَادَةِ في داخِلي، لكنَّني أصبحتُ اهتزازًا جذِلاً كُلّي. إنَّني أستطيعُ أَن أسبقَ القطيعَ كلَّه. الجميعُ يعرف ذلِك. أَضرِبُ كَتِفي بكَتِفِ ثاقِب وأعضُّ أذنَهُ لأقولَ لَهُ هذا. سَوفَ أدفعُ ثمنَ ذَلِك لاحقًا لكنَّني لا أهتمّ. هذِهِ فُرصتي. إذَا أبليتُ بلاءً حسنًا أكثرَمِنهُ في الصَّيدِ، فإنّهُ لَن يدوسَني مجددًا –ولا حَميم أيضًا.

يوجِّهُنا أنفُ أَبي إلى المكانِ فوقَ المَرجِ المُتجمدِ حَيثُ تَرعَى الأيائلَ غافلةً عن الخطرِ القَرِيب. تَهُبُّ الرّياحُ في اتجاهِنا قاسيةً وباردة. والصيدُ نَارٌ تتأجَّجُ في داخِلي. سَوفَ أكونُ الذئبَ الذي أُطعِمُ عائلتي.

أربضُ في ظلِّ الأشجارِ وأنتظِرُ إشارةَ أَبي. في كُلِّ المطاردات كنتُ أراقِبُ، ويأتي النَّصرُ دائِمًا عندَما ينقضُّ القَطِيع على الأيائلِ مِثلَ هبّةِ ريحٍ واحِدَة.

عندئذٍ، مِن دونِ أيِّ إشارةٍ مِن الأَبِ، يقفزُ ثاقِب إلى الفضاءِ المفتوحِ ويُفلِتُ صيحةً. والقطيعُ كلُّهُ ينظُرُ مباشرةً إلَيه.

«انطَلِقْ!» يصيحُ بِي أَبي.

لقَد فاتَ أوانُ التَّوبيخ. إنَّنا قطيعٌ واحدٌ في الانتِصارِ وقطيعٌ واحدٌ في الخَسارةِ أيضًا. أَنطلِقُ سريعًا إلى المَرجِ، مُستثارًا. لَن أَقبَلَ بالخسارةَ في صَيدِيَ الأَوَّل. تتطايَرُ كُتَلٌ مِنَ الثَّلجِ حولَ كتفيّ. ينحرِفُ حَمِيم متجهًا إلى أَعلى التَّلّ. لَن يصيبَهُ أَذى هُناك. تأخُذُ الأُمُّ صيَّاديها حولَ الجانبِ القريبِ من القَطيعِ ويقومُ الأبُ بدورَتهِ حولَ الجانبِ الآخَر. أسارِعُ خطوي وأندفِعُ أَسرعَ هابطًا التَّلّ.

أَرَى ثاقِبًا وَهُو يقفِزُ طائرًا على أَوَّلِ أيِّلٍ في مُتناوَلِه، لكنَّه يُخطِئُه. ثاقِبٌ كلُّهُ جَرو، كلُّه مُصارَعَةٌ ونَفادُ صَبر. سوفَ أُثبِّتُهُ على الأرضِ لاحقًا حتَّى لَو تطلَّبَ منّي ذلِكَ يومًا بطولِه. بَل إنَّهُ لا ينظُرُ ليرى إذا كانَ أيِّلُهُ يتَرنَّح قبل الانقِضاض. أَبي يراقبُ أَرجُلَ الأيائِلِ فقَط، ولا شيءَ آخَرُ. وعِندَما يَجِدُ أيِّلاً مُتعثِّرَ الخُطُوات، يتحرَّكُ للقَتل.

تتقافَزُ الأيائلُ في الثَّلجِ العَمِيق. ويتردَّدُ صَدى صرخاتِها المذعُورةِ العاليةِ حَولَنا. أَعدُو بِقُوَّة لِأَصلَ إلى مُقدِّمةِ القَطِيعِ وأجعلَهُم يستديرُون عائدينَ إلى أَعلى التَّلّ.

يتفاداني الأيّل الأَوَّلُ ثُمَّ آخرُ، والبقيةُ تَتبَع. أَستَطيعُ سَماعَ أَبي وهادر يركضانِ خلفِي. أختطِفُ نظرةً إلى أُمّي ومُنشِدة وسطَ غابةٍ مِنَ الأرجُلِ الراكِضة. يندفِعُ أيّلٌ طَويلٌ بالكثيرِ مِن الفروعِ الحادَّةِ على قرنَيهِ مارًا بِي. أدعُهُ يَذهَب. إنَّهُ مَخلوقٌ أجمَلُ مِن أَنْ يُصطاد. أدفَعُ بَقيَّةَ قَطيعِ الأيائل إلى الاستدارَةِ ثُمَّ أركُضُ عائِدًا لأجعلَها تستديرُ مرةً أُخرى.

تخلَّصَ ثاقِبٌ مِن خطئهِ ونفضَهُ عَن كاهِلِه. وَهُو يركضُ الآنَ مَعَنا في أَعقَابِ أَبِي. وعِندَ الاستدارةِ التَّاليَةِ، يَرى أَبي أيّلاً يبطئُ خطوَهُ، فيقفِزُ طالِبًا حَنجَرَتَهُ. وأترُكُ بقيةَ القَطيعِ تَذهَب.

تنغرسُ أَسنانُ أَبي عَميقًا في الفَروِ الأَسوَدِ الأَشعَثِ عِندَ رقَبَةِ الأيّل. وأستطيعُ أَن أتذوَّقَ مُسبَقًا طعمَ الانتِصار. أجري كَي أساعدَ أَبِي، لَكِنَّ ثاقِبًا يسبقُني بعدّةِ خُطُوات. يَقفِزُ على كتِفِ الأيّلِ ويغرِسُ أَسنانَهُ في تَاجِ رَقَبتِه. يُرخي أَبي قبضةَ فكَّيهِ تحتَ قُوَّة ضربَةِ ثاقِب. حتَّى أُمّي ومُنشِدة لَيستا سريعتَين بِما يَكفي. وفي الوَقتِ الذي أُصبِحُ فيهِ في المكانِ المُناسِبِ للانقضاض، يكونُ الأَيل قَد ماتَ مُسبقًا.

«صَيدٌ جيّد»، قالَ أَبي لثاقِب.

نَقِفُ في حلَقةٍ حولَ الأيّل، متنفّسين بجَهد، شاكِرينَ للحَياةِ التي تهَبُنا الحَياة. «الكلُّ يأكُلُ، والكلُّ يُؤكَل»، هكذا اعتَادَ هادِرٌ أَن يقولَ لَنا عندَما كُنَّا جِراءً. لِذلِكَ نتوقَّفُ لحظةَ امتنانٍ لكونِنا نَحنُ الذِينَ نأكُلُ هذهِ المَرَّة. ثُمَّ نتراجَعُ بينَما يأخُذُ أَبي وأُمّي حصَّتَهُما أولاً، ويلهثُ بقيَّتُنا وينبحونَ مُغتبطينَ برائحةِ اللحمِ الطَّازَج. ودائمًا ما تكُونُ مُنشِدةُ هي التاليةُ في الأكلِ ثُمَّ نَحنُ الصغارُ ثُمَّ هادِر. لكنَّ أَبي يجلبُ أَخِي ثاقِبًا لِيأكُلَ قبلَ مُنشِدةَ هذِه المرةِ، ولا يقولُ شيئًا عِندَما يراهُ يزدَرِدُ القطعَ المُختَارة. وعندَما يحينُ دَورِي، لا يكونُ قَد تَبقّى شيءٌ تقريبًا سِوَى بعضِ القضماتِ وَالعِظام. أكسِرُ عظمةَ ساقٍ طويلةً وألَعقُ ما فِي جوفِها. وذلِكَ يُشبِعُني، لكنَّني أغادِرُ الوجبةَ بِلا رِضَى وأكثرَ تصميمًا مِن أَيّ وقتٍ مَضَى على هَزيمَةِ أَخِي. نتحوَّلُ عائدِين إلى مَكانِ تجمُّعِنا عِندَ حُلُولِ الظَّلام، تَارِكِينَ بَقَايَا صيدِنا لحيواناتِ الراكون والقيوطِ المتسلِّلة.

نصطادُ طِيلَة الشِّتَاء، مالِئينَ بطونَنا، وتاركينَ خلفَنا ثلجًا ملطَّخًا بِالحُمرةِ وبَقايا لتأكلَها الغِربَان. وطَوالَ الشِّتَاءِ، يختارُني أَبي لأدفعَ القطيعَ إلى الرَّكض، ويختارُ ثاقِبًا ليساعدَهُ في إتمامِ القَتل. أستطيعُ أنا أنْ أركضَ دائرًا حولَهُم جميعًا، لَكِن ثاقِبًا يظلُّ الأضخَم. كلُّنا بعُمرِ عَامٍ واحِدٍ، لكنّهُ بطولِ أَبِي، وإذا استمرَّ في الوصولِ أولاً إلى اللَّحمِ، فسوفَ يكونُ بِحَجمِ أَبي في القَريبِ.

لَستُ أَنا جالِبَ اللَّحمِ إذَن. وَرُبَّمَا لَن أَكُونَ أبدًا. أُصبِحُ مسكونًا بالقلَقِ والهواجِسِ بينَما يَأتي الموسِمُ إلى نِهايتِه.

أتوقفُ عَنِ اللَّحاقِ بِأَبي إلى مَكانِ المُراقبَة، وأعثرُلنَفسي على مَكاني الخَاصّ بعيدًا عَن أرضِ اجتِمَاعِ عائلتِنا. أديرُوَجهِي نحوَ الشمسِ الغاربةِ وأراقِبُ البَراري الواسعةَ المفتوحةَ، بقطعانِ أيائِلها وأبقارِها وخرافِها. وينضمُّ إليَّ حَميمٌ، متكوّرًا تَحت ذقني حتّى أنَّني أسمَعُ دقاتِ قَلبِهِ مُتزامِنةً مَع دقاتِ قَلبِي. هَذِه أرضُ مَوطني. أحبُّ كُلَّ نَهرٍ فيها وغَيْضة. لكِنَّ ثاقِبًا يفوزُ دائمًا وأَنا لا أريدُ أَن أَكُونَ ذِئبَهُ التَّابِع.

«خذني معكَ عِندَما تذهَب»، يَقُولُ حَمِيم.

أنبَحُ مُجيبًا، لَيس بنَعم، وَإِنَّمَا ليسَ بِلا أيضًا. ألعقُ أذنَيهِ حَيثُ يُحبُّ ثاقِبٌ ووثّابةُ أَن يعُضّاه. الصيفُ قادمٌ مرةً أُخرَى، وَلن نعودَ صغارًا بعد الآن. بقيَت أُمّي فِي العرين كُلَّ دورَةِ القَمَر. وَأَصبَحَ هادِرٌ أضعفَ مِن السابقِ ويَحتَاجُ إلى أحدٍ يُطعمُهُ مِثلَ جَرو. قَطيعي يحتاجُني. لا أستطيعُ أَن أترُكَهُم أبدًا.

«سوفَ أتبعُكَ إلى أَيّ مكان»، يقولُ حَمِيمٌ.

أسئلة الفصل

1. « الكُلُّ يَأْكُلُ، والكُلُّ يُؤْكَلُ» مَنْ قائلُ هذِهِ العِبارَةِ، وَما رَأْيُكَ فيها.

2. لماذا وَضَعَ كُلٌّ مِنَ الأَبِ والأُمِّ عَلاماتٍ رَطبَةً على الأَشْجارِ عِنْدَ حافَّةِ الأَرْضِ؟

3. ما المَعْنى الَّذي عَناهُ الأَبُ الذئبُ حينَ قالَ: «نحنُ الآنَ ذئابٌ كثيرونَ، وَالأيائِلُ أصبَحَتْ أَقَلَّ مِمّا كانَتْ علَيْهِ سابِقًا»؟

4. «الأَبُ الذئبُ هُوَ قائِدُ القَطيعِ»، صِفْ:
   - تَمَكُّنَهُ منْ تَوزيعِ الأَدْوارِ.
   - وَضْعَ خطةِ الهجومِ.
   - معرفةَ الخصمِ وَنِقاطِ ضَعفِهِ.

5. يظهرُ البُعْدُ الرَّمْزِيُّ في هذا الفصلِ، اِبْحَثْ عَمّا تَدُلُّ عَلَيْهِ العِباراتُ الآتِيَةُ.
   أ. «نحنُ نَنْتَمي إلى الجبالِ» تبْدَأُ أُمّي.
   ب. «والجبالُ تنتمي إلَيْنا»، نُجيبُ نحنُ.
   ت. يَرْكُضانِ مَعًا لِيَضَعا علاماتٍ رطبةً على الأَشْجارِ عِنْدَ حافَّةِ أرْضِنا، لِيُرْسِلا رِسالَةً إلى أَيِّ أَحَدٍ قَدْ يُحاوِلُ العُبورَ».
   ث. وعِنْدَما يَعودانِ نُقيمُ حَفْلَةَ عُواءٍ.

قِتال

عِندَما ذابَ آخِرُ الثّلجِ وشرعَتِ الشمسُ في مسيرِها الصَّيفيّ البطيءِ عبرَ صفحةِ السَّماء، خَرَجَتْ جِراءٌ جديدةٌ مِن العَرين، قافِزةً على كُلِّ صرصارٍ ومُغنيّةً لِكُلِّ عصفورٍ جَبَليّ. وفِي غمرَةِ استمتاعِنا بمشاهدَتِهم، أَصبَحنا أقلَّ حرصًا على مراقبةِ حدودِنا.

عِندَ اكتمالِ أَوَّلِ قَمَرٍ صيفيّ، نجتمِعُ كلُّنا فِي أرضِ الوَطَن، مانحينَ لحمَ الأيائلِ مِن أفواهِنا للجِراء. كلُّهم يهزونَ ذيولَهم ويلعَقون بجَذَل. وَأُمّي تراقبُهم بِفَخرٍ بينَما ينخرِطُ حَميمٌ مَعَهُم بِالكَامِل، مُتدحرجًا ومتصارِعًا معهم دائمًا، ومُحيطًا بالمَجمُوعَةِ كلَّ الوقتِ حتّى لَا يضيعَ منهُم أحَد.

انضمَّتْ إلينا الغِربان، هاتفةً بأغانِيها الناعبةِ ومُنحنِيةً لطائرِها القائِد. تلتقِطُ قطَعَ اللحمِ الباقِيَة، وتقذِفُ العِظَامِ في الهَواءِ وتغوصُ في إثرِها لتلتقِطَها. هكذا يَنبَغي أن تَعيشَ الذِّئاب.

أصبحَ لديَّ جروةٌ صغيرةٌ مفضَّلةٌ مُسبقًا، بفراءٍ بُنيّ داكِنٍ وطرفِ ذيلٍ أسود، تدوسُها شقيقتُها الأكبَرُ مِنها حجمًا كلَّ الوَقت. أنبحُ لَها لِكي تقِفَ عِندَما تُطيحُ بِها أختُها الأَكبَر، وأحرسُ حصَّتَها منَ اللَّحم.

كانَ ينبَغي أَن أُنصِتَ. كلُّنا كانَ ينبَغي أَن نفعَل.

لكنَّهُ حَمِيم هُوَ الذي يشمُّهم أولاً. ويطلِقُ نبحةَ تَحذِير. تستديرُ كلُّ الرُّؤُوس، وتدورُ الآذان على محاوِرها إلى الخَلْفِ والأمام. زعقَةٌ حادةٌ واحدةٌ مِن قائدِ الغِربان وتصمتُ الطُّيُور، ثُمَّ تُغادرُ الأَرضَ قافِزَةً إلى الهَواءِ بحركةٍ واحدةٍ وَتَختفِي.

المتاعِبُ قادِمة.

ثَمّةَ ضبابٌ يلتفُّ صاعدًا الجِبال، كاتمًا الأصواتَ ومُضيّقًا مجالَ رُؤيَتِنا. تَقِف أُمّي وتتعثّرُ الجِراءُ ببَعضِها البَعضِ لتختبئَ وراءَها. تتجمَّعُ صرخةٌ في حلقِها. أرفَعُ أَنفي لأفحَصَ الرّيح، لكنَّ هواءَ المَساءِ ساكِنٌ تمامًا، وكلُّ ما أَستَطِيعُ أَن أشُمَّهُ هُو اللحمُ الذي أمامَنا مباشرةً. تَذهَبُ مُنشِدةً إلى أُمّي وتقفُ إلى جانبِها باحتراس، قريبةً جدًا والأسنانُ مُشرَعة. وتَنظُر ميّاسةُ ووثّابةُ إلى أَبي في انتِظارِ الأَوامِر.

يَخرُجُ قطيعٌ مُعادٍ مِن خلفِ الأَشجار؛ دائرةٌ مِن الذئابِ الشاحِبةِ مثلَ غابةٍ جافّةٍ، بأكتافٍ عَريضَة. وهُم كثِيرُونَ بِما يَكفي للإحاطةِ بِنَا بِيُسْر والنيلِ منّا نحنُ وَكُلِّ جرائنا، إذا لَم نطردهُم عَنَّا. وَهُم يَتَحَدّثُونَ بالزمجرة، بَينَما تَقُول أعينُهُم ذاتِ الزُّرقَةِ الجليديَّة، «هذا لي!»

يقفُ أَبي، طويلاً وعظيمًا. الذئابُ المعاديةُ كثيرةٌ، لكنَّهُ قويّ. تنطلِقُ أمّي قفزًا إلى أَعلى الجَبَلِ، منادِيةً الجِراءَ لتتبَعَها. تندفِعُ عبر الأشجارِ، وتجتازُ الصخورَ وتقفزُ عابرةً جدولَنا. والجراءُ تتبعُها على الأَعقَابِ. يُخفي هادِرٌ عرجَهُ ويزمجرُ على الدُّخلاء، مُهدِّدًا مثلَ أيّ دُبّ. وأَقِفُ كتفًا إلى كَتِفٍ مَع ثاقِب، ووثّابة، وميّاسة، ومُنشِدة، صانعينَ حاجزًا يترتَّبُ على قطيعِ العدوِّ اجتيازُه قبلَ إلحاقِ الأَذَى بجرائِنا.

«اتبَعْهم»، أنبَحُ لحَميم. «أبقِهِم آمِنين».

جراؤُنا صِغَارٌ، لكنَّ حَمِيمًا لن يدعَهُم يسقطُون. يلتفُّ ويَجرِي خَلفَهُم بصمتٍ وسُرعَةٍ بومَةٍ فِي الظَّلام.

نُزمجِرُ نحنُ. ويمنحُني الغضبُ دفقَةً مِن الشَّجاعَةِ. لَا يهُمُّني كَم هُم ضِخَام. هَذِه أرضُ موطني. لَن يأخُذوها. أقفِزُ منقضًّا على ذئبةٍ غريبةٍ بِكُلّ قُوَّتي. لكنَّها لا تسقُط. أَنهَضُ مجدَّدًا على قدميَّ الخلفيّتَين لكِنَّها تُوقِعُني. أغرِسُ أنيابي فِي ساقِها وَهِي تنقضُّ بوحشيّةٍ على أذُني. أَتشبَّثُ بالساقِ وأتشبَّثُ وأتشبَّثُ وألتفُّ حتَّى أسمعَ صَوتَ انقصافِ العِظام. تطلِقُ الذِّئبةُ صرخةَ استِسلامٍ وأتركُها تهربُ متعثِّرة.

يحيطُ البقيّةُ بِأَبي، ينقضُّونَ، ويعُضُّون. يسيلُ الأحمَرُ مِن أبي. قائدُ العَدُوِّ ليسَ كبيرًا بِحَجم أَبي، لَكِنَّه شرِس. وقَطيعُهُ يرفعونَ آذانَهُم ويهاجمونَ بلا كلَل. يحاصِرونَنا كما لَو أنّنا قطيعٌ مِنَ الأيائل. يبحثونَ عَن الذئبِ الضَّعِيف. يبحثونَ عَن الخَوفِ. أَصبَحَ هادِرٌ مطروحًا على الأَرضِ مسبقًا، ظهرُهُ مُلتَوٍ، وأقدَامُهُ لَا تتَحرَّك. يندفِعونَ كلُّهُم معًا نَحوَ أَبي. نُلقِي بأنفُسِنا بينَهُم لنبعِدَ المهاجمينَ عَنه. يسقُطُ اثنانِ مِن أصغرِهم، لكنَّ ثمَّةَ كثيرينَ غيرَهُما.

ينفصِلُ ذئبٌ مِن الأعداءِ عَن القتالِ ويتشمَّمُ الأَرض. إذا عثرَ على آثارِ الجِراء، فَسَوفَ نفقدُهُم. أندَفِعُ خلفَه. للذِّئبِ الشَّاحِبِ جِسمٌ مُكتنِزٌ بالعضلات. لا يمكِنُ أَن أفوزَ، لكنَّني أَستَطِيعُ أَن أستدرجَهُ بعيدًا عَن عائلتي.

أُطلِقُ نُباحًا ضعيفًا؛ أدعُهُ يظُنُّ أنَّني طريدةٌ سَهلَة. أمي ذهبَت إلى أعلى الجبَل، فلأتّجِهْ أنا إلى الأَسفَلِ إذَن. أدورُ عائدًا. أقفِزُ عابرًا جدولَ الوَطن ويتبعُني الذئبُ العدوُّ.

وبينَما أمرُّراكضًا ألمح القتال بشكل ضبابيّ. أَبي صامِدٌ في مكانِه. وثاقِبٌ يطلِقُ نبحةً يائسةً ويركضُ بثلاثِ أرجُلٍ نَحوَ العرين. إذا رأى الذئبُ الشاحبُ أَخِي ثاقِب، فسوفَ يقضي عليهِ، تمامًا كما ننالُ نحنُ دائمًا مِن الأيّلِ الذي يتَعثَّر. وَلَكِنْ، إذا استَطاعَ ثاقِب الاختباء، فرُبَّما تَكونُ لدَيهِ فُرصَةٌ في النَّجاةِ.

أصدِرُ أنينًا مكسورًا كما يَفعَلُ حَمِيمٌ عِندَما تتنمَّرُ عَليه وثّابة. وأنحرفُ بعيدًا عَن ثاقِب ويتبعُني الذِّئب الشَّاحِبُ تاركًا أَخِي لِشَأنِه. الذئبُ العدوُّ سريعٌ لكنَّني أركُضُ في أَرضِ موطني، وأعرِفُ الأَماكِنَ الصلبةَ المَلساءَ وَأَين أقفزُ متجاوزًا حُفرَ النَّيصِ وتلالَ النَّمل. إنَّهُ أَقوَى بِكَثِيرٍ مِن أَنْ أقاتلَه، لكنَّني أستطيعُ أَن أجعلَهُ يَسقُط.

أستديرُ هابطًا الأَرضَ الأكثرَ انحدارًا ووعورةً، لَكِنَّهُ ما يزالُ في أعقابي. يَتبَعُني قريبًا جدًّا حتّى إنني أشعُرَ بأنفاسهِ ورائي. أنحرِفُ إلى الجَانِبِ، دافعًا إياهُ إلى كومةٍ مِن النَّملِ القارص، لكنَّهُ يجتازُه كالبرقِ الخاطفِ دونَ أَن يُبطئَ سرعَتهُ. أناوِرُ حَولَ الشُّجيرات. وأَتَوارى بَين الأَشجَار. لكنّي أَينَمَا تحوَّلتُ أجدُهُ هُنَاك، مُزمجِرًا ومحاولاً التقاطَ ذَيلي. أتجِهُ إلى البِركةِ العميقةِ عندَ منعطَفٍ في النَّهرِ. إذَا استطعتُ أَن أجعلَهُ ينزلقُ على الصُّخُورِ فسأستطيعُ أَن ألوي رأسَهُ تَحتَ الماءِ وأثبّتَهُ هُناك. لكنَّ ضوءَ القمرِ يخذُلُني. يَرى البركةَ ويتجاوزُها بقفزةٍ واحِدَة.

أقودُه، يائِسًا، إلى الأَشجارِ المحطَّمةِ مِن حريقِ الصيفِ الفَائِت. إنَّها سوداءُ متفحِّمَةٌ وسميكةٌ مِثلَ أجماتِ الزعرورِ والعُلّيق. أغوصُ بينَ الأغصانِ المتشابِكة. وتخترقُ الغُصَيناتُ السَّوداءُ الحادَّةُ فرائي. أَستَدِيرُوأتحوَّلُ وأحشُرُ نَفسي في أكثرِ الفراغاتِ حُلكةً حيثُ لا يستَطيعُ الذِّئبُ الشاحِبُ المُرور. أراوغُ

عندَ المَنتَصَفِ ثمَّ آركضُ على طولِ قطعةِ حطبٍ طويلةٍ نحيلةٍ تآخذَني إلى حافةِ شجرةٍ مَحطومةٍ حيثُ أستطيعُ أَن أقفزَ حُرًّا إلى المَرجِ الفسيحِ في الأَسفَلِ. أستجمِعُ نَفسِي وأقفزُ إلى الأَرضِ المَفتُوحَة.

يَتبعُنِي الذِّئبُ الشَّاحِبُ على ساقِ الشجرةِ الطَّويلِ نَفسِه، ويستجمِعُ نفسَهُ ويَقُوم بالقفزةِ نفسِها. لكِنَّ قطعةَ الخَشَبِ تتداعى بصوتِ انقِصاف. وهو يسقُطُ، نابحًا، إلى الخَلفِ على الحوافِّ المدبَّبةِ لجذعِ الشجرَةِ المَكسُور. يهبطُ بصوتٍ مكتومٍ ولا يندُّ عنِ الجسدِ سِوى الصمتِ.

نَعَم! أقفِزُ فرِحًا. إنَّهُ انتصاري. فريستي الأُولى.

أَدُورُ حَولَ نفسي وأعودُ راكضًا. سَوفَ أجتذِبُ ذئبًا آخرَ بعيدًا ثُمَّ آخَر. إنَّهم يفوزون فقَط لِأَنَّهُم كثيرُون. أستطيعُ أَن أُنقِذَ قَطيعي. الذِّئبُ القائِدُ يُدافِعُ عَن عائلتِه. هذا هو الشّيءُ الوحيدُ الذي يفُوقُ جلبَ الطعامِ في الأهمية.

أكونُ فِي مُنتَصَفِ طَرِيق العَودَةِ فَقَط عِندَما أسمَعُ، محمولةً على الريحِ مِن أعماقِ أرضِ موطني، أغنيةَ أَبي الأَخيرةَ. كُلُّ المَخلُوقَاتِ لَها أغنيتُها الأخيرَةُ عِندَ النِّهايَة. حتَّى الأَرانِبُ الخَرساءُ تَصرُخ.

أغنيةُ أَبِي قصيرةٌ وعالِية. يرتدُّ صَداها عَن الصُّخُور.

«امضِ. امضِ. امضِ...».

ينتصِبُ فرائي وأرفعُ رأسِي لألتقطَ آخِرَ نفحةٍ مِن رائحتِه–واحدةً أخيرةً تَمامًا. لكنَّني بعيدٌ وكلُّ ما أَستَطيعُ أَن أشُمَّهُ هُو الذئبُ العَدُوّ الميّت، وَكُلُّ ما أستطيعُ سماعَهُ هُو ذئابُ القطيعِ العدوِّ يُجِيبُون، مغرقينَ أغنيةَ أَبِي بأنشودتهم.

«لي، لي!»

أستديرُ نحوَ مغربِ الشَّمسِ، وأَجرِي كما يَجرِي المَاءُ هابطًا مِن الجِبَالِ. أقدامي تقفِزُ فوقَ الأَرضِ وأغنيةُ أَبي الأخيرةُ تقفزُ في قَلبِي.

امضِ. امضِ. امضِ.

أسئلة الفصل

1. جاءَتْ في الفَصْلِ السّابِقِ عِبارَةُ «الذِّئْبُ القائِدُ يُطْعِمُ قَطيعَهُ» وَجاءَتْ في هذا الفَصْلِ عِبارَةُ» الذِّئْبُ القائِدُ يُدافِعُ عَنْ عائِلَتِهِ» أَيُّهُما الأَهَمُّ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِ الذِّئبِ سريعٍ؟ وَلِماذا؟ وَما رَأْيك في كِلْتا العِبارَتَيْن؟

2. «وَفي غَمرَةِ استِمتاعنا بِمُشاهَدَتِهم، أَصْبَحنا أَقَلَّ حِرْصًا على مُراقَبَةِ حُدودِنا» ما دَلالَةُ هذِهِ العِبارةِ؟ هَل تَعْتَقِدُ أَنَّ هذا هُوَ سَبَبُ ضَياعِ وَطَنِ سَريعٍ؟

3. تُقَدِّمُ الأَعْمالُ الرِّوائِيَّةُ إِشاراتٍ في النَّصِّ تُوحي بِبِدايَةِ تَأَزُّمِ الأَحْداثِ وَتَشابُكِها، هَلْ تَجِدُ في هذا الفَصْلِ أَيَّةَ عِباراتٍ/ إِشاراتٍ تُوحي بِذلِكَ؟ أُكْتُبْها.

4. في مُواجَهَةِ الذِّئابِ المُعادِيَةِ كانَ إعجابُ سريعٍ بِأَبيهِ واضِحًا.
   - أُذْكُرْ مِنَ الفَصْلِ ما يَدُلُّ على ذلِكَ.
   - ما مُواصَفاتُ الأَبِ القَوِيِّ في رأْيِكَ؟

5. «الذِّئْبُ العَدُوُّ سَريعٌ، لكنَّني أَرْكُضُ في أرضِ مَوْطِني» لهذِهِ العبارَةِ دَلالاتٌ كثيرةٌ.. أُذْكُرْ ثَلاثَةً مِنْها.

أيائِل

تنهَضُ الشمسُ وَرائي وأنا ما أَزالُ أَعدُو. تصبحُ الأشجارُ أقلَّ كثافةً ثمّ تتلاشى. والأرضُ تُصبِحُ مسطحةً مفرودَة. أستطيعُ أن أعدوَ إلى حيثُ تَلتقي الأرضُ بالسَّماء، لكنَّ رائحةَ المَاءِ تُناديني. أتوجّه إلى بركةٍ ضحلةٍ مُحاطةٍ بِالقصَبِ والأجمات. أشُمُّ الهَواءَ باحِثًا عَن الخَطر، لكنْ لا شيءَ على الإطلاق.

بَينَما أشرَبُ، يُثقِلُني هذا اللاشيءُ الذي أشمُّهُ وأسمَعُه وأراهُ مِثلَ حجَارةٍ ثَقيلَة. رَحَلَ أَبي. وهادرٌ أيضًا. ولكنْ ماذا عَن البَقيَّة؟ هَل وجدَ حميم مكانًا ليختبئَ فيه؟ هَل فعلَت أُمّي والجِراء؟ هَل تبعثرَ النَّاجُون؟ يمكنُ أَن يَكونوا فِي أيّ مَكان.

أذْرَعُ حافّةَ مجرى الماء. أريدُ أَن أناديَهم. أحتاجُ أَن أناديَهم. لكنَّ علىهِم، مِن أَجلِ النَّجاةِ، أَن يختَبئوا. أرفعُ أَنفي في الرِّيح، ولكِنْ لا رائحةَ لشيءٍ سِوى العشبِ والماء. يتقافزُ سِربٌ مِنَ الطُّيُور، بِذاتِ لونِ العشبِ الأصفر-البنّي الطَّويلِ مِن حولِهم، مِن نسلَةِ عُشبٍ إلى أُخرى. يُغنّونَ كما لو أنَّهُ لَم يحدُث شَيءٌ. أقفِزُ على واحدٍ مِنهُم، فيرتفعُ السِّربُ كلُّهُ وَيُحلّقُ مُبتعِدًا.

أُديرُ أذُنيَّ في كُلِّ اتِّجاه. عويلُ رِيح. أزيزُ نَحل. خشخشةُ فئرانٍ في العُشب. فحيحُ ثُعبَانٍ يتعقَّبُها.

أدورُ حولَ نفسي دورتَين.

أَنا وَحِيدٌ.

هَل يجبُ أَن أذهبَ وأعثرَ عَليهِم؟ هَل أنتظرُ هُنا بجوارِ الماء؟ سوفَ يُصبِحُ الهَواءُ أبردَ مَع قدومِ اللَّيل. سوفَ يحملُ الرائحةَ بِشَكلٍ أَفضَل. أتكوَّرُ في العُشبِ الطَّويل، وأدسُّ ذَيلي فيه باحِثًا عن السلوى، لكِنَّ قلبي ينبضُ بِقُوَّةٍ وكأنَّني مُنخرِطٌ في مُطاردةٍ مُميتَة.

كنتُ قَد تعوّدْتُ التجوالَ وَحدي. في الجِبَال، كان هناكَ دائمًا شيءٌ جَمِيلٌ آخَرُ فوقَ التلَّةِ التَّاليَة –بُحيرَةٌ؛ حَقلُ توتٍ بَرّي؛ رقعةٌ مَحميَّةٌ مِن الجَليد. لكنَّني كنت دائمًا أعود إلى البيتِ، إلى عائلَتي. لَم أنَمْ أبدًا، ولا حتى مَرةً واحدَةً، وَحدي.

يَمضِي اليومُ المُنهِكُ ويَمضي ولا أحدَ يَأتِي. تُعتِمُ السماءُ، ولا يَأتي قَطيعي. تخرجُ النُّجُوم مِن مخادِعِها ولا أشمُّ أحدًا. ثُمَّ يصعَدُ قمرٌ مُكتمِلٌ وتشرَعُ الذئابُ الشاحبةُ في العُواء؛ يبدأ القائدُ أولاً، ثمَّ ينضمُّ آخَرُ، وآخَرُ وآخَر. أَصواتُهُم غريبةٌ قاسيةٌ ولئيمة. ثُمّ عندَ نهايَةِ أغنيَتِهِم، يُطلِقُ ثاقِبٌ نبحةً خفيضَةً ناشِجَة. إنَّهُ ذئبُهُم التابعُ الآن ولَم يعُد أخًا لي. وإذا كانَ أيّ واحدٍ مِن أفرادِ قَطِيعي حيًّا، فإنَّهُ إمَّا صامِتٌ وإمّا ميّت.

يتلألأُ نجمُ الذِّئابِ، الأكثرُ سطوعًا بينَ الجَميعِ، في قُبّةِ السَّماءِ الصيفيةِ فَوقَ أَرضِ موطني. أعرفُ كلَّ بحيرةٍ مُختفيَةٍ وتلةٍ صَخريَّة هُنا، ولكِنْ إذا لم يَكُنْ قَطيعي في الجِبالِ، فإنَّها لن تكونَ لي وطنًا. أُحِسُّ بصرخَةٍ تتجمَّعُ عميقًا فِي داخِلي، لكنَّني لا أَجرؤُ على إطلاقِها.

أستيقظُ فِي الصباحِ مُجفِلاً. أستطيعُ أَن أشُمَّ رائحةَ حَمِيم. أنهضُ قافِزًا على أقدامي وأرفعُ أَنفي في الرّيح.

اختفَت الرائحَة.

لكنَّني شممتُ شيئًا حقًّا. حلمتُ بحميم متكوِّرًا تحتَ ذَقني كما كان يفعلُ دائمًا؛ مُغنِّيًا أغنياتِهِ الهادئةَ. أندَفعُ إلى أرضٍ مُرتفعةٍ وأستنشِقُ عيّنةً مِن النسيمِ مرةً أُخرى.

رُبَّما أكونُ قَد أَخطَأت. لا رائحةَ لطبعةِ قدَم. إنهُ لم يمُرَّ مِن هُنا. لكنَّ هُناك رائحةً خافِتةً لذئبٍ تحمِلُها الريحُ، ممزوجةً بنفحةٍ مِن عبقِ الصُّنَوبَرِ وزهورِ الجَبَل الحُلوة. يمكنُ أَن يكونَ هوَ. يمكنُ أَن يتبعَني إلى أيّ مَكان؛ لقد وعدَ بِذلِك. لكنَّه سيُبقي جِراءَنا فِي مَأمَن أولاً. جراؤُنا! أنهَضُ وأندفِعُ راكِضًا نحوَ أَرضِ الوطَن. سوفَ أجدُهُ وأجدُ الجراءَ أيضًا. سَوفَ أنقذُهم جَميعًا.

ترتفِعُ الأَرض. أواصلُ البَحث. أقفُ. أتنفَّسُ. وأدورُ دورَةً كامِلَة. أحبِسُ أنفاسي وأُنصِت.

ذهبت الرائحةُ تمامًا الآن. لكنَّها كانَت هُنا، أعرِفُ أَنَّها كانَت هُنا. أواصلُ المضيَّ آمِلاً أَن يَكونَ حَميمُ قَد وجدَ طريقةً للتسلُّلِ عبرَ قطيعِ العَدُوّ، وأن تكونَ أُمّي والجراءُ قد وجَدُوا مكانًا للاختِباء. لا ذئبَ يعرفُ جبالَنا مثلَ أُمّي. أركضُ حتَّى يسقطَ ظِلُّها عليّ. ولا شيءَ بَعدُ. أُهرولُ إلى جانبٍ ثُمَّ إلى الآخَر، مُستمعًا ومتذوِّقًا الهَواء.

عندئذٍ، تضربُني مثلَ صخرةٍ تَسقُط مِن على حافّةِ جُرف–رائحةُ علامةِ الحدودِ لقطيعِ الذئابِ الشاحِبة. أستطيعُ أن أرى أين وقَفُوا وعَلاماتِ مخالِبِهم المحفورةَ على لحاءِ الأشجارِ في خطوطٍ مائِلَةٍ طَويلَةٍ مُمتدَّةٍ إلى أَعلى ارتِفاع استطاعوا الوصولَ إليه، وحَيث بلَّلوا جذوعَ الأَشجَار. تصيبُني الرائحةُ بالغثَيانِ. كانَت هذهِ أشجاري. مروجي. أنهاري البَارِدَةُ وقمَمي الملفَّعةَ بإزارِ الثُّلوج. لكِنَّ عَلامَة الحُدودِ تُوقفُني مثلَ حافةٍ هاوِيَة. يجبُ أَن لا أَعبُر.

لا أَستَطيعُ أَن أتركَ حميمًا لأنيابِ ومخالبِ الدُّخَلاء. أُعلِّمُ شجرةً بالبللِ على جانِبي مِن الحُدودِ. أَضربُ الأرضَ بأقدامي تاركًا عليها رائحةً يمكنُه أَن يتبعَها. أركضُ على طولِ جانبِ السُّهوبِ مِن الحُدودِ وأضعُ علامتي الرطبةَ على أَشجارِ البَلُّوط والحُور المُتَناثِرةِ بينَما أَمضي. لا أستطيعُ أَن أقتلَ الذئابَ الشاحبةَ، لكنَّني أَستَطيعُ أَن أُضيءَ دربًا لحميم حتى يجِدَني.

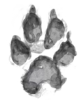

السُّهوبُ أدفأُ مِن الغابةِ وأكثرُ ألوانًا. ثَمَّةَ أزهارٌ زرقاءُ وحمراءُ وأرجوانيةٌ تنحَني في الرّيح وتهَمهِمُ مَع النحلِ. وحَيثُما أَخطُو ثمّةَ جندُبٌ يقفِزُ أَو خنفساءُ تنفِرُ طافِرةً مِن تحتِ أقدامي. وبينَما ترتفِعُ حرارةُ النَّهار، أَتسلَّقُ مرتفَعًا وآخرَ، باحثًا عن بُقعَةِ مُراقبةٍ ربَّما أَرى مِنها حميم، أَو أيَّ ناجٍ مِن قَطيعي.

بعيدًا عندَ حافّةِ الوَادِي أَرى الأيائل. جَيِّد. عِندَما أجدُ عائلَتي سوفَ نحتاجُ إلى الصَّيد.

يرسُم صقرٌ عريضُ الجَناحَينِ، بذيلٍ بلونِ الصَّدأِ، دوائرَ في السَّماءِ بِبُطء، ويحوم صقرٌ صغيرٌ بأجنحةٍ مُرقَّطةٍ مُنقضًّا على فَأر.

أُمضِي كُلَّ العَصرِ وأَنا أراقِبُ وأتسمَّع. ثمةَ قطيعٌ مِن الأَبقَار السوداءِ والبيضاءِ يرعى العشبَ مَع صغاره. وبينَما تستطيلُ الظلالُ تتنقّلُ الأبقارُ وتتجوَّل الخِرافُ بينَ الشجيراتِ عِندَ سَفح تلَّةٍ، بطيئة وقبيحة الأصوات.

أوشِكُ على الانطلاقِ عائدًا إلى الماءِ عِندَما أشمُّها–رائحة ذئب!

أركُضُ إلى قمةِ التلِّ المنبسطة. ليسَ حميم. هُناك بالتَّأكيد أكثرُ مِن ذئبٍ واحدٍ كما تقولُ رائحةُ الأَشياء. وهم ليسُوا مِن قَطيعي. يُمكِنُ أَن يَكونُوا ذئاب صيَّادينَ مِن قَطيعِ العَدُوّ، أَو ذئاب كشَّافينَ يريدونَ قتلَنا كلّنا حتى آخر واحد فينا.

أجثمُ ساكِنًا بِلا حراكٍ بينَ الصُّخُور. عندَما وضعتُ علاماتِ الطريقِ لحَميم، قدتُ الذئابَ الشاحبةَ مباشرةً إليّ. أَنا على يقينٍ مِن أنَّني أستطيعُ أَن أسبقَ أيَّ ذئب، لكنَّ أحدًا لا يستطيعُ الإفلاتَ مِن قَطيعٍ بأكمَلِه.

أراقِبُ تقدُّمَهم. إنَّهُما اثنانِ، لا أَكثر. وَهُما لا يتنكَّبانِ طريقي. إنَهما يتعقَّبان فريسَة. ثُمَّ يغمرُني الارتياحُ عِندَما أَرى، مِن معاطفِهما البُنيَّةِ

الداكنةِ والصخريةِ الرماديَّة، أَنَّهُما ليسا مِن قطيع العَدُوّ. هذان الذئبان يافعان، مِثلِي، وأعزَبان. أستمعُ وأنتظرُ انضمامَ بَقيَّةِ قطيعِهما إلى المُطاردَةِ، لكنَّ أحدًا لا يأتي.

لابُدَّ أَنَّهُما وحدَهُما، غِرّانِ في سنَتِهِما الأُولى. يتخذان وضعِيَّةَ الانتِظارِ للصَّيدِ وعيونُهما مُثبتَةٌ على الخِراف–طعام القيُّوط. لم يُطعِمْنا أَبِي الخِرافَ أبدًا.

أُنقِّلُ أنظاري مِن ذِئبٍ إلى آخَرَ لأَرى مَن منهُما القائِد. كِلاهُما يرفَعانِ ذيلَيهِما. يتلامسانِ بالأَكتاف، ويتدافعانِ في صَمتٍ على مَن سيكُون الأَوَّلَ في الانقِضاض. لن تَسيرَ الأمورُ جيّدًا معَهُما.

ينطَلِقُ الذِّئبُ البُنيُّ أولاً، لكِنَّ الخِرافَ تنحازُ إلى جانِبٍ؛ تُدَوِّمُ بِحُريّةٍ ثُمَّ تركضُ صائحةً عَبْرَ المَرج. ينطلِقُ الذِّئبُ الرَّماديُّ متأخرًا ويستطيعُ فَقَط أن ينهشَ ساقَ خروفٍ خلفيَّةً بِأَسنانِه. يتمسَّكُ جيدًا بالخروفِ الذي يركلُ بينَما يهربُ البَقيَّة. يستديرُ الذئبُ البنيُّ عائدًا ويوجّهُ للخروفِ العضَّةَ القاتِلَة.

وعندئذٍ، لا انحناءَةَ شُكر للذئبِ القائِد، ولا وقفةَ تكريمٍ لحَياةِ اللَّحمِ التي تهَبُ الحياة. يقصُد الذئبانِ الأحشاءَ بتمزيقِ الجِلد، ويريقانِها على التُّرَابِ ويتخاطفانِ القِطَعَ الجيّدَةَ مِن أَفواهِ بَعضِهما البعض. شَيءٌ مُقزِّز. لا نظامَ في القطيع. لا احتِرام. رُبَّما يَكُونانِ يَتيمَين. لا بُدَّ أَنَّهُما تَعلَّما الصَّيدَ مِن مُراقبَةِ القَيُّوط.

أتحوَّلُ عنهُما وأنظرُ نحوَ جبالي. رُبَّما تَكونُ أُمّي والجراءُ قَد هَرَبوا. يُمكِنُ أَن يَكونُوا على الجانِبِ البَعيدِ مِنَ الجِبال. وحَمِيمٌ ومُنشِدة، ورُبَّما حتَّى وثّابة أَو ميّاسةُ، يُمكِنُ أَن يَكونوا مَعَهُم. يمكنُ أَن يكونوا فِي مَرجٍ ما فِي مكانٍ ما،

يصطادونَ الأيائِلَ كما يَنبَغِي للذِّئاب. لن تتخلَّى أُمّي أبدًا عَن جِرائِها. سَوفَ تُدافِعُ عَنهُم حتَّى مَوتِها. كلنا كنا سنفعلُ.

يوقظُني الجُوعُ عِندَ الفَجرِ. يَلتقِطُ نَسرٌ بَقايا الخَرُوف التي تَركها الذئبانِ الغِرّانِ وراءَهُما. رحَلَ الذئبان مُنذ فَترةٍ طَويلَةٍ ولا أريدُ أَن تكونَ لي أيُّ صِلَةٍ بِهِما. إنَّهُما لَيسا أفضلَ مِن ذئابِ القيُّوط المُتسلِّلةِ التي تأتي فِي الظَّلامِ لتلتقِطَ بَقايا صَيدِنا وتنسلَّ خلسَةً قَبلَ أن تصحوَ الشَّمس.

كانَت الإيائِلُ في الأُفقِ يَومَ أَمس. هذا ما كان أبي يريدُني أن أصطادَهُ. وإذا نَجا أحدٌ مِن أَفرادِ قَطيعي، فَهُناكَ سيكونون. أضعُ جوعي جانبًا وأشرَعُ في الرَّكض.

حتَّى مَعَ كُلِّ أحزاني، أجِدُ الركضَ مُتعةً كلَّه. ليسَ ثمةَ أشجارولا أغصانٌ مَكسُورةٌ أَو وِهاد لأدورَ حَولَها. أعدو طليقًا والأرضُ تنطَوي تحتَ أقدامي. إذا كانَ أحدٌ من عائلَتي ما يزالُ حيًّا فسَوفَ يكونُ قُربَ الأَيائِلِ. رائحةُ الأيائلِ تصبحُ أَقوى. أرفَعُ أَنفي بينَما أَجري باحثًا عَن بعضِ رائحةٍ من قَطيعي.

أدورُ مُناوِرًا إلى حَيثُ لا تستطيعُ الأيائلُ أَن تشُمَّني. ينبَغي أَن تتجمَّعَ عائلتي هُنا في انتظارِ اللَّحظَةِ المُناسِبَة للهجوم. أُبطِئُ مِن سرعتي إلى الهَروَلَةِ فالتوقفِ.

لا شَيءَ.

أَدُورُ عائدًا. أُنادِي بنبحَة. ثَمَّةَ مرجٌ مليءٌ بِالطَّعامِ في الانتظار، لَكِنَّ قطيعي ذَهَب. أُطلِقُ نداءً آخرَ وَآخَر.

ولا مِن مُجيب.

لا يُمكِنُ أَن يَكونُوا قَد ماتوا. لَيسَ جميعُهم. ينتشرُ العشبُ والشجيراتُ أَمامي باتِّساعِ السَّمَاء. كيفَ يمكِنُ أَن أجدَهُم في هذا الاتِّساع اللانِهائي؟ يُسقِطُني الجوعُ على الأَرضِ، وأستلقي في العشبِ كي أستعيدَ اتِّزاني، تواقًا إلى

ذلكَ الظلِّ البَارِد، والطحالبِ النَّاعِمَة وإبَرِ القَشّ فِي أَرضِ موطني. يُشعرِني امتدادُ البريَّةِ المفتوحُ بأَنَّني صَغيرٌ، وأحِنُّ إلى رِفقةِ الأَشجار.

عبرَ الأرضِ المفتوحةِ تَأتي أصواتُ الأيائل؛ تُخبرُني أصواتُها وثغاؤها المسترخي بأَنَّها لَم تعرِف مِنَ الريحِ أنَّني هُنا. ومَع أنّني عَطشَان، يُسيلُ صوتُها اللعابَ مِن فَمي. سَوف أصطَاد. يجبُ أَن أفعَل. وعِندَما أُسقِطُ اللَّحمَ، سوفَ يأتي أفرادُ قَطيعي. سَوفَ يَرَونَ الغِربانَ وَالنُّسورَ وهيَ تتجمَّع؛ سوفَ يسمعونَ ذِئابَ القيُّوطِ وهيَ تُغنّي ليَ المدائح، وسَوفَ يجِدوني.

الأيائلُ بعيدةٌ، لكِنَّني سَرِيع. أركُضُ في اتجاهِها غيرَ عابئٍ بكوني أُهدِرُ السرعةَ قَبلَ الأوانِ. سَوفَ أُطعِمُ قَطيعي. لا شَيءَ آخَرَ يَهُمّ.

تَبقى الأيائِلُ في أماكِنِها في البِدايَةِ، لكنَّ الأيِّلَ الحارسَ سُرعانَ ما يَهتِفُ

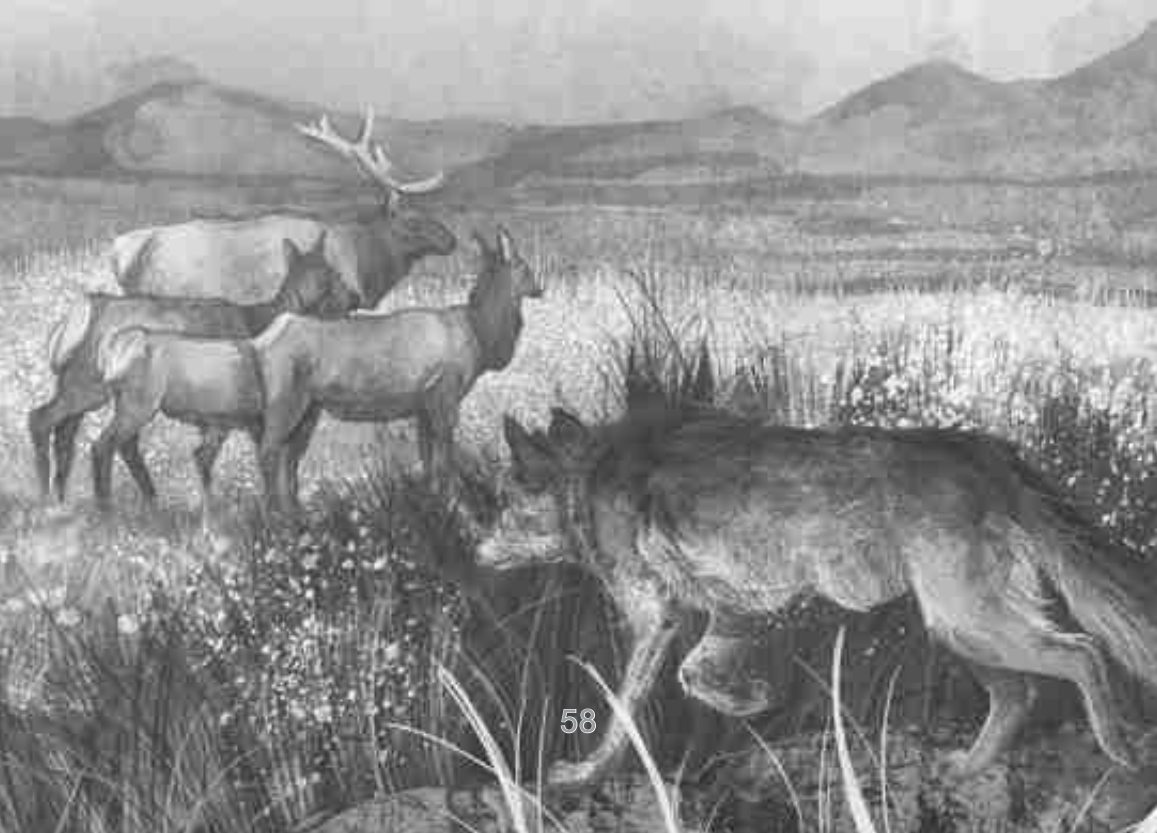

بِنداءِ الهُروب. تَنهَضُ أمّهُم الفِتيَةُ ويمضونَ معًا نَحوَ مَغربِ الشَّمس. لا يهمُّني. لا أَحَدَ يستطيعُ أَن يركضَ مِثلي. أنَهبُ الأرضَ نَحوَهُم وأكسبُ المسافةَ بثباتٍ حتَّى يُصبحَ وقعُ الحوافرِ على الأرضِ كلَّ ما أستطيعُ سماعَه، وعرَقُ الأيائلِ وخوفُها كلَّ ما أَستَطيعُ اشتِمامَه.

تنفرُ الصغارُ صائحةً في رُعبٍ كامِل. وأجدُ أيلاً يتخلَّفُ في الوَراءِ فأعيّنُهُ ليكونَ لي. أستطيعُ أَن أتذوَّق اللحمَ مُسبقًا. سَوفَ أصطادُ هذا الأيّل، وسوفَ يجدُني حَميم. سَتأتي أُمّي والبقِيَّةُ راكضينَ مِن أيّ مكانٍ يختبؤونَ فِيه. سوفَ نكونُ قطيعًا مَرةً أُخرى، وسَوفَ تكونُ هذِهِ أرضَ مَوطِنِنا الجَدِيد.

أركضُ على جانِبِ قطيعِ الأيائلِ كما كانَ يفعلُ أَبي. كان يختارُ لحظةً ينقضُّ فيها ويُسَدِّدُ ضربتَهُ القاتِلة. رأيتُهُ يفعلُ ذلِك، لكنَّني كنتُ دائمًا أركضُ في المقدمةِ لأحولَ وُجهةَ القَطيع. لا أحدَ هُنا الآن ليديرَهُم مِن أَجلي. يدفَعُني الجُوع

إلى الركضِ أسرَع، إلى الاندفاعِ أمام الأيّل وتغييرِ وجهتهِ بنفسي حتَّى أستَطيعَ تسدِيدَ الضَّربَةِ القاتِلَة. تنحرفُ الأيائل الأُخرى بعيدًا بينَما يتَوقَّفُ هَدَفي فَجأَةً وهو يخُورُ بغضبٍ ويُلَوّحُ برأسِهِ مِن جِهَةٍ إلى أُخرى. أكبَحُ ركضي وأدورُ عائدًا فقَط لأجعلَ الأيّلَ يستَدِيرُ مرةً أُخرَى. وفي أقلَّ مِن نَبضَةِ قَلبٍ يَركلُ الأيّل، مقتطِعًا شريحةً مِن لحمِ كتِفي.

تخرُجُ أنفاسي متلاحقةً بصَفير. وأَسمَعُ صَوتَ تصدُّعِ العَظم. تسري نارٌ صاعِدةً عبرَ عنُقي ونزولاً إلى أَخمَصِ قدمي. أضربُ الأرضَ ويهبطُ عليَّ اللَّيلُ سريعًا مثلَ قَصفَةِ رَعْد.

أسئلة الفصل

1. « ولكِن إذا لَم يَكُن قَطيعي في الجِبالِ، فَإِنَّها لَن تَكونَ لي وَطَنًا»، ما مَفْهومُ الوَطَنِ عِنْد سريعٍ؟ وَما مَفْهومُ الوَطَنِ في رَأْيِكَ؟

2. « لا أَسْتطيعُ أَنْ أَقْتُلَ الذِّئابَ الشّاحِبَةَ، لكِنّني أَسْتَطيعُ أَنْ أُضيءَ دَرْبًا لِحميمٍ حتّى يَجِدُني»
ما القيمَةُ الّتي تَتَعَلَّمُها مِنَ العِبارَةِ السّابِقَةِ؟

3. «حتّى مَعَ أَحْزاني، أَجِدُ الرَّكْضَ مُتْعَةً كُلَّهُ» الرَّكضُ هُوَ ما فَعَلَهُ سريعٌ عِنْدما حَزِنَ لِفِراقِ أُسرَتِهِ، ما الشَّيءُ الّذي تَفْعَلُهُ أَنْتَ عِنْدَما تَشْعُرُ بالحُزْنِ؟

4. اِسْتَخْدَمَ سريعٌ حاسَّةَ الشَّمِّ في العرينِ، وحاسةَ السَّمعِ خارجَهُ، وحاسَّةَ البَصَرِ لِمُراقَبَةِ الفَرائِسِ والِانْقِضاضِ عَلَيْها، وحينَ رَحَلَ أبوه عَنِ الحَياةِ تَشارَكَتِ الحواسُّ الثلاثةُ عليهِ مَعًا، ثقيلةً كالحجارةِ. تناقشْ مع زملائِكَ لِوَصْفِ شُعورِ سريع.

5. « كانَتْ هذِهِ أَشْجاري، مُروجي، أَنْهاري الباردَةَ، وَقِمَمي المُلَفَّعَةَ بِإِزارِ الثُّلوجِ»
   - ما الشُّعورُ المُسَيْطِرُ على سريعٍ؟
   - اِقْرأْ هذِهِ الفِقْرَةِ بِصَوتٍ واضِحٍ وَمُعَبِّرٍ أَمامَ زُملائِكَ.

أَلم

ينقشِعُ الظلامُ مثلَ ضبابٍ هارِب. ويضجُّ الأَلمُ عميقًا في عَظمِ كتِفي. أَرفَعُ رأسِي ويلمَعُ عشبُ البريّةِ مِن حَولي مثلَ الماء. يسقطُ رأسِي على الأرضِ مُجدَّدًا ويبتلِعُني الظلامُ مرةً أُخرى.

في أَحلامي أُقاتِلُ قطيعًا مُعاديًا لا أَستَطيعُ رُؤيَتَه، لكنّني عِندَما أتملَّصُ وأفتَحُ عينَيّ، أجدُ نفسِي وحيدًا. النبضُ في صَدري يوجِعُني مَع كلِّ نَفس. لا أَستَطيعُ أَن أَشعُرَ بإِحدى أقدامي. أدفَعُها بأنفي، لكنّها لا تتحرَّك. ألعقُها ولكنْ لا دِفءَ يأتِي مِنها. لَم تعُدِ الأيائلُ موجودةً في أَيِّ مكانٍ فِي مَرمى النَّظَر. يقطُرُ الأحمرُ من جُرحي ويصنعُ بركةً تَحت كتِفي.

أَنظُرُ وأشمُّ المكانَ
حَولي. رَحلَت الأيائلُ مُنذُ
وَقت. يرسمُ نَسرٌ وحيدٌ دوائرَ
واسعةً فَوقي. والجُوع يجعلُ رَأسِي يَعوم.
ألعَقُ مَوضِعَ إصابتي. يهاجِمُني العطَشُ حتَّى إنّني ألعَقُ البركةَ الحَمراءَ وأجتَرِعُها كلَّها. أتوقُ إلى عَريني، إلى مأوىً مِن الأَشجَارِ، لكِنَّ الأَلمَ يوقِظُ فيَّ غريزةَ جَروٍ حتَّى أتماسَك. أديرُ وَجهِي إلى الجِبَالِ وأتذكرُ أَرضَ موطني.

عِندَما أستَيقِظُ، أشمُّ رائحةَ ذئبٍ مرةً أُخرى؛ واحدٍ فَقَط، وهُو بعيدٌ عنّي. أريدُ بشدةٍ أَن يكونَ أخي حميم. أحتاجُ أَن يكونَ ذئبًا مِن قَطِيعي؛ واحدًا يجدُني ويساعدُني لأَعُود قويًّا مرةً أُخرى. ليسَ ذئبًا عدوًّا يقتلُني فورَ رؤيتي؛ لا واحدًا مِن الذئبَين اليافعَين، الذي رُبّما يقتُلُني أيضًا إذا واتَتْهُ الفُرصَة. إذا كانا وَضيعين بِما يكفي لأكلِ الخِراف، فإنَّهُما قَد يفعلانِها. لكنَّ ثمةَ فكرةٌ أَسوَأُ مِن قتلي. رُبَّما يَجِداني ويتركاني لأَنّي لَستُ رَفِيقَ قطيع. كنتُ لِأفعلَ الشيءَ نفسَهُ قَبلَ بضعةِ نهاراتٍ فَقَط. والآن، أصبحتُ أعرِفُ ما يَعنِيهِ أَن تكونَ وحِيدًا.

هبطَ الليلُ وأَنا أكثَرُ جوعًا وضَعفًا. عِندَما أَرفَعُ رأسي، يندفِعُ الألمُ مِثلَ البَرقِ مِن كتِفي إلى قَدَمِي. مَا تزالُ رائحةُ الذئبِ مُعلَّقةً في الهَواءِ، خافتةً. خافتةً جدًّا. أستجمِعُ نفسِي لأَنهَضَ، لكِنَّ ساقيَّ الخلفيَّتين وحدَهُما ستتحمَّلانِ العِبء. يُمكِنُ أَن يكونَ حميمًا، حَميمي، وحيدًا فِي اللَّيلِ مِثلي تَمامًا. يجبُ أَن أجِدَه. يجِبُ أَن أساعِدَه. النُّجُوم تلمَعُ في السّماءِ الليليَّة، والقَمَرُ يستريحُ على خطِّ الأُفُقِ مِثل بيضَةٍ في عش. آخذُ نفسًا. أحاولُ

النُّهُوضَ مرةً أُخرى. أهتِفُ لحميم بأَنّي قادِم. أتوسلُّهُ أَن ينتظرَني. تنفتِحُ حوافُّ الجُرحِ في كتِفِي وينسابُ الأحمَرُ مِنها مُجدَّدًا. وأنهَدُّ، دائِرَ الرأسِ وكَسيرَ القلبِ، على التُّرابِ.

أَستَلقي ساكنًا وأراقِبُ النُّجوم. أَراها تنتقلُ عبرَ السماءِ بثباتٍ وبطءٍ مثلَ أيائلَ ترعَى في البَراري. تذوبُ رائحةُ الذئبِ وتتلاشى في الهَواءِ. وعِندَما تَذهَب وتَختفِي تمامًا، أنوحُ على أَخِي مثلَ جروٍ وليدٍ.

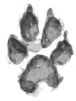

فِي ظلامِ اللَّيلِ، أستيقظُ مذعورًا. ثمةَ ذئبٌ مرَّ بي بينَما كُنت نائمًا. ذئبةٌ أُنثى. ليسَت أُمّي. ليسَت ميّاسةُ ولا وثّابةُ ولا مُنشِدَة. جاءَتني في اللَّيلِ. دارَت حَولي. نظَرت إليَّ. شمَّتني. ثمةَ خصلةُ فِراءٍ سوداءَ وطبعةُ يدِها في الغُبار. تسري وخزةُ ذُعرٍ في رقبَتي وكتِفَيّ. يُمكِنُ أَن تكونَ كشّافةً مِن قَطيعِ العَدُوّ. يمكنُ أَنَّها تقودُهم الآنَ إلى هُنا ليقتُلوني. أُحاوِلُ أَن أتذكّرَ روائِحَ الذِّئابِ الشاحبة. لكنَّ ذاكرتي عَن ذلِكَ أصبحتِ اليومَ محضَ صورةٍ ضبابيةٍ مِن الأَنيابِ المزمجرة والمخالبِ الملطّخةِ بالأَحمَر. ولَا أتذكرُ ذئبةً سوداءَ بينَهُم.

أرتجِفُ مِن الأَنفِ إلى الذَّيل. لا أَستَطِيعُ أَن أهربَ مِنهُم. وحتّى مكمنُ قوّتي الوحِيد، في ساعةِ شدّةِ حاجَتي إلَيهِ، تخلّى عنّي. لَن أدعوَ نفسِي «سَريع» مَرةً أُخرى أبدًا. أبحثُ عَن نجمِ الذِّئابِ الذي يتعلَّقُ فَوقَ أَرضِ مَوطني. ولا أملِكُ سوى أَن آملَ فقَط، وأواجِهَ ما يأتي بكُلِّ رغبةِ النضالِ التي تبقَّتْ فيّ.

لَم تأتِ الذئابُ الشاحبةُ مَع شرُوق الشَّمس. رُبَّما تكونُ الأُنثَى الغريبةُ التي زارتْني تُسافِرُ وحيدةً هِي أيضًا. رُبَّما تَكونُ خائفةً هي الأخرى

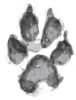

بنفسِ المقدار. كيفَ استطاعَتْ أن تعرفَ أنّني لن أؤذي ذئبةً وحيدةً تأتيني بِسَلام؟ لَيس عِندَما قَد تكونُ شقيقاتي هُناكَ في مَكانٍ ما مَعَ نَفسِ الوَحدَةِ وَالخَوف. أرفَعُ رأسِي لأبحثَ عَنها، لكنَّني وحِيدٌ فِي بُحِيرةٍ مُنبسِطةٍ شاسِعَةٍ مِنَ العُشب.

توقَّفَ الأحمَرُ عَن التدفُّقِ مِن موضِع الإصابةِ في كَتِفَي وحلّتْ محَلَّ الجُرحِ المَفتُوحِ بقعةٌ بُنِيَّةٌ طويلةٌ قاسيةٌ مِثلَ لحاءِ الشَّجَر؛ تلتصِقُ بجِلدي ولَن يُحركَها أيُّ قَدرٍ مِنَ اللَّعق. يَجعَلُني العطشُ أئنُّ مثلَ جَرو، لَكِنَّ غَرِيزةَ الصُّمودِ ما تزالُ تُسنِدُني بِقَبضةٍ قَويَّة. ألعَقُ النَّدى عَنِ العُشبِ في الدائرةِ التي أَستَطيعُ الوصولَ إليها مِن دونِ أَن أقِف. واليدُ التي لم تكُن تُحِسُّ بأيِّ شيءٍ فِي السَّابقِ أصبحَت تَحُسُّ الآنَ بكلِّ شَيء. كلُّ نسيمٍ صَغيرٍ يُحرّكُ فِرائي، ويُحرِقُ كتفي مثلَ نارٍ جامحَة. أَستلقي ساكِنًا. البريَّةُ خاويةٌ مِن حَولي. وحتَّى النسرُ غادَر.

بدلاً مِنهُ، تزورُني أسرابٌ منَ الطيورِ الصَّغيرة. كلُّها صغيرةٌ وبلونِ العُشب. ترفرفُ وَتُغني مُتقافزةً مِن نسلٍ إلى ورَقَةِ عُشب، ملتقِطةً الحَبَّ والنَّمل، ومراقبةً السَّماء خوفًا مِنَ الصُّقور. وعندَما يأتي واحدٌ تتبدَّدُ الطُّيُور مِثلَ الدُّخانِ في الرّيح. أراقبُها طِيلَة اليَوم، مُتعلِّمًا أصواتَها، وروائحَها، والطريقةَ التي تَجري بِها في دروبِ السَّماء. بعضُها رفرفةٌ كلُّها فَحَسْب. وأُخرياتُ تُرفرِفُ بُرهةً ثُمَّ تكُفُّ، غائصةً في انقضاصٍ طويلٍ بَعدَ آخَر. أما المُفضلُ عِندي فهوَ الطَّائِرُ المرفرفُ أخضرُ الظَّهر، الأصغرُ بينَها جميعًا. ثمةَ وميضٌ أُرجوانيٌّ يلمَعُ عِند حناجِرِ هذه الطيور. وليسَت لَها أَسرَابٌ، ولا عضلات، ولا لَحمَ فِيها أبدًا، لكنَّ طَيَرانَها يجعلُ كلَّ الطُّيُورِ الأُخرى تخجَل. حتّى النسرُ، بكلِّ قُوَّتِهِ الهائِلَةِ

لَيس رشيقًا هكذا. أراقبُها وَهيَ تُرَفرِفُ وتحُطُّ حتَّى تتلوَّنَ لفائفُ السُّحبِ القُطنيَّةِ بالورديِّ والذَّهَبيّ.

بحلولِ الليلِ، تكونُ النارُ قد غادَرتْ قَدمي، لكنَّ الجوعَ يحِلُّ محَلّها ليكونَ السيِّدَ بَينَ جميعِ أوجاعي. آكلُ العُشْب.

فِي الصَّبَاحِ، تَكُون رغبتي في البقاء مستلقِيًا بسكونٍ قَد ذهبَت هِي الأخرى، ولكِنْ ليسَت بي قوةٌ لِلنُّهوض. لو أنَّ قطيعي هُنا، لجلبوا لي اللَّحم.

أعُبُّ الهواءَ بقَدرِ ما يستطيعُ صدْري أَن يَسَعَ، وأنادي طالبًا مساعدَتهم. تخرُجُ الصرخةُ مِن مكانٍ عميقٍ في داخِلي. وتتعاقَبُ الصيحاتُ المُرتفِعةُ والمُنخفِضةُ صاعِدةً مِن صَدري إلى الرّيح. أُديرُ أُذُنَيَّ في كُلِّ اتِّجاهٍ، مُصغيًا لعلّي أسمعُ جوابًا.

ولكن، ما مِن عُواءٍ مجيب.

وبينَما يَمضي اليَوم، يُحلِّقُ نسرٌ في دوائرَفَوقي ثُمَّ آخَرُ. وتَحُطُّ خُنفُساءُ سَمينَةٌ في الجِوارِ فألعَقُها عَن الأَرض.

ليسَت سيئةً كثيرًا.

كنتُ قَد رأيتُ الدِببةَ في حَقلٍ صَخريٍّ يرفعونَ الحجارةَ ويأكُلونَ حشراتِ العثِّ التي تحتَها. أزحفُ أمامًا وأقلِبُ حجرًا صغيرًا. لا شيء. ولا شَيءَ تحتَ التالي أيضًا. أما الثالثُ فتحتَهُ حشرة. آكلُها، وأظلُّ جائعًا. ألتقِطُ فراشةً مِن الهواءِ بِيدي السّليمة. آكلُها، وأظلُّ جائعًا. ينضمُّ نسرٌ آخَرُ إلى الطَّوافِ الدائريِّ في السَّماءِ فوقي.

كلُّ الكائناتِ تأكلُ وكلُّها تُؤكَلُ في النِّهايَةِ، لكنَّني لَستُ مُستعِدًا لأن أؤكلَ، ليسَ اليَوم. أُريد أنْ يكونَ لي قَطيعي، قَطيعي الخاصّ. أريدُ أَن أركضَ، أَن أصطادَ، أَن أَعِيشَ. أَقولُ ذلِكَ للنُّسورِ بأوضحِ ما أَستَطيعُ، لكنَّها تُواصِلُ دورانَها فَوقي. مُنتَظِرة.

لا أستطيعُ أَن أركُضَ بعدُ. بالكادِ أَستَطيعُ أَن أمشي، لكنّني أَستَطيعُ أَن أَزحَفَ ويُخبِرُني أنفي بأَنَّ الفئرانَ في الجِوارِ. أسيرُ خطوةً نحوَ الرائحةِ وأستريح، وخطوةً أُخرى وأستريح. أَصبَحَتِ الشمسُ أدنى في السَّماءِ وعادَ الطائرُ الأَخضَرُ المُرفرِفُ ليرقصَ مُجدَّدًا حَولَ رأسي. وعندَما أَعُودُ إلى صيدي، أَجِدُ ما ظننتُه كومةً مِن الحِجارةِ أَمَامي يتفككُّ وينسلُّ مبتعِدًا.

لقَد حذَّرتني أُمّي مِن الأَفاعي. إنّها حادةُ الأَسنانِ ولا تحِبُّ أَن تُداس. ولكِن، هَل هيَ طَعام؟ كان أبي سيخجلُ مني لمجردِ تفكيري في ذلك. ولكِنِ اليَومَ، كُلُّ شَيءٍ يتَحرَّكُ هُوَ طَعام.

أربضُ وأستعِدُّ لتعقبها متسائلاً عَن السُّرعةِ التي يُمكِنُ أَن تزحفَ بِها. تزحفُ بِبُطء متلويّةً عَبرَ العُشب، ثُمَّ تَضرِبُ. وبصرخةٍ جامحةٍ يختَفي فَأر حقلٍ بُرتُقاليٌّ-بُنّيُ في حَلقِها. ثمَّ تسكنُ الأفعَى، والفأرُينزلِقُ بِبُطءٍ في أمعائِها فِي نتوءٍ واحدٍ مُتحرّكٍ مُرقَّط.

أقتُلُ الأفعى بعضَّةٍ واحدَة. وأبتلعها هيَ والفأرَوكلَّ شَيء. ثُمَّ أَصرُخُ في النُّسُور التي تحومُ في السَّماءِ.

«لن أَمُوت!» أهتِفُ. «ليسَ اليوم».

أسئلة الفصل

1. أُريد بِشِدَّةٍ أَن يكونَ أَخي حميم، أَحْتاجُ أَن يَكونَ ذِئبًا من قَطيعي، واحِدًا يَجِدُني وَيُساعِدُني لِأعودَ قَويًّا»
   - ما أَهَمِّيَّةُ الأُخوَّةِ؟
   - إلى مَن تَلْجأُ في الأَوقاتِ الصّعبةِ في حياتِكَ مِنْ بَيْنِ إخوَتِكَ؟ لماذا هُوَ بِالذَاتِ؟

2. لكِنْ ثَمَّةَ فِكرَةٌ أَسْوأُ مِنْ قَتْلي» ما هيَ الفِكْرَةُ الّتي يَرى سَريعٌ أَنّها أَسْوأُ مِنَ القَتْلِ؟ ناقشْ زُملاءَك في هذه الفِكْرَةِ: مَنْ يُؤَيّدُها مِنْكُم؟ وَمَنْ يُعارِضُها؟

3. وَصَفَ سريعٌ ما يُكابِدُهُ مِنْ أَلَمٍ جَسَدِيٍّ وَنَفْسِيٍّ وَصْفًا دقيقًا، اِخترْ بَعضَ العِباراتِ الدَّقيقةَ في وَصْفِ أَلَمِهِ.

4. رَغْمَ وَحْدَتِهِ وَأَلَمِهِ وَافْتِقادِهِ لِعائِلَتِهِ، مَرَّ سَريعٌ بِتَجارِبَ جَديدَةٍ لَم يَعْرِفْها في مَوْطِنِهِ. عَدِّدْ شَيئًا مِنَ تِلْكَ التَّجارِبِ الجَديدةِ عَلَيْهِ.

5. « كُلُّ الكائِناتِ تَأْكُلُ، وَكُلُّها تُؤْكَلُ في النِّهايَةِ» ما المَشْهَدُ الّذي مَثَّلَ هذِهِ الفِكْرَةَ؟

أُنثى الغُراب

أنامُ اليومَ التَّالي كلَّهُ.

يحكُّني اللحاءُ القَاسي على جُرحِي، لكِنَّ لِساني أكثَرُ جفافًا من أن يستطيعَ اللَّعق. تؤلمُني سَاقي لكنَّها ستتحملُ الثِّقل. أَمشي في بُرودَةِ الَّليلِ في اتجاهِ رائحةِ الماءِ بمثلِ بُطءِ دُبٍّ يَدُبُّ خارجًا مِن عَرينِهِ الشَّتويّ. وعِندَ شرُوقِ الشَّمسِ أَرى حُفرةً مليئةً بِالماء أَمامي. رائحةُ الماشيةِ قويةٌ على الأَرضِ، لكنَّني لا أَهتَمّ. بِلا ماءٍ سَوفَ أَمُوت. بِضع خُطُواتٍ أقرَبُ وتُجمِّدُني رائِحةُ البَشَرِ في مَكاني.

في الجِبالِ، وَجَدْنا رائحةَ البشَرِ حولَ حلقاتٍ مِن الحجارةِ والرَّماد. إنَّها الرائحةُ التي علَّمتني أُمّي أن أخشاها فوقَ كُلّ شيءٍ وكلّ رائحَة. البشَرُهُم الأَسوأُ من بَينِ كلّ الأَخطار: لا يُمكِنُ التَّنبُؤ بِأَفعالِهم. حتَّى الدِّببَةُ، بكُلِّ تقلُّبِ أَمزِجَتِها، أسهلُ على الفَهمِ مِن البَشَر.

أربضُ مُنخفِضًا في العُشب وأُراقب. لا مرأَى ولا صوتَ لِبَشَر. أزحَفُ أَقرَبَ وأُلقي نظرةً وأشمُّ آثارَالأقدام. لستُ في وضعٍ للقِتال-ولا حتَّى لِلهَرَب- لكنَّ هذِهِ الطَّبعاتِ بلا أَصابِعُ، وإِنَّما مَحْضُ رُقعَةٍ وأُخرى تتعاقَبُ حتى تَصِلُ إلى نُقطَةٍ مُحدَّدَة. رُبَّما لا يَستَطيعُ هذا البَشَرِيُّ أَن يركُضَ أيضًا. تقُولُ أُمّي إنّهُم سريعونَ لِأَنَّ لَهُم ساقينِ فقط، لكِنَّهُم لا يَستَطيعُونَ الطَّيَرانَ مِثلَما تفعَلُ كلُّ الكائِناتِ الأُخرى ذواتِ القدَمَين.

لَا أستطيعُ المُخاطَرةَ بِخَوضِ قِتالٍ الآنَ، لذلكَ أنتَظِر، على الرغم من أنني أكثر عطشًا من أي وقت مضى. وعلى الرغم من أن الشمس ترتفع في السماء ومعها الحرارة ومعها عطشي. لكنني أنتظر وأستمع.. وعندَما أُصبِحُ واثقًا، واثقًا تمامًا مِن أنّ البشـرَ رحَلُوا، أندفِعُ إلى الماءِ وأغمِسُ رأسي فيه.

حتَّى مَعَ رائحَةِ الماشِيَةِ النَّتِنةِ، لم يكُن لأيّ شيءٍ في حَياتِي كلِّها مذاقٌ أَحلى مِن هذِه المياهِ الصَّافِيَة البارِدَة. أشرَبُ حتَّى تمتلئَ مَعِدَتي. أجِدُ بُقعةً مَخفيةً وأنامُ طيلةَ اليومِ في العُشبِ الأخضرِ النَّاعِم. تأتي الفئرانُ إلى الماءِ، والطيورُ والأرانب. لكنَّها كلُّها سريعةٌ جدًا بالنِّسبَةِ لي. ومَعَ قُدومِ ضوءِ القَمَر، يأتي راكونٌ سمينٌ متثاقِلاً لِيشرَب. وبقفزةٍ مؤلِمةٍ مُعذِّبةٍ واحدةٍ أسحَقُهُ. ويَسري الألمُ في كتِفي بينَما آكُل.

في اليَومِ التَّالي، أكونُ مَا أزالُ مستلقيًا فِي العُشب أقضمُ العِظَام عِندَما تنقَضُّ مِن عَلٍ أنثَى غرابٍ وحيدةٌ هابطةً وتَحُطُّ بِجواري. تتأملُني طويلاً بعينِها فاتحةِ اللَّون. وهي سَوداءُ مثلَ الأرضِ بعدَ حَريق، تمامًا مِثلَ بَقيَّة الغربان، لكنَّ لدَيها بقعةً عاريةً مِن الرّيشِ على صدرِها. أنظُرُ إليها بِحَذَر. وهي تنظرُ إلى اللِّحاءِ البُنّيّ على كتِفي بِحذَرٍ مُماثِل. ما الذي يمكِنُ أَن يكونَ قَد حدثَ لها؟ إنَّها تطيرُ بنفسِ الجودةِ التي اعتدتُ أَن أركُضَ بِها. ولكِنْ، لماذا جاءَت لتراقبَني بكلِّ هذا الاهتِمام؟

أنظرُ إلى العِظامِ حَولي. لقد أكلتُ كلَّ شذرة. في جوعي، لَم أترُكْ أيَّ شَيءٍ للنُّسورِ أَو الغِربانِ أَو أيِّ كائنٍ آخرَ في حاجَةٍ. كان أبي سيخجلُ مني. أشُمُّ الهيكلَ العظميَّ وأجِدُ قطعةً صغيرةً مِنَ اللَّحمِ مُتبقّيةً على عظْمةِ سَاق. أدفعُها نَحوَ أُنثى الغُراب.

أتذكرُ كيفَ كانَت الغِربانُ تتحدّثُ إلى أَبي. كيفَ قادَتهُ إلى الطعامِ وشكرَها بهدايا من قِطعِ اللحمِ الصَّغيرة. أحتاجُ إلى قَطيعي ورُبَّما تستطيعُ أُنثى الغُرابِ هذهِ أَن تُساعدَني في العثورِ عَليهِم.

سوفَ أُعطِي أيّلاً كاملاً لأعرفَ ما تستطيعُ أَن تراهُ مِنَ الجَوّ. أحنِي رأسي لَها كما شاهدتُ الطيورَ تفعَل. وهيَ تحني رأسَها فِي المُقابِلِ لكنَّها لَا تأخذُ اللَّحم. تدورُ حَولي وهي تُصدِرُهمهماتٍ خفيضَة.

رأَيتُ مرّةً غرابًا يفعلُ هذا لنَسرٍ التقطَ أرنَبًا. كان الغراب يواصلُ

الدّورانَ حولَ النَّسرِ وهو يشدُّ ريشَ ذَيلِه. كان اختِبارًا. حتَّى يُهاجِمَ الغُرابَ، فيُضطرُّ النسرُ إلى تَركِ الأَرنَب. باستثناءِ الذِّئاب، لا شَيءَ يصطادُ بمهارةِ النّسر. وبينَما كنتُ أُراقِبُ، انتَظَرتُ أَن يضرِبَ النَّسرُ رأسَ الغُراب. لكِنْ، حتَّى بينَما حلَّقَ النّسرُ أعلى منَ الغُراب، وفاقَهُ في الوَزنِ، وكانَت لَهُ أَجنِحَةٌ أكثَرُ امتدادًا بِكثير، ابتَلعَ النَّسرُ بِبَساطَةٍ بضعَ قضماتٍ إضافيةٍ مِن فريستهِ وطارَ مُبتعِدًا.

يومها، منحني ذلك المشهد أملاً في أَن أجعلَ أَخي ثاقِبًا يخفِضُ لي ذيلَه. الكائنُ الأكبَرُ حجمًا لا يفوزُ دائِمًا. يمكنُ أَن تربحَ الجُرأةُ والمثابرةُ في النِّهايَة. لكنَّ لُعبةَ أُنثى الغرابِ الآنَ تجعلُني عصَبيًّا. مَا الذي قَد تريدُه مِنّي؟ لقَد أعطيتُها كلَّ اللَّحمِ الذي تبقَّى.

أَنهَض على أقدامي. أصبحَ الألمُ في كتِفي أخفَّ، لكنَّهُ يتشنَّجُ عِندَما أستديرُ لأواجِهَ أُنثى الغرابِ. تتراجَعُ بضعَ رفرفاتٍ وتدورُ لتصبحَ ورائي مرةً أُخرى. أستديرُ إلى الجهَةِ الأُخرى. الكتف لَيسَ متيبّسًا كثيرًا في تِلكَ الجِهَة. أنفُضُ فرائي المُتلبّدَ وأعوي عَليها. وهيَ تنفِشُ ريشَ رقبتِها وتنعَقُ عليَّ.

كانَ يجبُ أَن أسألَ أَبي كيفَ كانَ يتحدَّثُ مَعَ الغِربان. بدا أَنَّهُ يفهمُها حتَّى بِلا كلِمات. تأخذُ أُنثَى الغُرابِ كِسرةً مِن العَظمِ في منقارِها وتطير. تُحلِّقُ صاعدَةً بحدَّةٍ، وتُسقِطُ العظمةَ مباشرةً على رأسي، ثُمّ تنقضُّ هابطةً بِسُرعةٍ في إثرِها. أربضُ رَغمًا عنّي بينَما تهبطُ عموديًا في اتِّجاهي، ثُمَّ يَهسُّ ريشُ ذيلِها الذي ينفَتِحُ بينما تلتقِطُ العَظمَةَ بمخالِبِها قبلَ أن تصِلَني، وتتحوَّلُ عن الغوصِ لتطيرَ حَولي في دوائِرَ مُطلِقَةً صيحاتِ انتِصَار. خُدعةٌ جيّدة.

تُحلِّقُ مُبتعدةً في الأَمَامِ، لكنّها تظلُّ في مَرمى النَّظَر. تُسقِطُ العظمةَ وتغوصُ لتلتقِطَها مَرةً أُخرى. ليسَت هذهِ لُعبةُ جِراء. إنَّ الغِربانَ تفعلُ الأشياءَ لِغايَة. أُنثى الغرابِ تتحدثُ إلَيّ. إنَّها تَعرفُ أينَ يمكنُ العثورُ على اللَّحم. ولكنْ، معَ كلِّ دهائِها، تمتلِكُ الغربانُ المناقيرَ الخَطأَ لشقِّ الجِلْدِ وفتحِ الأحشاء. إنَّها تحتاجُ إلى أحَدٍ لَه أسنانٌ لِلوُصولِ إلى اللَّحمِ. أتبَعُ أُنثى الغُرابِ مَشيًا في البدايةِ، وَلكِنْ عِندَما ترتَخي سَاقي المتشنِّجةُ، أستطيعُ أَن أهرولَ ببعضِ السُّرعة.

تأخذُني أُنثى الغرابِ أمامًا نحوَ البريّةِ وبعيدًا عَن الماءِ. ثمةَ آثارٌ لا تُحصى لطبعاتِ الأقدام. كلُّ رائحةٍ تجذِبُني، لكنَّني لا أَستَطيعُ أَن أركُضَ سريعًا بما يكفي لإسقاطِ قَيّوطٍ أَو غَزال. لأحدِ الآثارِ رائِحةٌ بشَريّة. لَم يصطَدْ أَبي أيّلاً أبدًا مِن دونِ أَن يتفقّدَ آثارَ البشَرِ أولاً. كُنَّا نبتعدُ عَن الفرائسِ السهلةِ عِندَما نجِدُ رائحةَ البشَرِ على الأَرضِ. أشعُرُ بالراحةِ عِندَما تقودُني أُنثى الغُرابِ بعيدًا عَن ذلكَ الأثَر.

تصعَدُ الشمسُ عاليًا فِي السَّماء، وأكونُ مُتعبًا بِما يكفِي لأتعثَّرَ عِندَما أسمَعُ صوتَ الماءِ المُندفَع. أتوقّفُ وأُنصِت. لا رائحَةَ لماءٍ هُنا. أستطيعُ أَن أشُمَّ فَقَط رائحةَ القشّ والنَّعناع، وَبَعضِ الأَشياءِ الأُخرى التي لَم أكُنْ قد شمَمْتُها مِن قَبل. أتوقَّفُ هُنيهَةً وأرفعُ رأسي، مُتحولاً مِن جهةٍ إلى أُخرَى لأفهَمَ ما يقولُهُ لي أَنفي. نَصِلُ إلى أرضٍ مرتفعةٍ وأَرى أَمامي مرعىً داكنَ الخُضرةِ بِلا أيائلَ ولا غزلانٍ أَو أيّ شيءٍ صالحٍ آخر. لا شيءَ سِوى صفوفٍ مِن نباتاتِ النعناعِ داكنةِ الخُضرةِ التي تَمتدُّ في صفُوفٍ مُستقيمةٍ بشكلٍ غيرِ طَبيعيّ.

كانَتْ أُمّي قَد أرَتني أرضَ مَوطِنِ البشَرِ ذاتَ مرةٍ مِن بَعيد. كانَت فيها نباتاتٌ مُرتَّبةٌ في صفوفٍ مُستقيمةٍ في كلّ الأنحاءِ وبُقَعٌ كبيرةٌ مِن الأَرضِ العاريَة.

«البشرُ يفعلونَ الأشياءَ بِلا سبَب»، قالَت أُمّي.

جلسَ رجلٌ على شيءٍ يصنعُ الكثيرَ منَ الضَّجيجِ وقادَهُ في دوائرَ واسعةٍ على التُّراب. بِلا سَبَب. كانَ على أحدِ جانبَيهِ ماءٌ جيدٌ، وغزالةٌ مُختبئةٌ مَع صغيرِها في الظلِّ المُرقَّطِ لشجرةِ حورٍ على الجانبِ الآخَر، لكنَّه لمْ يكُنْ يستفيدُ مِنَ الطَّعامِ أَو الماء.

«البشرُ مُرتبطونَ كثيرًا بالأرض»، قالَت أُمّي. «لكنّهم يَستَطيعُونَ أَن يَقتُلوا بنظرةٍ وضجَّةٍ عالِيَة. ابقَ على مسافةٍ بعيدًا عَنهُم. لا أحدَ يُمكِنُ أَن يفهمَهم».

يجعلُني مشهدُ النباتاتِ المرتّبةِ في الصُّفوفِ قلِقًا، وأنصُبُ الفراءَ على كتفيَّ لأقولَ ذلِكَ، لكنَّ أُنثى الغرابِ تغويني بمُجاراتِها. ثمَّةَ على الأقلِّ ماءٌ للشربِ في قَناةٍ. وفي الجانبِ البعيدِ ثمةَ نهرٌ أَسوَدُ. نهرٌ حالِكُ السوادِ كاللَّيل. ساكِنٌ تمامًا. مُتجمِّدٌ في مُنتصَفِ الصَّيف. وتَدرُجُ صانعاتُ صخَبٍ بشَريّةٌ على هذا النَّهرِ المتجمدِ أسرَعَ مِمَّا أستطيعُ الرَّكض. رائحتُهُ كالمَوت. يملَؤُني القلَقُ والخَيبَة. ليسَ هَذا مكانًا لذِئب. لَن تبحثَ عَنّي عائلتي أبدًا هُنا. أجلِسُ وأرفضُ المضيّ. تَدور أُنثى الغُراب فَوقَ رأسي ثُمَّ تغوصُ في اتّجاهِ ضفَّةِ النَّهرِ الأَسوَد. يجعلُني اشمئزازي منَ البشَرِ أتجاهلُها.

لكنّ أُنثى الغرابِ تطيرُ بنفسِ العِنادِ ذاهبةً إلى الضفَّةِ وعائدةً مرةً أُخرى. لا أَهتَمُّ.

لن أقتَرِبَ ولا حتّى خطوةً واحِدَة.

مَعَ كلِّ الصدمةِ التي تصنعُها الروائحُ الكريهةُ والصَّخَبُ العالي، لا أَسمَعُ ذِئابَ القيُّوطِ القريبةِ تقريبًا. أَراها تَعدُو حَولَ حَقلِ النَّعنَاعِ في كُتلٍ صَفراءَ نابِحَة. تذهبُ نحوَ أُنثى الغُرَاب وتنقَضُّ بصيحاتٍ مُبتهِجةٍ على الشيءِ الذي تُريهِ لَهُم. تُقرقِرُ معدَتي ويَسيلُ اللُّعابُ مِن فَمي. لَم آكُلْ مُنذ الأمس. تلزَمُني مَعِدةٌ ممتلئةٌ حتّى أتعافى كما ينبَغي. أنهَضُ وأتخِذُ طَريقي نحوَ ذِئابِ القيُّوطِ التي تأكُل. إذا رَأَوا أنَّني مُصابٌ، فسوفَ يهاجمونَني. ولكنْ إذا استطعتُ أن أخيفَهم بنبحةٍ، فسأتمكنُ مِن انتزاعِ بَعضِ اللَّحمِ. أدورُ بِحَذَرٍ مَعَ اتّجاهِ الرّيحِ القادِمةِ مِن جِهَتِهِم ثُمَّ أقفُ على قِمَّةِ التَّلّ. أَرفَعُ رأسي إلى الوراءِ وأطلِقُ عقيرَتي بِأَكثَرِ العُواءِ شراسةً. يتبعثرُ ذئابُ القيوط
وكأنَّما كنَسَتهُم ريحٌ هائِلَة.

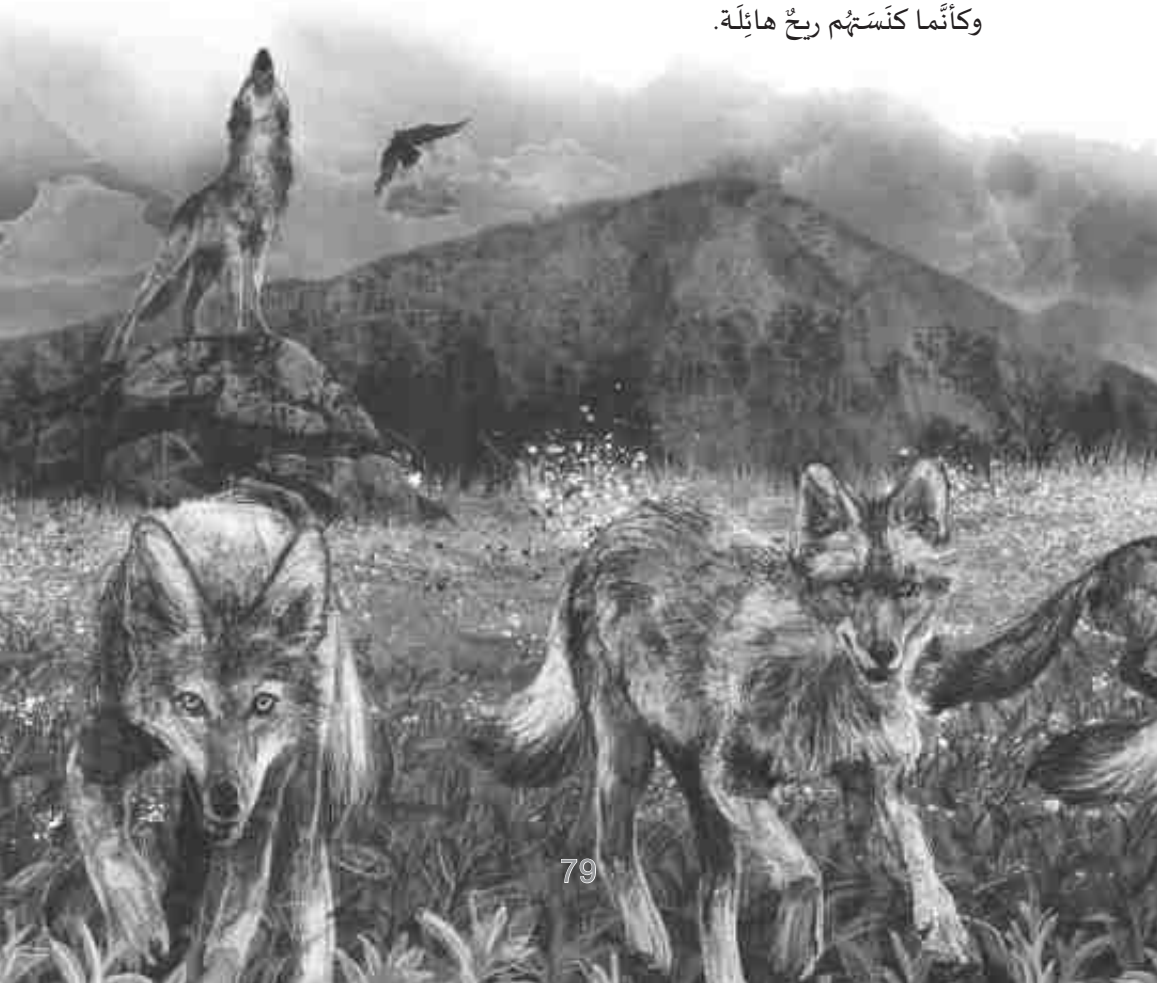

يرتَفِعُ ذَيلي فرحًا وأنا أراهُم يختفونَ في العُشبِ الطَّويلِ وراءَ المزرَعَة. وأعودُ لآخُذَ جائزتي.

لكنَّها صغيرةٌ. والكثيرُ مِنها ذهَبَ مُسبقًا. وأنا أكثرُ جوعًا مِن أَن أَتذمَّرَ، لكنَّني عندئذٍ أَرى أثَر تلك القدَم. ليسَ حافرَ الأيّل العريضِ ولا حافرَ الغَزال الضيّق. إنّها طبعةُ قدَمٍ صغيرةٍ بوسائدَ ومخالِب مِثلَ طبعةِ يَدِي. ويُظهرُ ما تبقَّى مِن جِلدِ الفريسةِ بُقعًا بُنيةً على أُذُنَينِ بيضاوَينِ متدليَتَينِ ناعمتَين. أبتعِدُ مُشمئِزًا. سَوف أصبحُ أكثرَ جوعًا بكثيرٍ مِمَّا أَنا الآنَ قَبلَ أَن أنحَدِرَ إلى حدِّ أكلِ مِثلِ هذِهِ البَقايا التي تركَها قطيعٌ مِن ذئابِ القيُّوطِ الحَمقاء. أستديرُ وأسيرُ مُبتعدًا.

عندما تنحدِرُ الشمسُ ويبردُ الهَواء، أسمَعُ صوتَ عواءٍ ويتقافزُ فيَّ الأملُ بُرهَةً. لكنَّهُما فقط هذانِ الذئبانِ اليافعانِ قلِيلا الخِبرةِ. فَقَط هذانِ الِاثنان، وليسَ عائلةً لِي. يَعبُرُني الألمُ مِن الأُذُنَينِ إلى الذَّيل. ومَعَ ذلِكَ، أيُّ ذئبٍ سيكونُ أفضلَ مِن لا ذئبَ على الإطلاقِ. أستديرُ نَحو عوائهما وأنطَلِقُ راكِضًا.

أسئلة الفصل

1. بِسَبَبِ وَحْدَتِهِ وَجوعِهِ وَأَلَمِهِ اضْطُرَّ سريعٌ لِلْقيامِ بِأُمورٍ، واعْتَقَدَ أَنَّ والِدَهُ سَيَخْجَلُ مِنْهُ بِسَبَبِها.
   - ما هِيَ هذِهِ الأمورُ. هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّ والدَهُ سَيَخْجَلُ حَقًّا منهُ، ولَن يَتَفَهَّمَ أَسْبابَهُ؟
   - هَلْ وَجَدتَ نَفْسَكَ يَومًا مُضْطَرًّا لِفِعْلِ أُمورٍ تُخْجِلُ؟ ما الّذي دَفَعَكَ لِذلِكَ؟

2. يَزْخَرُ الشِّعْرُ العَرَبِيُّ بِأَبياتٍ عَنِ التَّرَفُّعِ مِثْلِ:
   سَأَتْرُكُ ماءَكُمْ مِنْ غَيْرِ وِرْدٍ ... وَذاكَ لِكَثْرَةِ الوُرّادِ فيهِ
   إِذا سَقَطَ الذُّبابُ عَلى طَعامٍ ... رَفَعْتُ يَدي، وَنَفْسي تَشْتَهيهِ
   وَتَجْتَنِبُ الأُسودُ وُرودَ ماءٍ ... إِذا كانَ الكِلابُ وَلَغْنَ فيهِ
   وَيَرْتَجِعُ الكَريمُ خَميصَ بَطْنٍ ... وَلا يَرْضى مُساهَمَةَ السَّفيهِ
   ما المَشْهَدُ الَّذي يُعَبِّرُ عَنْ مَعْنى الأَبياتِ السّابِقَةِ، اسرُدْهُ لِزَمِلائِكَ بِأُسلوبِكَ مُوَضِّحًا القِيَمَ الخُلُقِيَّةَ الَّتي يَعْكِسُها.

3. «البَشَرُ هُمُ الأَسْوأُ مِنْ بينِ كُلِّ الأَخْطارِ»
   - لماذا كانَ سريعُ يَخْشى البَشَرَ، وَلِماذا كانَتْ أُمُّهُ تُحَذِّرُهُ مِنْهم دَومًا؟
   - كَيْفَ وَصَفَتِ الذِّئبةُ الأمُّ البَشَرَ في هَذا الفَصْلِ؟

4. كانَ الذِّئبُ الأَبُ هُوَ الغائِبُ الحاضِرُ في ذِهْنِ سريعٍ قَبلَ كُلِّ عَمَلِيَّةِ اِفْتِراسٍ،
   - ما سببُ ذلك؟
   - في أَيِّ مواقِفِ الحياةِ تَستحْضِرُ صورةَ والِدَيْكَ أَو أَحَدِهما؟

5. «إِنَّ الغِربانَ تَفْعلُ الأَشياءَ لِغايَةٍ».
   اِشرحْ هذِهِ الجُملَةَ مُوضِّحًا تَبادُلَ المَنْفَعَةِ بَيْنَ الذِّئبِ سريعٍ وأُنثى الغُرابِ.

لِـقاء

لـن يكونَ العُثورُ على الذئبَينِ اليافعَين صعبًا. إنَّهما يعويانِ ويعويانِ بِلا توقُّف، مطلقَينِ صيحاتِ الافتِخار. لقَد اصطادا لَحمًا. وهذا كلُّهُ أفضلُ لي؛ سَوفَ آكلُ أولاً ثمَّ أريهِما مهاراتي في الصَّيدِ في المَّرةِ القادِمَةِ عندَما أكونُ أَقوى. أشعرُبالرِّضى. تؤلِمُني عضَلاتي تَحتَ اللِّحاء القاسي علَى جُرحِي بعد أن جَعَلتني ساعاتُ المَشيِ مُنهَكًا.

سَوفَ أضطرُّإلى التوسُّلِ حتَّى آكُلَ مَعَهُما. سوفَ أكرَهُ إسبالَ ذَيلي لِهذَينِ الأحمقَين، لكنَّ عليَّ أَن أَبدَأَ مِن مكانٍ ما. حتّى تنضمَّ إلى قطيعٍ يَنبَغي أَن تَشُقّ طَريقَكَ إلَيهِ بالقِتال أَو التوَسُّلِ، ولستُ في وضعٍ مُناسبٍ للقِتال. كانَتْ لحَميم طريقةٌ في الزَّحفِ نَحوي ليلعَبَ ويُصارِع. وكانَ يدعُني أَفوزُ، وجعَلَني ذلكَ أحِبُّهُ وأُريدُ أَن أعتَنيَ بِه. أَستطيعُ أَن أتظاهرَ بأنَّني مِثلُ حَميم. أستطيعُ أَن أجعلَهما يُريدان الاعتِناء بِي.

أَنظرُإلى جِبالِ موطِني التي تُنيرُها شعاعاتُ الشمسِ الغارِبة. ستكونُ الذئابُ الشاحبةُ هُناكَ الآن. ستضعُ عَلاماتِها الرطبةَ فوقَ عَلاماتِ أُمّي وأَبي، وتجتمعُ في

مكانِ اجتماعِنا، وتَصطادُ أيائِلَنا. وسيكونُ ثاقِبُ واحدًا مِنها الآن. إنَّهُ حيٌّ على الأَقلّ. هلْ يستحِقُّ الأمرُ البقاءَ في أرضِ الوطنِ والعيشَ بَين غُرَباء؟ يُمكِنُني أَن أعودَ إلى هُناك. يُمكِنُني أَن أتوسَّلَ طَريقي إلى قَطيعِ العَدُوّ، وعندئذٍ سأكونُ في وطَني على الأَقلّ. ولكنْ، أَيّ نَوعٍ مِن الوَطَنِ سَيَكُون؟ سأكون دائمًا ذئبًا تابِعًا. ودائمًا آخرَ مَن يأكُل.

الذئبان الغِرّانِ ليسا مثيرَين للإعجابِ كثيرًا، لكنَّهُما فَتِيّان. سوفَ يُصبِحان أَفضَل. يمكنُني أَن أقودَهُما يومًا ما. سَوف أجعلُ نفسي أَقوى وأشُقُّ طَريقي إلى القِمّةِ بالقِتال. وفي البَراري أيائِلُ وأنهارٌ ستُبقينا أحياء، ومشهد الجبالِ لنرفعَ إليهِ رؤوسَنا في نهايةِ اليَوم. أيُّ شَيءٍ أكثرُ مِن هذا يحتاجُهُ ذِئب؟ بِهذِهِ الفِكرةِ أتحوَّلُ عَن الجِبَالِ وأتجِهُ نَحوَ قَطيعي الجَديد.

ساعَةُ الغُروب هي الأهدَأُ في اليوم، ولا ريحَ فيها لتجلبَ لي رائحةً ما لشيءٍ ربَّما يَنتظرُ في الأمام. تَوقَّفَ الذئبانِ اليافِعانِ عَن العُواء، لكنَّني أَستَطيعُ العثُور علَيهِما مِن صوتِ أكلِهِما.

لقَد اصطادا شيئًا أصغرَ مِن أيّل. بَلْ حتّى أصغرَ مِن غَزال. ولَهُ جِلدٌ أَسوَدُ وأَبيَض. يجبُ أَن يكونَ جروَ بَقَرة.

لَم يكُن أَبِي ليُحِبَّ هذا. إنّهُ حَتَّى أسوأُ مِن خَرُوف، كان سيقولُ، صالحٌ فقط لذئابِ القيوط وَالنُّسُور. لكنَّني جائِعٌ، ومُضطرٌ إلى أن آكُلَ كُلَّ شَيءٍ أستطيعُه.

أقفُ بعيدًا على مسافةٍ آمِنة. وحتَّى في الهواءِ السَّاكِن، تصِلُني رائحةُ اللحمِ الطازجِ زكيّةً إلى حدٍّ يجعلُ معدتي تئِن. يجبُ أَن أنتظِرَ حتَّى يأكُلا أفضلَ الأجزاءِ بحيثُ لا يمانعانِ مشاركةَ ما تبقّى. لكنَّني إذا انتظرتُ طويلاً، فلَن يتبقّى شيءٌ، وأَنا جائِعٌ جدًّا، وقَد تأخَّرَ الوقتُ كثيرًا في النَّهارِلتتجمَّعَ الطُّيور، ولذلكَ ليسَ هُنَاك أحدٌ ليُحذِّرَ مِن أنَّني أراقبُهما. أمسَحُ بعينَيَّ العشبَ الطويلَ مِن حَولي لأَرى إذا كانَ هناكَ أيُّ منافسينَ على بَقيَّةِ اللَّحم.

ثمَّةَ أحدٌ ما هُناك. رُبَّما كنتُ سأفَوّتُ ذلِك، لكِنَّ اهتزازًا طفيفًا في أَجمَةٍ كثيفةٍ مِن العشبِ تلفِتُ انتِباهي. أديرُ أُذُنيَّ في ذلِكَ الاتِّجاهِ وأرفعُ رأسِي لأشُمَّ. حَمِيم؟ يُفوّتُ قَلبي دقّةً. أرفَعُ رأسي إلى أَعلى وأستنشِقُ الرائحةَ مرةً أُخرى.

إِنَّهُ هُوَ! حميمي! سَوفَ أعرفُهُ في أيِّ مَكان. أرفَعُ رأسي لأعويَ لَه، لكنَّني أجمُدُ في مَكاني.

أراهُ مُختبِئًا، مُنحنيًا قريبًا مِن الأَرضِ، يراقبُ الذئبَين اليافِعَين، ويمتزِجُ فراؤُه الذهبي-الرمادي بالأَعشابِ الخَضراء-الرماديةِ الشاحِبة. إنَّهُ وحيدٌ وَخائِف. وأَنا لستُ في وضعٍ مُناسِبٍ لأدافِعَ عنهُ إذا هاجمَهُ الذئبانِ اليافعان. رُبَّما يفعَلان. سنكونُ، حَمِيمٌ وأَنا معًا، تهديدًا أكبرَ لَهُما. أحبِسُ عُوائي. وأدورُ بصمتٍ وأجِدُ حُزمةً مِن الزهورِ الصفراءِ الطويلةِ خلفَه.

مَا يَزالُ الذئبان الغِرّانِ يأكُلان. ولا ريحَ كافِيةً لِتَحمِلَ رائحتي إلى حَمِيم.

أُدحرِجُ حجرًا بِيَدي. وَهُو يرفعُ رأسَهُ ويُديرُ أذنيهِ في اتّجاهي.

«أنا هنا»، أنبحُ لَه بأكثرِ ما أستطيعُ مِن نُعومَة.

يرتجِفُ حَمِيم. يستديرُ وينظرُ حولَه لِيَرى. أَمشِي خارجًا إلى العَراءِ المكشوفِ، وهُو يزحفُ نَحوِي. ينخرِطُ ذيلي في اهتزازٍ كاملٍ جَذِل.

حَمِيم! كنتُ أعرِفُ أنَّهُ سيتبعُني. وعِندَما يصبحُ بجانِبي أخيرًا، يُريحُ ذقنَهُ على كتِفي ويتنهَّدُ بعُمق. مَهما يحدُثُ الآنَ، سوفَ نكونُ معًا.

«أنتَ هنا»، يقولُ حَمِيم. «حلُمتُ بأنَّكَ ستكونُ هُنا».

أحكُّ ذَقني بِرقَبتِه. «سوفَ نرتَحِلُ معًا، كما خطَّطنا سابقًا» أقول له.

أستطيعُ أَن أواجِهَ أيَّ شَيءٍ الآن.

«البراري المنبسِطةُ ليسَت سيئةً كثيرًا»، أبدأُ. «هناكَ أيَائِل. الكثيرُ مِنهَا. وَماء. سَوف نَجِدُ طريقًا. كلانا فقط».

أمسحُهُ بأنفي مِن الكتفِ وحتّى—

وعندئذٍ أَراها؛ آثارَ مَخالِب، تمتدُّ مِن ظهرِهِ إلى رُدفِهِ، طويلةً، حمراءَ وغاضِبة. ترتعشُ ساقاهُ الخلفيتانِ حتَّى وَهُو يقفُ ساكِنًا. لا أعرِفُ كيفَ يستطيعُ أَن يقِفَ مِن الأَساس. لا بُدَّ أنّ الألَمَ الذي ما يزالُ يَحْرِقُ سَاقيَ الأماميةَ وكتِفي ليسَ شيئًا مقارنةً بألَمِه. لا أحمرَ يسيلُ مِن جُروحه. ليسَ الآن. لكنَّها تمتدُّ واضحةً بحدّةٍ عبرَ فرائهِ وجِلدِهِ وعميقًا داخلَ عَضَلاتِه.

تنحَبِسُ صرخةُ ثأرٍ عميقًا في حَلقي. مَن فعلَ بهِ هذا؟ سَوفَ أُمزقُهم إرَبًا بأَسناني! ولكِنْ، حتَّى بينَما تتحوّلُ صرختي إلى هديرٍ أُدرِكُ أنَّ الذي فعلَ هذا كانَ أكبرَ منّي وأَقوى.

كيفَ سأحمي حَميمًا الآن؟ إنَّني جريحٌ وضَعيفٌ أَنا نَفسي. وهُوَ نَحِيل. بالغُ النُّحول.

أستطيعُ أَن ألمسَ كلَّ ضلعٍ منهُ تحتَ لِساني بينَما ألعَقُ جُروحَه.

«استرح»، أقولُ لَه. «سوفَ أجلِبُ لكَ اللَّحم». أدفعُهُ بأنفي إلى الرُّقادِ حيثُ العشبُ الطويلُ يُغطينا كلَينا. إنَّهُ يحتاجُ إلى الراحةِ، وَالطَّعام. إنَّهُ يحتاجُني.

«كنتُ أعرفُ أنكَ ستُفلِت»، يقُولُ حَمِيمُ بينَما يتكوَّرُ على الأَرضِ عِندَ أقدامي. «أنتَ الأسرعُ بينَنا جميعًا».

ألعَقُ أذنيهِ بالطريقةِ التي يُحِبّ. «عبرَ أرضِ العَدُوّ، وهُنا في العَراء على الأَرضِ المنبسطة، أنتَ لا تستسلِمُ أبدًا».

«سوفَ أتبعكَ إلى أيّ مكان»، يَقُول.

يوجِعُني قلبي عَليه. لم يَقُل شيئًا عَمَّا جَرى لأُمّي والجِراء. أُريدُ أَن أعرفَ الحقيقةَ وأكرَهُ أَن أعرِفَها. كنتُ قَد رأيتُ حميمًا خائفًا في كثِيرٍ مِن الأحيانِ، وإِنَّما لم أرَهُ أبدًا بِهذا الضَّعف. لا أستطيعُ أَن أسألَه. ليسَ الآن. سَوف أُطعِمُه. سَوفَ أجعلُهُ أحسَن. ثُمَّ إذا نَجَت أُمّي والجِراء، سوفَ نَجِدُهُم معًا. أستديرُ عائدًا نحوَ الذئبَينِ اليافعَين وصيدِهِما. نَحوُ الطَّعَامِ الذي سينقذُنا كلَينا.

أسئلة الفصل

1. «حَتّى تَنْضَمَّ إلى قَطيعٍ يَنْبغي أَنْ تَشُقَّ طَريقَكَ إِلَيْهِ بِالقِتالِ أَوِ التَّوَسُّلِ»
   - ما الطَّريقَةُ الَّتي اسْتَخْدَمَها سريعٌ؟ ما رأيُكَ في هذه الطريقَةِ؟ هَل كانت تُناسِبُ شَخصيَّتَهُ؟ وهَلْ يُمكِنُكَ أن تلجأَ إلى طريقَةٍ كَهذه في بعضِ المواقِفِ؟
   - لِماذا كانَتْ فِكْرَةُ القَطيعِ لا تُفارِقُ تَفْكيرَ سريعٍ؟

2. في الوَقْتِ الّذي قَرَّرَ سَريعٌ أَنْ يَتَوَسَّلَ إلى الذِّئْبَينِ اليافِعَيْنِ، ظَهَرَ حَميمٌ والْتَمَّ شَمْلُ الأَخَوَيْنِ.
   - هَلْ تَرى أَنَّ لِهذا الْلِقاءِ أَثَرًا عَلى سَيْرِ الأَحْداثِ، اشْرَحْ ذلِكَ.
   - اسْرُدْ بِأُسلوبِكَ مَشْهَدَ لِقاءِ سريعٍ بِأَخيهِ حَميمٍ، ما الأَثَرُ الّذي تَرَكَهُ هذا الّلقاءُ في نَفْسِكَ.

3. « «بعيدًا عن أَرْضِ وَطَنِهِ»
   - كَيْفَ كانَ سريعٌ يرى وَطَنَهُ بَعْدَ أَنْ صارَ في قَبْضَةِ الذِّئابِ الشّاحِبَةِ؟
   - كانَ لِلْعَودَةِ إلى المَوطِنِ شُروطٌ وَمواصَفاتٌ. اِذْكُرْها.
   - ماذا اخْتارَ سريعٌ؟ لَو كُنْتَ مَكانَهُ، ماذا كُنتَ سَتَخْتارُ؟

4. «سَأَكونُ دائِمًا آخِرَ مَنْ يَأْكُلُ» ما دَلالَةُ هذِهِ العِبارَةِ؟ هَلْ تَتَوافَقُ العِبارَةُ مَعَ شَخْصِيَّةِ سَريعٍ؟ لِماذا؟

بَرق

في غَمرةِ تصمِيمي على العنايةِ بحَميم، أكادُ أفوّتُ رائحةَ البشَر. لكنَّني أنتبِه. أربضُ-وأجمُدُ فِي مَكاني.

ثمةَ رجالٌ يَسيرُونَ نحوَ الذئبَين اليافِعَين، بِبُطء وَهُدوء. الذئبان منهمِكانِ تماماً في التِهام لَحمِهما، وَما يزالان يتصارَعانِ على أيّ منهُما هُوَ الذئبُ القائِد، ولا يَسمَعان الرجالَ قادِمِين. أنفاهُما ممتلئان بِرائِحَةِ صَيدِهِما، فَلا يشُمّان الرجالَ قادِمين. يُقرفِصُ الرجالُ على مُرتفَعٍ فوقَهما مُباشرةً.

تأتي كلماتُ أُمّي. «يمكنُهم أن يَقتُلوا بِنَظَرةٍ وضجةٍ عالِية».

أراقبُ وأنتظِر. يرفعُ الرجالُ عِصيًّا سوداءَ إلى أكتافِهم.

ثمةَ شيءٌ سيئٌ هُنا. أستطيعُ أن أشعرَ بِذلِك. ينتصبُ الفراءُ على جَسَدي كلِّه.

«ابقَ ساكِنًا»، أقولُ لحَميم.

يَستلقي بِلا حراك. لم يتلقِطِ الذئبانِ اليافعانِ رائِحَةَ البشَرِ ولا رائحَتي. ويظلّان مُنشغلَينِ تمامًا بطعامِهما. ورائحةُ الطعامِ عَذابٌ. إنَّني أحتاجُ ذلكَ اللَّحم، وحميم يحتاجُهُ حتَّى أكثَر. لَو أنَّ هؤلاءِ البشَرِ يذهبونَ فقَط، لكنتُ سأتوسلُ مِن أجلِ حصَّتي، وآكلُ، وأجلبُ ملءَ معدةٍ لأتقاسمَهُ مَعَ حَميم. أجدُ إغواءً، إغواءً معذِّبًا للانضمامِ إلى الوليمَةِ. هؤُلاءِ البشرُ يراقبونَ فحسب.

لَكِن كلِماتِ أُمّي تُلحُّ على ذاكِرتي. «يمكنُهم أَن يَقتُلوا بنظرة». ما الذي يعنيهِ ذلِك؟

وعندئذٍ، يقذفُ الرجالُ بَرقًا مِن عِصيّهم، وميضَ نَار؛ قصفَ رَعْدٍ، ويسقُطُ الذئبان. يسقطُ الذئبُ البنيُّ على الأرضِ حتَّى دونَ أن تندَّ عنهُ صرخةٌ واحِدَة. ويطلقُ الرَّمادِيُّ نبحةً عالِيَة. يناضلُ كَي يهرُبَ، لكِنَّ ساقيهِ الخلفيتين لا تتحركان. يجرُّهُما بضعَ خُطواتٍ مُعذِّبة. وعندئذٍ تنقضُّ صاعقةُ بَرقٍ وأُخرى. والرجالُ الآنَ يَصرُخون. سَقَطَ كلا الذئبَينِ الآن، لكنَّ البرقَ والرعدَ يَستَمِرَّان. وكلُّ انفِجارٍ جديدٍ يجعلُ الجسدَين الميتَينِ يقفزان.

يمزّقُ الصوتُ قَلبي. يجتاحُني الذُّعرُ وتصبحُ أنفاسي شهيقًا، كما لَو أنني أَغرَق.

«أركُض!»

كانَ حميمٌ قد تحرَّكَ مُسبقًا. وهو يركضُ الآنَ مُتشنّجَ الأطرافِ وَقد جمَّدَهُ الخَوف بأسرعِ ما تتيحُ لَه جروحُه. وأنطلقُ قافِزًا خلفَه. علَّمتنا أُمّي أن

نتفرّقَ عندَما تَكُونُ رائحةُ أسدِ جبلٍ صيّادٍ على الأَرضِ، لكنَّني لا أستطيعُ أَن أتركَ حميمًا الآن. نركضُ كلانا معًا. بِكامِلِ الطَّاقةِ. كتفًا لكَتِف. سوفُ أنقذُهُ، فهوَ كلُّ ما لدَيّ.

تَأتِي صرخةٌ مِنَ الخَلفِ. يتوقفُ الرَّعد.

«لا تتركْني»، يقولُ حَمِيمٌ لاهثًا بِجانِبي.

يقودُني الخوفُ إلى أرضٍ مألوفَة. أعودُ إلى طريقِ أُنثى الغرابِ التي سلكتُها هذا الصَّباح. أُفتشُ في ذاكرتي عَن شيءٍ للاحتماءِ بِهِ على طولِ الطَّرِيق. أيّ شَيء. أيّ مَكان. كانَت في الجبالِ أشجارٌ ووِهاد، وأجماتٌ وَكُهوف. أما في البَراري فثمةَ فَقَط مُتَّسعٌ للركضِ ولا مكانَ للاختِباء. لكنّنا إذا استطَعنا أَن نركُضَ بعيدًا بِما يَكفي، فسوفَ يخبّئُنا الظلامُ، ولَن تقودَ أنوفُ البشرِ عديمةُ النَّفعِ أصحابَها إلَينا أبدًا.

«أبعدَ قليلاً بَعدُ»، أقولُ لحميم بينَمَا يركضُ متعثّرًا بِجانِبي. «أكثرَ قليلاً فقط».

ثمةَ شجَرة. شجرةُ زعرورٍ برّي. نتَّجِهُ إليها، ونربضُ تحتَ فُروعِها الشوكيّة.

يُسقِطُ حَميمٌ رأسَهُ على الأَرضِ، متنفِّسًا بِصُعوبَة. لا أستطيعُ أَن أَرى جروحَهُ في الظَّلامِ، لكنَّني أستطيعُ أَن أشُمَّ رائحةَ الأحمرَ وقَد بَدأَ يسيلُ مِنها. أُلُفُّ جَسَدي حولَهُ وأضعُ كلَّ أَمَلي في الصَّمْت.

يصعدُ صوتُ انقصافٍ مثلَ عَصًا تنكسِرُ ويلمعُ ضَوءٌ خارجًا مِن مكانِ وقوفِ الرِّجال.

بدا ذلكَ وكأنهُ نَجمٌ انبثقَ مِنَ السَّماءِ. تتدلّى كتلةٌ جليديةٌ مِنَ الضوءِ وتجتاحُ العُشب. أحبسُ أنفاسي. تمرُّ الكتلةُ فوقَنا. وأستطيعُ أَن أحِسَّ بحميم يرتعدُ مِن الخَوف. يعودُ النَّجمُ إلينا متأرجِحًا ويسكُبُ كاملَ ضوئِه عَلينا. وتلمعُ أوراقُ التوتِ والزَّعرورِ خضراءَ داكنةً في الضّوءِ. والضوءُ لا يتحرَّك.

يَبقى ونَبقى نَحنُ متجمدَين بفعلِ لمسَتِهِ الجليدِيَّة.

يكسِرُ نباحُ صانعةِ صخَبٍ جدارَ الصَّمت. يئنُّ حميمٌ في ذُعر. أُسكِتُهُ بِنَظرة. سوفَ يدخُلُ الرجالُ صانعةَ الصَّخَبِ ويَرحَلونَ كما يفعلُ البشرُ عادةً. وعندئذٍ يصعدُ عويلٌ آخرُ فِي أعقابِ الأَوَّل. سَوف يَرحَلُون. سَوف يَركَبُون صانعاتِ صخَبِهِم ولن نشُمَّ رائحتَهم مرةً أُخرى.

ترتجِفُ الأرضُ عِندَما تشرُعُ صانعاتُ الصَّخَبِ فِي التحرُّك. تزيدُ مِن سرعتِها وأستطيعُ أَن أَشعُرَ بها، وَأَسمَعَها، وأشمَّها قادمةً في اتجاهِنا. أريدُ أَن أهرُب. أحتاجُ إلى الاختباء. يعتصِرُ الألَمُ مِنّي آخرَ الشجاعَة. ما مِن مكانٍ آخرَ يمكِنُ الذهابُ إلَيه. أشعرُ بقلبِ حَميم على صَدري، يدُقُّ خافقًا بعُنفٍ مثلَ قلبي.

تتوقّفُ صانِعاتُ الصَّخبِ بصَرير. يملؤُني الضوءُ الأبيضُ الباردُ بِالرَّهبَةِ حَتَّى وأنا ما أزالُ مُختبِئًا في الظِّلّ.

قَصفةُ رَعْد–وَمضَةُ برْق!

أَشعُر وأشمُّ سِنًّا حادًا لشَيءٍ يَمرُقُ بجانبِ أذُني طائرًا بأزيز. نقفزُ ناهضَين، ونُهرولُ هاربَين مِن الضَوءِ الذي يتجوَّلُ الآن جيئةً وذهابًا ماسِحًا العُشب. والبرقُ يعودُ كَرةً أُخرى في انفجاراتٍ مُتعاقِبة. مرةً أُخرى أشعرُ بِهِ وهُوَ يشقُّ الهواءَ بجموحٍ فوقَ رأسِي. ويَسقُطُ سِنٌّ ميتًا أَمامِي، ناثرًا نفحةً مِن الغُبار.

ينحرفُ حميمٌ إلى جانبٍ وأُناوِرُ أَنا مُتّجِهًا إلى الطريقِ المقابِل. لا يَستطيعُ الضوءُ أَن يتعقبَّ كلَينا. سَوفَ أجتذِبُهُ بعيدًا عَن حَمِيم. أعوي لكَي أجذِبَ الانتِباه، وأُحدِثُ صخَبًا أثناءَ انطلاقي بينَما يركضُ حميمٌ بصمتٍ تَامّ، بآخِرِ ما تَبقَّى فيهِ مِن قُوَّة. يتأرجَحُ الضّوءُ قادِمًا نَحوي وبَعيدًا عنّي، وكأنّهُ عضّاتُ بَرقٍ تَنهَشُ أقدامي. يُطلِقُ حَمِيمُ عَويلاً حادًّا واحِدًا يغرَقُ في صوتِ الرَّعد. ينفطِرُ قَلبي. لا أستطيعُ أَن أَرى حميمًا. أستطيعُ فَقَط أنْ أَجري وآمَل.

يمتدُّ حقلُ النَّعناعِ أَمامي فأغوصُ فِيه. تحتكُّ أنسالُ العُشبِ والأوراقُ الكثيفةُ بجسدي، دافنةً روائحَ كلّ شيءٍ آخَر. سوفَ أجِدُ حَميمًا على الجانبِ الآخَر. أنطلِقُ خارجًا منَ الحقلِ وأجِدُ النهرَ الأسودَ أَمامي. ما أزالُ أستطيعُ أَن أسمعَ البرقَ يقصِفُ وَرائِي أَعلى مِن هديرِ صانعاتِ الصَّخَبِ قادمًا إلى النهرِ الأَسوَد. أجِدُ نفسِي أَكثَرُ رُعبًا مِن أن أتوقف، وأكثرَ يأسًا مِن أن أخاف. ولا أخفِّفُ سرعتي. النهرُ الأسودُ صَلبٌ وزَلِقٌ فِي آنٍ معًا. ما تزالُ بقايا حرارةِ النهارِ تُخيِّمُ عَلَيه.

تطلقُ صانِعةُ صخَبٍ هائلةٌ صوتًا مِثلَ إيّل ضَخم. تناوِرُ منحرِفةً مِن جانبٍ إلى آخَر. أقفزُ إلى الضفَّةِ البعيدَةُ وهيَ تهدُرُ خَلفي. الجانبُ البعيدُ مِن النهرِ الأسودِ منحدِرٌ ومعشَوشِبٌ ومُظلم. أسقطُ عَلَيه، مُتدحرجًا بِلا توقُّفٍ وضامًّا سيقاني حتَّى لا تَتكسَّر.

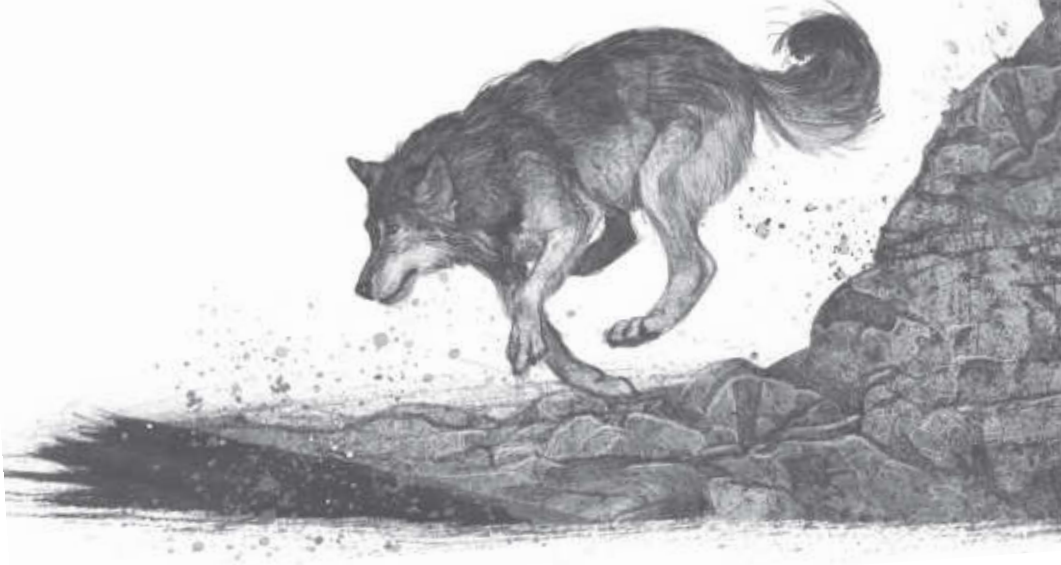

أتدحرَجُ متعثِّرًا فِي الظَّلامِ، وعِندَما أتزحلقُ أخيرًا إلى تَوقُّفٍ، يصمتُ الليلُ وأجدُني وحيدًا تمامًا.

في البدايةِ، أستطيعُ أَن أَستلقي على جانبِ التلِّ الصخريّ المُنحدِر. ما تزالُ الأَرضُ تَبدُو وكأنّها تدورُ بي، وتخرجُ أنفاسي في لُهاثٍ متعاقِبٍ مُضطَرِب. ولا أسمعُ أيَّ شَيءٍ سِوى دقَّاتِ قلبي. وعِندَما تتوقفُ أُذُنايَ عَن الأَزيز؛ عِندَما يَتلاشى وميضُ البَرقِ المُغْشي وأستطيعُ أَن أَرى مَرّةً أُخرى في الظَّلامِ، أبحَثُ عَن حَمِيم. أستمِعُ إليهِ. وأتوقُ إلَيه.

لكنَّه لا يأتي.

توقَّفَ الرعدُ والبَرق. وذهبَتْ كُرةُ الضّوءِ البارِدِ التي كانَت تمسَحُ الأَرض. ذهبَ صوتُ صانعاتِ الصَّخَب. وَحَمِيم. اختفى حَمِيم.

يَنبَغي أَن أعود. إذا كانَ ما يزالُ حيًّا فسوفَ يحتاجُني. أنظرُ إلى فوق، إلى المنحدَرِ المُظلمِ الطَّويل. أرتجِفُ عِندَما أتذكَّرُ صانعةَ الصَّخَبِ وَهي تهدُر ورائِي وتُطارِدُني على الأَعقابِ، والملمسَ الزلِقَ لِلنَّهرِ الأَسوَد-والرائحةَ المُرَّة. لا أريدَ أَن أعبرَهُ مَرّةً أُخرى أبدًا.

يجبُ أَن أعود. ولكِنْ، كلُّ ذلكَ الهولِ في كلِّ شيءٍ رأيتُهُ وسمعتُهُ وشممتُهُ–كيف يستطيعُ أحدٌ أَن ينجُوَ مِنه؟

لَا أستطيعُ أَن أواجِهَ البشرَوالصواعقَ وصانعاتِ الصّخَبِ مرةً أُخرى. أستجمِعُ نفسي وأنهضُ عَن الأَرض. كلُّ شيءٍ يُؤلِمُني. أنظرُ مِن فوقِ كَتِفي.

لا شيءَ خَلفي سِوى المَوت. ولا مكانَ للمضيّ سِوى الأمام.

أسمَعُ صوتَ الماءِ تَحتِي. لا شجرةَ، لا أجمةَ، ولا حَتَّى عشبًا طويلاً بما يكفي لِيُخْفِيَني. أختارُ طَريقي حولَ الصُّخور، وأختبرُ موضِعَ أقدامي على الحجارةِ الرَّخوة.

يُرشِدُني صوتُ الماءِ المتدفقِ على أرضيَّةِ الوادي الضيقِ في الظَّلامِ. لا أريدُ شَيئًا سِوى مكانٍ للاختباء؛ مكانٍ ما سريٍّ وآمنٍ حيثُ لا يجدُني البشَرُ أبدًا. أريدُهُ أكثرَ مِن اللَّحمِ والماءِ وضوءِ النَّهار.

أعرجُ ماضِيًا قدُمًا بِلا توقُّف. وتُخلي الصخورُ مكانَها للعشبِ ثُمَّ الشجيراتِ، وأخيرًا الشَّجَر. وبالأنفِ والغريزةِ، أجِدُ بُقعةً خفيَّةً بجوارِ قَاع الوَادِي تتعلَّقُ فَوقَها حافّةٌ صخريةٌ بارِزَةٌ وصُنَوبرةٌ تكنُسُ أغصانُها الأرضَ في الأمامِ لتخبّئَني مِن... كلِّ شَيء. ألوبُ في دائرةٍ منَ التَّعَب، هامسًا بأسماءِ قَطيعي مِن أجلِ السَّلوى–وثّابة، ميّاسة، مُنشِدة، هادِر.

أغفو حتَّى قبلَ أَن ألامِسَ الأَرض.

في أحلامي أركضُ مَفزوعًا وسطَ عاصفةٍ مِن الرعدِ لا تَنتَهي. وأستيقظُ عِندَما تظهرُ الشمسُ أخيرًا عميقًا في الوادي. ما يزالُ كلُّ شيءٍ فيَّ يؤلمُني، وأجِدُني أكثرُ إرهاقًا حَتَّى مِن إمكانيّةِ قطعِ بضعِ خُطُواتٍ إلى المَاء. أتشمَّمُ الهَواء باحِثًا عَن الخَطَر. وأتشمَّمُهُ ثَانِيَةً باحثًا عنِ الأَمَل. أنامُ مجدَّدًا، عطشان ومُصغِيًا. أستيقِظُ في اليَومِ التَّالي، بمزيدٍ مِن العَطَشِ وَبلا أملٍ على الإطلاقِ بشأنِ حَمِيم، كان ضعيفًا ومصابًا عِندَما جاءَ البَرْق. أستَلقي طويلاً قبلَ أن أُغامِرَ مِن أجلِ شربةِ ماء. وفي اليَومِ التَّالِي، أغامِرُ بأخذِ شربةِ ماءٍ أَطوَل. لَم أعُد متشنِّجًا كثيرًا كما كُنت. والكدماتُ التي صنعَها سقوطي تَتلاشى بِبُطء. لكِنَّ حوافَّ ذكرياتي الجاسِئَةِ تصبِحُ أكثرَ حِدّة. وتنغرِسُ عميقًا فيَّ مثلَ ناب.

لقَد تبِعَني حَمِيم. ووجدَني. ووعدتُهُ بأَن أحمِيه. وَعَدتُهُ.

أتذكرُ أيامَ الصيفِ في الجِبالِ عِندَما تَركَني حَمِيم ألعبُ معَهُ لُعبةَ

الصيّادِ والفريسَة، وساعدني كي أُصبِحَ أقوى، وشحذَ مهاراتي في التسلُّلِ والانقضاض. أتذكَّرُ كلَّ تلكَ المَرَّاتِ عِندَما دفَعَني لأركُضَ أسرَع؛ كلَّ تلكَ الأوقاتِ عِندَما تلقّى الضَّرَباتِ والعضّاتِ مِن ثاقِب ووثّابة حتَّى لا أُضطرَّ أنا إلى تلقّيها. لقَد جَعَلَني الذئبَ الذي أنا عليهِ اليَوم. وأنا ضيَّعتُه. لَم أكُن قويًا بِما يَكفي، ولا سريعًا بِما يَكفِي لأنقِذَ حياتَه.

ماتَ وحيدًا بِلا أحدٍ إلى جانبِهِ ليغنيَ اسمَهُ لنجمِ الذِّئاب.

في أَحلامي، أَستَطيعُ أَن أسمعَ حميمًا وأن أشُمَّ رائحتَهُ. أركُضُ وأركُضُ وأركُضُ، وعِندَما أكادُ أجدُهُ، ينطلِقُ راكضًا أَمامي نحو البعيد، أستيقِظُ مُنهكًا ومُحطَّمَ القَلب. يُصبِحُ الجِلدُ الذي يغطّي بَطنِي مُترهّلاً، لكنّني لَا أَشعُرُ بِالجُوع. أشعُرُ بِأَنَّنِي فارغٌ فَحَسب.

أسئلة الفصل

1. ما الكَلِماتُ الّتي جاءَتْ بِالمَعاني الآتِيَةِ في الفَصْلِ:
بُنْدُقِيَّةُ الصَّيْدِ، السَّيّارَةُ، الشّارِعُ.

2. اِنْشِغالُ الذِّئْبَيْنِ اليافِعَيْنِ بِالْتِهامِ اللَّحْمِ، وَتَشاجُرُهُما عَلى القِيادَةِ، سَهَّلَ مَهَمَّةَ صَيْدِهِما عَلى البَشَرِ. اِشْرَحْ ذلِكَ وَوَضِّحْ دَلالَتَهُ، وَما الدَّرْسُ الَّذي تَتَعَلَّمُهُ مِنْ هذا المَشْهَدِ.

3. انتهى الفَصلُ التّاسِعُ بِأَلَمٍ وَحُزْنٍ سريعٍ عَلى أَخيهِ حَميمٍ، حَدِّدِ الأَلْفاظَ والعِباراتِ المُعَبِّرَةَ عَنْ ذلِكَ.

4. "لكِنَّني لا أَشْعُرُ بِالجوعِ، أَشْعُرُ بِأَنَّني فارِغٌ فَحَسْب"
ما المَعنى الّذي كانَ سريعُ يَعْنيه؟ عَلامَ يَدُلُّ في عَلاقَتِهِ بِأَخيهِ؟ اِذْكُرْ مَوقِفًا أَحْسَسْتَ فيهِ بِفراغٍ كَبيرٍ في قَلْبِك.

5. " لَقَدْ جَعَلَني الذِّئْبَ الّذي أَنا عَلَيْهِ الْيَوْمَ" هكذا صَرَّحَ سريعٌ بِأَثَرِ حَميمٍ الكبيرِ عَلَيْهِ.
أُكْتُبْ فِقْرَةً تَتَحَدَّثُ فيها عَنْ أَثَرِ شَخْصٍ ما في حَياتِكَ، خاتِمًا الفِقْرَةَ بِعِبارَةِ:
" لَقَدْ جَعَلَني الإِنْسانَ الّذي أَنا عَلَيْهِ الْيَومَ"

الوادي

يومٌ آخرُينقضي وآخَرُ، وجوعي يستيقِظُ قَبلي. عليّ أن أقفَ على أقدامي وأعيش، أو أنْ أستلقيَ هُنا وأَموت. أَخطُو خارجًا مِن مَخبئي وأهزُّ فرائي وأنفضُهُ في الشَّمسِ. أتمطّى وأمدِّدُ سيقاني الخلفيةَ والأَماميَّة. حالُ كَتفي المصاب أصبحَ أَفضَل. أَخطُو بصعوبةٍ على طُولِ ضفَّةِ النَّهرِ الصخريةِ. والأرضُ غيرُالمستويةِ التي كانَ السَّيرُعَليها عذابًا في السابِقِ لَم تعُد سيئةً كثيرًا الآن. أنظرُوأشمُّ الهَواء باحثًا عَن علامةٍ لغزالٍ أو أيّلٍ بِمَا أنَّ الماءَ قريب. يغوصُ قَلبي في دَاخِلي حتَّى بينَما أَفعَل. كلَّ الوقتِ أَستَلقِي هُنا مُختبئًا في الانتظار، ولا أحد يَأتي ليشرَب. جدرانُ الوادي شديدةُ الانحدارِوالشاطئُ بالغُ الوُعُورة. أستطيعُ أَن أشعُرَ بالجِلْدِ الرَّخوِ المُتهدِّلِ على بَطنِي وهُو يتأرجحُ بينَما أَسِير. وبعيدًا فوقَ جدرانِ الوادي ألمَحُ خيالَ غُراب. أعوي مناديًا لأنَّ وقتًا طويلاً مضى منذُ كانَ لديَّ أحدٌ أتحدَّثُ إلَيه.

تُنَادِي أُنثَى الغُرابِ مُجيبةً! وتهبطُ حائِمةً في دوائرَوتحطُّ بِالقُربِ مِنّي. لها نفسُ البُقعةِ العاريةِ منَ الرّيشِ على الصَّدر مثلَ رفيقتي في المرّةِ السَّابِقَة. صديقتي!

تخطرُعلى الأرضِ بِجانِبي وأستطيلُ في وِقفَتي لِأُرِيَها أنَّني أصبحتُ أَقوى مما كنتُ في لقائِنا الأول.

يجعلُنا النِّداءُ الصاخِبُ لطائرِ قاوَندٍ نقفزُ كلانا. يطيرُ منخفضًا فَوق الجدوَل، ويواصلُ قولَ الشيءِ نَفسِه، مرةً وأُخرى، بصوتٍ عالٍ. يحومُ مرفرفًا كما فعلَ الطائرُ الأخضرُ الصغيرُ في البَراري. ثُمَّ يغوصُ في الماءِ ويظهَرُ مِنهُ حاملاً سمَكةً.

خُدعة جَيِّدَة.

أَنا جائِع.

تمامًا بَينَما أفكرُ بِما يمكنُ أَن يفعلَهُ ذئبٌ ليقنِعَ طائرًا بالتَّخلّي عَنِ فَريسَتِه، تُقلِعُ رفيقَتي أُنثَى الغُراب، محلِّقةً فِي دَوائِر. تندفعُ على طولِ النَّهر. حجمُها ضعفُ طائرِ القاوَند. تلكزُهُ في جانبَيهِ فيُسقِط السَّمَكة. تغوصُ أُنثَى الغُراب مُحَوِّمةً في الهواء، سريعةً مثلَ يعسوبٍ مُندَفِع، وتلتقطُ السمكةَ قبلَ أن تصلَ الماء.

خُدعة عَظِيمَةٌ!

أَنا جائِعٌ جِدًّا.

تحطُّ أُنثَى الغرابِ بجانِبي وتعرِضُ تقاسُمَ صيدِها. لكنَّ السمكةَ صَغيرة. أتحرك نازلًا إلى بركةٍ هادئةٍ حيث لا أضطر إلى سماعها هي وطائر القاوند وهما يصرخان على بعضهما، من أجل صيدٍ أقل من لقمة من السمك.

أَشرَب. ثمةَ شيءٌ في الماءِ. شيءٌ ما كبِير. لا أستطيعُ أَن أشُمَّهُ لكنَّني أستطيعُ أَن أراهُ يَتَحرَّكُ، أزرقَ مُرقَّطًا على خلفيَّةِ الحجارةِ الرماديةِ فِي قاعِ الجدوَل. كنتُ قَد شاهدتُ الدببةَ وهِي تقومُ بحيلةِ التقاطِ السَّمَكِ مِن جدوَل.

أربضُ مُحدِّقًا في الماءِ. لا أعرفُ كم هو عميق. أَعرِفُ فَقَط أنَّني جائِع.

يستطيعُ دبٌّ أَن يلتقطَ سمكةً مِن الماءِ بضربةٍ واحِدة.

أبذُلُ محاولةً، لكنَّ المياهَ عميقةٌ جدًا.

تندفعُ السمكةُ طلبًا للمخبأ. أقفزُ في الماءِ بأفكاكٍ مفتوحةٍ وآمالٍ عالِيَة. وأخرُجُ من ثلاثِ عضاتٍ خالي الوِفاض، ثُمَّ ألتقِطُها! يَملأ الماءُ أَنفي وأذنيَّ وأندَفِعُ بعَمىً إلى الضِّفة.

يسيلُ الماءُ مِن فرائي. السمكةُ لينةٌ في المُنتصَفِ. تتخبَّطُ في فَمِي كما لا يفعلُ أيِّلٌ أَو غزالٌ أَو أيُّ طعامٍ مُحترَم.

كان أبي سَيُديرُ لي ظَهْرَهُ لَو أنَّهُ رآني هكذا.

وَكان ثاقِبٌ سيضحكُ مِنّي. لكنَّني جائِعٌ، وَهُم ليسُوا هُنا ليساعدوني في الصَّيدِ. أُسقِطُ السمكةَ على الصُّخُور وأعضُّها، وأُسقِطُها وأعضُّها، وأُسقِطُها وأعضُّها، وَمَع الوقتِ تَسكُنُ تمامًا.

للسمكةِ تكوينٌ هشٌّ مِن الخارِجِ وطريٌّ مِن الدَّاخِل. والعظامُ صغيرةٌ جدًّا حتَّى أنَّها تُدغدِغُ في طريقِها إلى المَعِدَة. ليسَ لَها مَذاقُ الطَّعامِ لكنَّها تُشبِعُني بِنفسِ المِقدار. وتسعَدُ أُنثَى الغرابِ بأكلِ الرأسِ والذَّيل. أغسلُ الطعمَ الغريبَ مِن فَمي وأشربُ كفايَتي مِن الماءِ. تتعَقَّبُ أُنثى الغُرابِ مَجرى النَّهرِ وتمضي بي بعيدًا عَن كلِّ شيءٍ عرفتُهُ أبدًا. هُنا، بَينَ جدرانِ الوادي الضَّيِق، لا أستطيعُ أَن أَرى أرضَ موطني أَو أشُمَّها أَو أسمعَ الأصواتَ التي نشأتُ معَها. لكن، حتَّى معَ ذلِك، أَستَطيعُ أَن أشعرَ بالجِبالِ تشدُّني. تجعلُني أَستَدير. لكنْ، لم يعُد ثَمَّةَ أحدٌ أعودُ إلى البيتِ مِن أجلِه. تدورُ أُنثَى الغرابِ عائدةً، تحوِّمُ حولَ كتفَيَّ، وتمسحُ فرائي بِأَطراف جناحِها. تحُطُّ على غصنِ صُنوبَرةٍ، تُميلُ رأسَها إلى جانبٍ، تُثرثِرُ لِي، ثُمَ تُحلِّقُ سَريعَةً على طُولِ مَجرى النَّهرِ.

كانَ أَبِي يتبَعُ الغِربان. أتحوَّلُ بعيدًا عَن أرضِ مَوطني وأذهبُ إلى حيثُ تقودُني رفيقَتي.

نسافرُ معًا، تاركَينِ الوادي الضيقَ والنهرَ الأسودَ ووحشيَّةَ البشَرِ بعيدًا وراءَنا. نبحثُ عَن الينابيعِ والجداولِ وبركِ الماءِ حَيثُ أَستَطيعُ أَن أصطادَ الأشياءَ التي تأتي لِتَشرَب. وأُنثى الغرابِ دائمًا قريبَةٌ على كتِفي، مستعدَّةٌ لتشاركَني اللحمَ الذي أشُقُّ جلدَهُ، سَواءً أكانَ أسماكًا أَو أرانبَ أَو راكوناتٍ مقلمةَ الذُّيول.

كلُّ شيءٍ هُنا مُختلِف—رائحةُ الرّيح، ولونُ التُّراب. أنظرُ وأشُمُّ باحثًا عَن الأيائِلِ، ولكنْ لا أيائِل. أتسمَّعُ باحثًا عَن عواءِ قَطيعٍ رُبَّما يقبَلُني، لكنَّني لا أسمَعُ مَعَ غُرُوبِ الشَّمسِ سوى الأصواتِ الخافِتَةِ لصراصيرِ اللَّيلِ والضَّفادِع. وعندَما أستديرُ لأُفتِّشَ الأفقَ باحثًا عَن أَرضِ موطني، لا أستطيعُ حتّى أن أرى الجِبال.

أعرِفُ أينَ ينبَغي أَن تكُونَ، لكنَّني لا أستطيعُ أَن أَراها.

ليسَ في هذِهِ الأرضِ المفتوحةِ شيءٌ يصلحُ كعلامات، لا أَشجَار، لا أَنهَارَ، ولا علاماتِ حُدودٍ لذِئاب. أَينَما ولَّيتُ وجهي ثمةَ الروائحُ نفسُها فحسب. تنداحُ الأرضُ مُنبسِطةً بلا انتهاء. ثمةَ نتوءاتٌ، وأخاديدُ، وأرضٌ ترتفعُ ببطءٍ بشرائحَ مِن الترابِ الرمليّ الصَّدِئ. وأرضٌ تهبِطُ بِلُطف بِمَزيد مِن الأشرطةِ السَّودَاءِ والبُنيّةِ والحَمراء. والرّيحُ ناشِفةٌ تمامًا حتَّى يكادُ أَنفي يتشقَّق.

أُصبحُ أَقوى كلَّ يَوم–أقوى بالجسَد. لكنَّني كُلَّما ابتعدتُ أكثرَعَن الجبالِ يُصبِحُ مِنَ الأصعَبِ أَن أُبقي ذَيلي مَرفُوعًا. لا أحدَ هُنا لأهتمَّ بِه؛ لأتصارَعَ مَعَه؛ أَو أتشاركَ معهُ الرَّوائِح. لا أحدَ لأُغَنّي مَعَه. لا ذيولَ لأُمسِكَها. لا آذانَ لأعضَّها. ولا أَحَدَ لأجلسَ مَعَهُ كتِفًا لِكتفٍ ونُشاهِدَ نجمَ الذئابِ وهُو ينهضُ قبلَ الشَّمس. حتَّى ليالي الصيفِ تكونُ باردةً عِندَما تنامُ وحدَك.

أسئلة الفصل

1. رَغْمَ آلامِهِ وَوَحْدَتِهِ وَجوعِهِ قَرَّرَ سَريعٌ العَيْشَ وَعَدَمَ الِاسْتِسلامِ، ما العِبارَةُ الّتي تَدُلُّ عَلى قَرارِهِ؟ وَما هِيَ خُطواتُهُ نَحْوَ تَنْفيذِ هذا القَرارِ؟

2. تَوَثَّقَتِ العَلاقَةُ بَيْنَ سريعٍ وَأُنْثى الغُرابِ. عُدْ إِلى الفَصْلِ وَحَدِّدْ شَيْئًا مِنَ العِباراتِ الّتي تُؤَكِّدُ ذلِكَ.

3. "كانَ أَبي سيديرُلي ظَهْرَهُ لَو أَنَّهُ رآني هكَذا" مَتى قالَ سريعٌ هذِهِ العِبارَةَ، وَكَيْفَ بَرّرَ لِنَفْسِهِ العَمَلَ المُشينَ ذاكَ؟

4. الحَياةُ دونَ عائِلَةٍ علَّمَتْ سريعًا أَشْياءَ كَثيرَةً، اِذكُرِ اثْنَينِ مِنْها.

5. "الجوعُ عَدُوٌّ مَجْنونٌ" اِبْحَثْ في الفَصْلِ ما يُؤَكِّدُ هذِهِ العِبارَةَ.

شبيهةُ الذِئب

بعدَ أيامٍ كثيرةٍ مِن المشي والهرولة والأكل وَالرَّاحَة، نجدُ شيئًا جديدًا تمامًا. تَبدُو رفيقتي أُنثَى الغُراب، التي تُحلِّقُ في الأمامِ كَالمُعتَاد، وكأَنَّها تجلِسُ وسَطَ الهَواء. لا تُحلِّقُ على الهَواءِ الصَّاعِد. لا تُرفرِفُ بجناحَيها وإنما تجلسُ فَقَط، وسطَ الهَواء!

أقتربُ بِبُطء. للغربان خُدَعُها . وَلكِنْ، عِندَما أقتربُ أَكثَر، أَرى أَنَّها تجلِسُ على خطٍّ رَمادِيّ نَحِيلٍ يمتدُّ مُستقِيمًا مِثلَ صفوفِ حقلِ النَّعناع؛ مُستقيمًا مِثل النَّهرِ الأَسوَد. لا بُدَّ أَن يكونَ شيئًا بشَريًّا. أجثُم، أعوي، وأتشمَّم. ثمةَ فَقَط رائحةٌ خافتةٌ لبشَرٍ كانُوا هُنا قبلَ وَقت. أُصغي إلى كلِّ اتِّجاه. لا شَيء. االهَواء ساكِنٌ والظِّلال قَصيرَة. أقتَربُ مِن الخُطوطِ الرماديةِ المُستقيمَةِ بحذَر.

تعبَثُ أُنثى الغرابِ بريشِها بمنقارِها وتهزُّ جَناحيها. لا أثرَفِيها لِلخَوف. أقتربُ أَكثَر. ثمةَ ثلاثةُ خطوطٍ مِن الرماديّ –منخفضٌ ومتوسطٌ وعُلوي. تَنمُو الأغصانُ عبرَ الخطوطِ وتتشبَّثُ بِالأَرض. إنَّها أغربُ شيءٍ بشَريّ أَراه. تقبِضُ الخطوطُ على كُراتٍ من العُشبِ الناشفِ المتدحرِج، والتي تصنَعُ بقعًا تجثمُ فِيها الطُّيور. أَيُّ بشريٍّ يمكنُ أَن يحتاجَ هذا؟ لا أحدَ يستطيعُ أَن يفهمَهُم، هؤلاء البشَر! عِندَما أميلُ على الخُطوطِ تميلُ هِي أيضًا، لكنَّها لَا تَسقُط. لَا يَهُمّ. مِن السهلِ القفزُ مِن فوقِها.

أكونُ مستعدًا للتحرُّكِ عِندَما ألتقطُ نفحةً مِن رائحةِ شيءٍ مَألوف. أتعقَّبُ الخطوطَ حتَّى أجدَ خصلاتٍ مِن صوفِ خروفٍ أَبيَض. لستُ في حاجةٍ إلى طعامِ القيُّوطِ هذا. أَكلْنا أرنبًا بِالأَمس، وإذا استطعتُ أن أعثُرَ على الماءِ فَرُبَّما أصطادُ غزالاً بينَما يَشرَب. لكنَّ هُنَاك رائحةً أُخرى معَ رائحةِ الخِراف، رائحةً أَحسَن. أتلمَّسُ بأنفي المكانَ على طولِ الخُطُوط حتَّى أجدَ خُصلةً مِن الفِراء؛ بَيضَاءَ، لكنَّها ليسَت زغَبيَّةً كثيرًا مثلَ غِطاءِ الخِراف. إنَّهُ فِراءٌ حقيقيّ، طويلٌ جدًّا وشاحب اللَّونِ جدًّا بحيثُ لَن يكونَ لغزالٍ أَو أيّل، ليست الرائحة الصحيحة لثعلبٍ أَو قيّوط. وليسَت رائحةَ ذِئبٍ بالضَّبط، لكنَّها تشبِهُ رائحةَ ذِئب. مَضَى وقتٌ طويلٌ منذُ افتراقِي عَن عائلتي، لذلكَ أُلقي بِرأسي إلى الوراءِ وأعوي.

ويأتيني الجَواب، محمولاً على جناحِ الرّيحِ. ليسَ عُواءً. لَيس نباحَ قيّوطٍ حادَّ النبرة. إنَّه صوتٌ عميقٌ وغريبٌ على أُذُنيَّ.

«أووووف، أووووف».

أجيبُ بِلا تَفكيرٍ، «ها أَنذا، مَن أنت؟»

«أووف، أووووف، أووو»، يردُّ شبيهُ الذِّئب.

لا أستطيعُ أَن ألتقطَ المَعنَى تَمامًا.

أُنادي مرةً أُخرى. وذَيلي مرفوعٌ عاليًا في الهَواءِ مُهتزًّا مِثلَ ذيلِ جَرو. أديرُ أذنَيَّ على محورَيهِما لتحديدِ مصدَرِ الصوتِ بدقّة.

«أووف»، يقُولُ شَبِيهُ الذِّئب.

لَا يهمُّني ما يَعنِيهِ ذلِك. أنطَلِقُ راكِضًا. وبينَما أقتَربُ تُصبحُ الرائحةُ أَقوى. تجعلُني رائحةُ شبيهِ الذئبِ المحيرةُ مُستثارًا. فَقَط لَو أَنَّها لَم تكُن مُمتزِجَةً برائحةِ الخِراف، لكنتُ سأتذكَّرُ إذا كنتُ قَد شمَمتُها مِن قَبْل.

كُلَّما اقتَربتُ أَكثَر، تصبحُ رائحَةُ الخِراف أَقوى أيضًا. وهذا قَد يَعنِي المَتاعِب. أُخفِّفُ سرعَتي لأجعلَ ركضي صامتًا وأختارُطريقَ اقترابي حتَّى لا تحملَ الريحُ أخبارًا عنّي.

في الأمامِ عرينُ خرافٍ أَحمَرُ. تُطْلِقُ أُنثَى الغرابِ نعقةَ تَحذِير. ثمةَ صانعةُ صخَبٍ تنامُ إلى جانِبِ العرين. أنظُر وأتشمَّمُ باحثًا عَن مصدرِ النداءات. إنَّها أُنثى؟ أَنا شِبْهُ متأكِّد. فَقَط لو لَم تكُنْ هناكَ هَذِه الكثرةُ مِن الرّوائِحِ الأُخرى لتربكَني. تزدادُ الرائحةُ البشريةُ بينَما أقتَرِبُ مِن العَرين. إذا كانَت هُنَاكَ ذئبةٌ هُنا، أَو شبهُ ذئبةٍ، فعليَّ أَن أحذِّرَها. يجبُ أَن آخُذَها بعيدًا إلى حيثُ تكونُ آمِنةً. خلفَ العرينِ ثمةَ صفوفٌ مِن الخطوطِ الرمادية. وشبهُ الذئبةِ دَاخِلَ الخُطوطِ مَع قَطِيع كبيرٍ مِن الخِرافِ الأمهاتِ وجرائها. تنظُرُ شبهُ الذئبةِ مُباشَرةً إليّ، نابحةً وهِي تهزُّ ذَيلَها.

ثمَّةَ جروٌ بشَريٌّ هُناك داخلَ الخطوطِ الرمادية معَها. يلمسُ شبيهةَ الذِّئب. يُمسِّدُ فروَها الجَميلَ بلُطف، حولَ الأذُنَينِ حيثُ اعتادَت أُمِّي أن تلعقَني. إنَّهُ لا يقتلُ شبيهةَ الذِّئب، ولا حتَّى يُحاوِل. ولا يحملُ الجروُ البشريُّ عَصا بَرْق.

لا بُدَّ أَنَّ هُناكَ خدعةً ما. ينظرُ الجروُ البشريُّ في اتجاهي، لكنَّهُ لا يَراني فِي العشبِ الأَصفَرِ الرماديّ الطَّوِيلِ والأَرضِ الصخرية. وأنفهُ الصغيرُ لا يلتقِطُ رائحَتي. تعرفُ الخرافُ الأمّهاتُ أنَّني هُنا. فيجمَعنَ صغارَهُنَّ تحتهنَّ وينتقِلنَ بعيدًا عَنّي بِقَدرِ ما تُتيحُ لهنَّ الخُطوطُ الرمادِية.

تعلَمُ شَبِيهَةُ الذِّئبِ أنَّني قَريبٌ أيضًا.

«أووف، أووف، أووو!»

تحاولُ أَن تَعوي. تخفِضُ ذيلَها لتطلبَ منّي أن أقتربَ أَكثَر. تنبحُ وتهزُّ ذيلَها، وتدورُ مبتعدةً عنِ الخطوطِ الرماديةِ وعائدةً إليها. إنّها لا تعرِفُ أيًّا مِن كلماتِ الذِّئاب، ليسَ بَعد، لكنَّ جَسَدَها يقولُ اقتربْ أَكثَر. وقتٌ طويلٌ مضَى منذُ كانَ لديَّ أحدٌ لأتحدَّثَ معَه، لأُصارِعَهُ. لأركُضَ إلى جانبِه. وقتٌ طويلٌ جدًّا مضى منذُ نعِمْتُ برِفقةِ مخلوقٍ آخَرَ حيٍّ يتكوَّرُ مَعي في بَردِ اللَّيل.

إنَّها صغيرةٌ ومبقَّعَةٌ بغرابةٍ ببقعٍ بيضاءَ وبُنيةٍ تُرابيّة. أناديها مرةً أُخرى. يرطُنُ الجروُ البشَريُّ مِثلَ طائرِ أَبي زُرَيقٍ لشبيهَةِ الذِّئب. يحُكُّ فِراءَها وهيَ لا تجفل. أريدُ أَن أحُكَّ ذلكَ الفِراءَ أنا أيضًا.

أريدُ صوتَها، رائحتَها، ورفقتَها معي في تَجوالي.

«تعالَي مَعي. اقفزي عَن الخُطوط».

تلقي برأسِها إلى الخَلْفِ وتنسَخُ عُوائي. ولكنْ لا تَبدو أَنَّها تفهَمُ المَعنى.

«اقفزي. إنَّها ليسَت عالِيةً كثيرًا. يمكِنُكِ أَن تفعلي».

تَنسَخُ عوائي بلا فهْمٍ أيضًا. يسحبُها الجروُ البشريُّ بعيدًا عَنِ الخُطوطِ وهيَ تُطيعُه. إنَّه صَغِيرٌ. يمكنُها أَن تُفلِتَ مِن قبضتهِ بِلا أيِّ جهدٍ على الإطلاقِ. يمكنُها أَن تسحقَ عظامَه بعضَّةٍ واحِدَة. لكنَّها تَبقى معَهُ.

«اتبعيني»، أُناديها.

أضربُ الأرضَ بقدميَّ الأماميتَين، تاركًا لها رائحةً لتتبعَها.

إنها تريدُ أَن تأتي. أَرى ذلِكَ في اهتزازِ ذَيلِها، لكنَّها لَن تقفزَ فوقَ الخُطوطِ الرمادية.

وعندئذٍ، ينفتحُ العَرينُ الأَحمَر. تطيرُ أُنثى الغُراب، وتحلِّقُ منخفضةً وسَريعَة.

يَخرُج بشريٌّ مكتملُ الحَجم.

ولديهِ عَصا بَرْق. أمتلِئُ بالرُّعب.

يُنادي شبيهةَ الذِّئبِ فتَذهَبُ إلَيه، مباشرةً إلَيهِ مَع عَصا البَرقِ وكلِّ شَيء! لا أفهمُها.

أريدُ أَن أناديَها لكي تأتيَ مرةً أُخرى أخيرةً، لكنَّ الأمرَ لا يستحقُّ فقدانَ حَياتي.

أبتلعُ عوائي وكلَّ وحدَتي معَهُ وأنسَلُّ مبتعدًا. رائحتي متروكَةٌ على الأَرضِ لكي تتبعَها شبيهة الذِّئب إذا اكتسبتِ الشجاعةَ يومًا. أَمَّا الآنَ، فأَنا وَحدي مرةً أُخرى. وعِندَما يأتي اللّيلُ، حتَّى القمرُ يكونُ قَد رحَل.

أسئلة الفصل

1. ما المَكانُ الَّذي وَصَلَ إِلَيْهِ الذِّئبُ سريعٌ مَعَ رَفيقَتِهِ أُنْثى الغُرابِ؟

2. ما الحيَوانُ المَقْصودُ بِشَبيهَةِ الذِّئْبِ في هذا الفَصْلِ؟ صِفْ عَلاقَتَهُ بِالبَشَرِ؟

3. حاوَلَ سَريعٌ أَنْ يُحَرِّرَ شَبيهةَ الذِّئْبِ مِنَ البَشَرِ، وَأَوْحى لَها بِذلِكَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، ولكِنَّها اخْتارَتِ البَقاءَ مَعَ مَعَهُم رَغْمَ إِحْساسِهِ بِأَنَّها كانَتْ تَوَدُّ الهَرَبَ. تَحَدَّثْ مَعَ زُمَلائِكَ عَنْ هذا. ما الّذي يَجْعَلُ الحَيواناتِ تُفضِّلُ العيْشَ مَعَ البَشَرِ عَلى العَيْشِ وَسطَ قُطْعانِها؟

4. يَرى سَريعٌ أَنَّ شَبيهةَ الذِّئْبِ جَبانَةٌ لا تَمْتَلِكُ الشَّجاعَةَ لِلْهَرَبِ مِنَ البَشَرِ. رَغْمَ ذلكَ تَرَكَ لها رائِحَتَهُ عَلى الأَرْضِ لِكَيْ تَتْبَعَها إِذا ما اكْتَسَبَتِ الشَّجاعَةَ يَومًا. ما رَأْيُكَ في هذا التَّصَرُّفِ. هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّها سَتَهْرُبُ في يومٍ ما؟

- هَلْ مَرَرْتَ بِمواقِفَ مُماثِلَةٍ شَعَرْت فيها أنَ أحدًا يحتاجُ مِنْكَ المُساعَدَةَ ولكِنَّه لَا يُصَرِّحْ بِذلِكَ؟

5. ظَلَّ الحَنينُ إِلى القَطيعِ والعائِلَةِ يُعاوِدُ سَريعًا في مَواقِفَ كَثيرَةٍ: في الجوعِ والعَطَشِ والأَلَمِ. ارْصُدْ بَعْضَ العِباراتِ الّتي تَدُلُّ على ذلِكَ.

طَعام

تطاردُني صورةُ البشَريّ وعَصا البَرقِ التي يحمِلُها وأنا أركُض. يدفعنُي الرُّعبُ والذكرياتُ المريرةُ قدُمًا. تنتظِمُ خطواتي وينضبِطُ إيقاعُها، لكنَّ ذِكرى شبيهةَ الذِّئبِ لا تريدُ أَن تغادِرَني. أقِفُ. وأنظرُ ورائي. ربَّما كان يُمكِنُها أَن تقفزَ عنِ السِّياج. كانَ يُمكِنُ أَن تأتيَ عِندَما ناديتُها. لكنَّها تركتِ الجروَ البشريَّ يلمسُها. عاشَتْ مُحاطةً برائحةِ البشَر. رُبَّما تعلَّمتْ طريقتَهم كما تعلَّمَ الذئبانِ الغِرّانِ طرائقَ القيُّوط. أنا أفضَل حالاً بمُفردي، لكنَّني أريدُ رفقتَها بنفسِ المِقدار.

فِي غَمرةِ قلقي علَيها فقدتُ فرصَتي فِي اصطيادِ أَرنَب. تعودُ رفيقتي أُنثى الغُراب، وتوَبخُني بينَما تُحلِّقُ في دوائرَ حَولَ رأسي. أزمجِرُ علَيها حَتَّى وأنا أعرِفُ أَنَّها مُحِقّة. عِندَما تأكلُ الأشياءَ الصغيرةَ فَقَط، فإنكَ ينبَغي أَن تلتقطَ شيئًا كلَّ يَوم. أُحافِظُ على سرعتي، لكنَّني أشحذُ عينَيَّ حتَّى لا أُفوّتَ الوجبةَ التَّالِيَة.

أصبحَتِ الأرضُ أكثرَ جفافًا الآن. لا شجرةً واحدةً في مَرمى النَّظَر، وكلُّ ما أستطيعُ أَن أشُمَّهُ هُو الغبارُ وَرَوثُ البقَر. يذكِّرُني الجِلدُ الرَّخوُ فَوقَ بَطني بطول الوقت الذي مضى منذُ أكلتُ غزالاً أَو أيّلاً. وَمَع الغُرُوب، تجدُ رفيقَتي أُنثَى الغُراب مكانًا لتجثُمَ فِيه، لكنَّني أواصلُ البَحثَ عَن الطَّعامِ. ولكنْ لا شيءَ في الجِوار، لا راكوناتٍ، لا ثعالبَ، ولا حتَّى فئرانًا. أرتمي بتثاقلٍ بجوارِ الشُّجيرةِ حَيثُ تَنامُ أُنثى الغُراب وأُحاولُ أَن أتجاهلَ قرقرةَ بَطنِي. وفي الصَّباحِ، أنتظِرُ

أَن تواصلَ أُنثى الغرابِ طيَرانَها الاستكشافيَّ باحثةً عَن وَجبَة. تَطيرُ فِي دوائرَ واسعةٍ وتَعُود. ولكنْ لا شيءَ لتُبلِغَ عنهُ. تطيرُ مرةً أُخرَى. وأنتظِر. تمرُّ خنفساءٌ سمينةٌ مُتهادِيةً تحتَ أَنفي مباشرةً.

لَن أفعلَها. أبدًا. أبدًا. لَن آكُلَ الحشراتِ مرةً أُخرى.

أقفُ وأتمطّى. أُفتِّشُ السماءَ باحثًا عَن رفيقتي أُنثى الغُراب. ترتفِعُ حرارةُ النهارِ وأَنا الظلُّ الوحيدُ الذي أستطيعُ رؤيتَهُ. أَبقى مُنتَظِرًا، وجوعي يزدادُ مَع الحرارةِ الصاعِدة. الكائناتُ الحيةُ الوحيدةُ التي أَراها هِي الإوَزُّ الذي يُحلِّقُ عالِيًا، وحتَّى هو، مَع كلِّ زعيقِه الأَحمَق، يَعرفُ أفضلَ مِن أن يهبط هنا. تستطيلُ الظِلالُ قبلَ أَن تعودَ أُنثى الغُراب. تَأتي مُحلِّقةً على ارتفاعٍ خفيضٍ ومباشرةً إليَّ. تَبدُو سعيدةً مِن شَيءٍ ما. تحاصِرُني. تهبطُ عِندَ قدميَّ وتمدُّ رأسَها. لا بُدَّ أَنَّهُ الطَّعام، طعامٌ لا تستطيعُ أَن تفتحَ أحشاءَهُ ما دامَت قَد قطعت كلّ هذا الطريقِ عائدة إليّ. أنطلِقُ راكِضًا وهِي تقودُ الطَّريق. الجوعُ يقضمُ سرعَتي. وأُنثى الغرابِ تدورُ عائدةً، وتنتَظِرُ أَن ألتحِقَ بِها. ولكنْ عِندَما تهبطُ الشَّمسُ وتغيبُ وراءَ الأفُق، تجدُ شُجَيرةً وتضعُ رأسَها تحتَ جناحِها كما لَو أنَّ الظَّلام يُحدثُ فرقًا. مَنْ يهتمُّ إذا ذهبَ القَمَر؟ ثمةَ ضوءُ النُّجُوم. كَما لَو أنكَ تحتاجُ إلى الضوءِ مِن الأَساسِ حين يكون بإمكان شمّة واحدة أن تخبرك بأنّهُ لَيس ثمةَ سِوى الغبارِ وأكوامِ روثِ الأبقارِ لتقلقَ بشأنِها. أنبَحُ على أُنثى الغُراب. وهِي تنفشُ ريشَها وتنعَقُ عليَّ احتجاجًا. لا بأسَ. سوفَ أَجِدُ اللحمَ الذي كانتْ تأخذُني إليهِ وَحدي.

لا نُسورَ تُدوّمُ في السماءِ لِتُرِيَني مكانَ اللَّحم. معدتي تُقرقرُ وتئِن. أرفعُ رأسي وأشتكي للنُّجوم.

ولا يجيبُني أحَد.

أعـودُ أَدراجي إلى أُنثى الغـرابِ وأستَلقي تحتَ مرقَدِها، وحتّى في أَحلامي أكونُ جائِعًا.

نستيقِظُ، أُنثَى الغـرابِ وأنا، ونركضُ معَ أَوَّلِ الضَـوء. تنطوي الأَرضُ الجافةُ تحتَ أقدامي. أتعقَّبُ رفيقتي أُنثى الغـرابِ التي تطيرُ في الأمَامِ، جائعةً مِثلي. ذهبَ الألمُ من كَتِفي، وبقيَ ألمُ الجـوعِ وحـدَهُ ليدفعَني أمامًا. تشـرَعُ الأرضُ في الارتِفـاعِ وأستطيعُ أَن أسـمعَ وأشُـمَّ فَـوقي النهـرَ الأسـودَ قبلَ أَن أَراهُ. أطلِقُ نبحـةَ تحذيرٍ لأُنثى الغُـراب، لكنَّها لا تَعبأُ بالحذَر. تَعُـود وتحثُّني على المُضِيّ.

أسـيرُ أَبطَأَ الآن، باحثًا بعينيَّ وأنفي عَن البشَـرِ، ومُستنشـقًا الهـواءَ الكريـهَ الـذي يتعلَّقُ في سَحابةٍ فـوقَ النهـرِ الأَسـوَد. لكنَّ أُنثَى الغُـرَاب تظلُّ تحثُّني على المُضيّ. أتبَعُها على طُولِ الضفـةِ حتَّى بَينَمَا تمرُّ صانعـاتُ الصَّخَـبِ مُسـرِعةً بأزيـز.

ثمّـةَ غـزالٌ ميتٌ على ضفَّـةِ النَّهـرِ الأَسـوَد. تحطُّ أُنثى الغُـرابِ على جِلدِه، متقافـزَةً بجـذَل.

إنَّـه ظَبيٌ ذكَـرٌ مكتملُ النمـوّ، فيـهِ ما يكفي مِن اللَّحـمِ لإطعـامِ قَطيـع. والجـوعُ الـذي لازَمَني لأَيّام وأَيّام، منـذُ أَن هربتُ مِن الجِبـالِ، يَعوي في داخِلي وأُصبحُ معَهُ جامِحًا. أَنسى أحزاني، ووحدَتي، وكلَّ شيءٍ. أغـرِسُ أَسناني في الجِلد. أفتحُ البَطن. ليسَ هُناكَ أحدٌ ليخطفَ أفضلَ القِطَعِ مِن فَمي. لا أحدَ يجعلُني أشاهدُ بينَما

يأكلُ هُوَ أفضلَ اللَّحم. آخُذُ الكَبِدَ كلَّهُ والقلبَ، وأشعر بأنَّني أصبِحُ أَقوى مَعَ كُلِّ قَضْمَة. أُجرّدُ الجلدَ وأزدرِدُ العَضَلات. يسيلُ الأحمرُ على ذَقني ويمتلئُ بَطني حتَّى يشتَدَّ جِلدي الذي كان مُترهِّلاً. ما يزالُ هناكَ لحمٌ تبقّى. رائحتُه زكيّةٌ حتَّى إنَّني أريدُ ابتلاعَه كلَّه. أشبَعُ لكنَّني أواصِلُ الأَكل. تغربُ الشمسُ لكنّني آكلُ المَزيد. وأخيرًا، في النِّهايَةِ، عندَما يذهبُ جوعي ويذهبُ معَه خَوفي مِن الجُوعِ، أرفَعُ رأسي.

عندئذٍ فَقَط أَرى أُنثَى الغرابِ تأكلُ بِجانِبي وأسمَعُ صانعاتِ الصَّخَبِ

التي ما تزالُ تمرُّ مُندفِعة. عندئذٍ فقط أتذكَّرُ مَوطِني عند مَجرى النَّهرِ على الجانبِ البعيدِ مِن هذا النهرِ الأَسوَد. عندئذٍ فَقَط أُلقِي نظرةً على الظَّبيِ الذي كنتُ آكلُه. إنّهُ مكُتملُ النموّ، له كثيرٌ مِن التشعُّباتِ فِي قرنَيه. دائمًا ما أدَّخِرُ العظامَ ولُبَّها الغنيَّ اللذيذَ إلى النِّهايَة. ولكنْ، عندَما أمرُّ بأنفي بينَ العظامِ أجدُ أن فيها شيئًا خَطأ. كلُّ ضلعٍ مكسورٌ وليسَ عظمةً واحدةً كما يحدُث عندَ السُّقُوط. العظامُ كلُّها مُمزقةٌ وكأنَّ صخرةً هائلةً سَقطَت على الظَّبي. ولا توجدُ صخرةٌ فِي جوارِ الجُثَّةِ ولا جُرفٌ لتسقطَ مِنه. كانَت هذِهِ ضربةً لا تشبِهُ أيَّ شَيءٍ شاهدتُهُ في حَياتي. حتَّى أكبرُ دُبٍّ لا يستطيعُ أَن يسحقَ ظبيًا هكذا.

أتحسَّسُ بِيَدي عبرَ الجِلد وقَد أصبحتُ فُضولِيًّا الآن، باحثًا عَن علاماتٍ لأسنانِ المَخلوقِ الذي قتلَ هذا الظَّبي. إذا كانَ هُناكَ حيوانٌ جَدِيد، شيءٌ أكبرُ وأكثرُ خطورةً مِن أيّ شَيءٍ أَعرِفُه، فيجبُ أَن أعرِفَ كلَّ ما يُمكِنُني معرفتُهُ عَنه. لا أجدُ أيَّ ثقبٍ فِي البُقعةِ المعتادةِ على الرَّقَبَة. لا شيءَ في مُؤخِّرةِ الرَّأسِ مثلَ ضربةِ أسدِ الجَبل. ولا عَلامةَ لعضةٍ حولَ أسفلِ السَّاقِ مثلَ التي يصنعُها القيُّوط.

هُناكَ في جِلدِ البطنِ قِطَعٌ مِن الجَليد. لكنَّ هذا الجليدَ دافئُ الملمَسِ وأكثرُ حِدّةً مِن مِخلَبٍ وَشَق. هُناكَ بعضُ القِطَعِ الإضافيَّةِ مِن هذا الذي ليسَ جَليدًا على الأَرضِ، بَل وأكثَرُ مِنها على ضفةِ النَّهرِ الأسوَد. كنتُ أتجاهلُ صوتَ النهرِ الأسودِ ورائحتَهُ الكريهةَ، لكنَّني أراقبُ الآنَ بينَما تمرُّ إحدَى صانعاتِ الصَّخَب. تهزُّ الأرضَ بينَما تأتي. وهيَ سريعةٌ جدًا حتَّى أَنَّهَا تُرسِلُ النّسيمَ في هواءِ الليل السَّاكِن.

أَنظُرُ إلى أُنثى الغُرابِ ثُمَّ إلى آثارِ هذا اللا-جَليد. تومِئُ أُنثَى الغرابِ برأسِها وكأَنَّها تُؤكِّدُ مَخاوفي.

صانعةُ صَخَبٍ هي التي فعلَتْ هذا. سحقَتْ هذا الظَّبيَ في مُنتصفِ قفزَتِهِ وواصَلت طريقَها دونَ أَن تتوقفَ لتأكلَ، أَو حتَّى لتمنحَ انحِناءةَ امتنانٍ

للحياةِ التي تُعطِي الحياةَ لكلِّ الراكضينَ على أَربَع. كانَت أمّي على حَقّ. لا أحدَ يفهَمُ البشَـر. أرتعِدُ مِن فكرةِ أَن أضعَ قدَمًا على النَّهرِ الأسـودِ أبدًا. لَن أعبُرَهُ مرةً أُخرى. جبالي هناكَ فِي مكانٍ ما على الضفةِ البَعِيدَة، لكنَّني لَن أذهبَ أبدًا إلى الوَطَن.

أَرفَعُ رأسي وأُنادي عائلَتي المَفقودَة. أعرفُ أنَّهم لا يستطيعونَ سَماعِي. رُبَّما لَم يتبقَّ مِنهُم أَحَد. ومعَ ذلكَ أُناديهِم.

«أنا هُنا. لقَد نجَوت».

وَما مِن مُجيب. أَخفِضُ رأسي مُثقلاً بِالحُزن. تقودُني أُنثى الغرابِ بعيدًا عَن النهرِ الأَسوَد. أسيرُ خلفَها مُتعثرًا إلى أجمةٍ مِن أشجارِ البتولا وأنهدُّ على الأرضِ عندَ جذوعِها المَلَساءِ الشاحَبة. تُحدِّثُني أُنثى الغرابِ بصوتٍ ناعمٍ، ولَكِنْ، قَبلَ أَن أستوعبَ ما قالَتْهُ، أُريحُ رأسِي على الأرضِ وأحلُم بالجِبال.

أسئلة الفصل

1. ما المَوْقِفُ الّذي قالَ فيهِ سَريعٌ: لَنْ أَفْعَلَها أَبدًا أَبدًا؟ هَلْ مَرَرْتَ بِمَواقِفَ وَقُلتَ لِنَفْسِكَ خِلالَها مِثلَ هذِهِ العِبارَةِ؟

2. أُذكُرِ المَواقِفَ الّتي اخْتَلَفَ فيها سَريعٌ مَعَ أُنثى الغُرابِ في هذا الفَصْلِ، اِشْرَحِ الأَسْبابَ وَمَوْقِفَ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُما والطَّريقَةَ الّتي تَصَرَّفَ بِها.

3. اِنْتهى هذا الفَصْلُ عِنْدَ سريعٍ بِقَرارٍوَخَوْفٍ وَحُلْمٍ. وَضِّحْ ذلِكَ.
   - القَرارُ:
   - الخَوْفُ:
   - الحُلْمُ:

4. "كانَتْ أُمّي عَلى حَقٍّ: لا أَحَدَ يَفْهَمُ البَشَرَ"، ما الذي ذكَّرَسريعًا بِمَقولَةِ أُمِّهِ؟

خَوف

أَنَامُ اللَّيلَ كلَّهُ وطَويلاً بَعد شُرُوقِ الشَّمس. تُبقيني معدَتي المُمتَلِئَةُ ناعِسًا طَوالَ اليَومِ. ينبَغي أَن أَكُونَ سعيدًا، لكِنَّني مُثقَلٌ بهاجسِ الذِّكرَيات. بَعد الصَّيدِ كانَ الفرَحُ دائِمًا يسري في القَطِيع. العُواء. المُصارَعَة. ألعَابُ المُطارَدَة. وعِندَما ينتَهي الاحتِفالُ، كُنَّا نَجلِسُ جميعًا معًا، تَتدَاخَلُ الأقدَامُ والذُّيولُ معًا، ويضُوعُ عبَقُ قطيعي المُهدِّئُ فِي كُلِّ مَكانٍ حَولي. في بَعضِ الأَحيَانِ، كنتُ أَظَلُّ مُستيقِظًا فقَط لأسمَعَهم يتنفَّسون.

«كلُّ شَيءَ على ما يُرام»، كَانَت الأُمُّ تهمِسُ لي. «إنَّنا مَعًا».

ثَمةَ المَزيدُ مِن الطَّعامِ لِلأَكل. يَجِبُ أَن أعودَ إلى الغَزال. لكِنَّ فكرةَ تَناوُلِ الطَّعامِ وَحدي تَجعَلُ ذَيلِي يسقُطُ تمامًا على الأَرضِ. وعِندَما أُحرِّكُ نَفسِي أخيرًا، يكونُ القَمَرُ قد أصبحَ مخلبًا أَصفَرَ باهتًا على صفحةِ الأفُقِ، وأُنثى الغُرابِ تنامُ مَدفونَةَ الرّأسِ تَحتَ الجَناحِ فِي الأَشجارِ فَوقي.

أشدُّ كتفيَّ وأضرِبُ الأَرض بقدَميَّ الأماميتين لأختبرَ قُوّتي. أعوي كما لَو أنّي قائِدُ قَطيع. ولكنْ لا أحدَ هُناك ليَسمعَني. لا أَحدَ ليشاركني طَعامي. لا أَحَدَ أستدفئُ بِه ويعطيني السلوى. ألَمُ جروحي وأَلَمُ الجُوعِ لا شيَءَ مُقارنةً بِالألَمِ الذي يُجمِّدُ أطرافي وَيحبِسُ عُوائي في صَدري.

مع أنّني أَكرَهُ ذلِكَ، أذهَبُ إلى ضفّةِ النَّهر الأَسوَد. أُطلقُ صَيحَةَ ودَاعٍ أخيرةً لعائلَتي المفقُودَة. لا أَحَدَ سيسمَعُني. وحتّى بالكادِ أسمعُ نفسي، لكنَّني أُرسِلُ لهُم في الهواءِ أَفضلَ عُواءِ لَدَيّ. هذا كُلُّ ما أملِكُه. وبينَما أَستَدِيرُ لكَي أُغادرَ، تأتي صانعةُ صخَبٍ مِن خلفِ المُنعطَف، مرسِلةً حُزمةً من الضوءِ على الضَفَّة البَعيدَة. وَفِي ذلِكَ الضَّوء، لِلَحظِةٍ قصيرةٍ فَقَط، أَرى وميضًا كهرَمانيًا. ويفوّتُ قَلبي دَقَّة.

إنَّه ذِئب.

صَانِعةُ صَخَبٍ أخرى، وحزمَةٌ أُخرى مِن الضَّوءِ، وأستطيعُ أَن أَرى أُذُنينِ سوداوين ووجهًا داكِنًا بِأَعيُن كهرمانيةٍ ساطِعَة.

إنَّه ذِئب-ذِئبٌ حَقيقيّ!

أنبحُ وأدورُ مِثل جَرو. أُناديه. أتنشَّقُ الرَّوائحَ من الهواءِ باحثًا عَن عَبَقٍ لَه. تكادُ روائحُ النَّهرِ الأَسوَد تخنقُني، لكنَّ هُناكَ تَحتَها، نَعَم، رائِحةُ ذئبةٍ أُنثَى. أَدُور وأعوي مرةً أُخرى وأناديها. وهي لا تُجِيبُ، لكنّني أستطيعُ أن أُخمّنَ، فِي حُزَمِ الضَّوءِ الوامضةِ التي تسقُطُ فِي المدى، أَنَّها تَراني. تذرَعُ الضَّفَّةَ البَعِيدَة، قَويَّةً، سَوداءَ وجميلَةً. وهِي فتيَّةٌ مِثلِي. شريكةُ صَيدٍ مِثالِيَّة. وأستطيعُ أَن أتخيَّلَها مُسبقًا وَهي تركضُ بجانبي كَتفًا لكتفٍ.

كَيفَ يمكنُ أَن أَجعَلَها تعبُر النهرَ الأسود؟

الطَّعام! الطَّعامُ بِوُضُوح. أندفِعُ إلى غزالِ الأمس. أغرِسُ أَسناني فِي السَّاقِ الأَكثَرِ لَحمًا وأشدُّها حَتَّى تنفصلَ.

يَتَأَرجَحُ شعاعُ ضَوءٍ مِن صانعةِ صخَبٍ على عِظامِ الأَضلاعِ المحطَّمة. أُسقِطُ الساقَ مفزوعًا. النَّهرُ الأَسوَد. سَوف يقتُلُها. أتراجعُ متعثرًا. وَترتجفُ الأَرضُ مَع اقترابِ أَطوَلِ صانِعةِ صخَبٍ أراها على الإطلاق.

«خطر! ابقَيْ بعيدَة! أهتفُ لها».

ترفعُ رأسَها لتعوي، وَلكِنْ بينَما تفعَل، تُطلِقُ صانعةُ الصَّخبِ الطَّويلةُ صَرخَةَ الموتِ من أيّلٍ عابِر. ويرنُّ الصَّوتُ في أذُنيَّ مُغرقًا نداءَ الذِّئبةِ الغَريبة. يجعلُ هديرُ صانعةِ الصَّخبِ الحجارةَ الصغيرةَ تتقافزُ على الضفّة. ويدفعُني الهواءُ المندفعُ معَ مرورها خطوةً إلى الوَراء. وعِندَمَا تَتَوقَّفُ أُذُنايَ عَن الطَّنينِ وتصفو عَيناي مِن انبِهارِ الضَّوءِ، أَرى الذّئبَةَ السَّوداءَ ما تزالُ هُنَاك، تذرَعُ الضفةَ البَعِيدة.

«لا تعبُري!»

ثَمَّةَ صانعةُ صَخَبٍ أخرى تهدُرُعلى الطَّريقِ. تركضُ الذئبةُ على الضَّفَّةِ وتنحرِفُ عن النهرِ الأسودِ في الوقتِ المُناسِب.

«ابقَي بعيدة!» أعوي.

ولكنْ، حتَّى وأَنا أَقولُ ذلِكَ يخِزُني النَّدَم. كنتُ وحيدًا جدًّا. وأُريدُ رفقتَها هُنا على هذهِ الضفَّةِ القصيَّةِ حَيثُ لا شَيءَ سِوى أرضٍ غَريبَةٍ تمتدُّ أَمامي. هيَ لا تتراجعُ بعيدًا عَن صانِعاتِ الصَّخَب، وأَنا أُحِبُّ شجاعتَها، حتَّى بينَما يملؤُني الرُّعبُ مِمَّا قَد يَحدُثُ لها إذا حاولَتِ العُبُور.

تناديني، لَكِنَّ صوتَها يَغرَقُ في الصَّخب. تُحَاوِلُ مَرةً أُخرى بينَما تشرَعُ في الرَّكض. لا أَستَطِيعُ تحمُّلَ المُشاهدَةِ، لكنَّني لا أَستَطِيعُ أن أُديرَ وجهي.

تَبتَعِدُ فِي اللَّحظَةِ الأَخِيرةِ عَن طريقِ صانعةِ الصَّخبِ المقتَربة. أتنهّدُ بارتياح، ولَكِنْ ما إن يمرَّ هذا الشيءُ حتّى تُحاوِلَ ثانيَة. إنَّها عَنيدةٌ، أكثرُ شَبَهًا بوثّابةَ مِن حَمِيم. كَيفَ يمكنُ أَن أُقنِعَها بِأَن تَبقى بَعيدَةً عِندَما لا تَستَطيعُ أن تسمعَ تَحذيري؟

«لا تموتي»، أهمسُ. لا أَستَطيعُ أَن أَتَحمَّلَ ذلِك-ليسَ بَعدَ أَبِي-وليسَ بَعدَ حَمِيم. لقَد عانيتُ الكَثيرَ مِنَ المَوت. لَن أُشاهِدَ مَوتًا آخَر. أرفعُ رَأسِي وأعوي بـ«لاااااااااا» طَويلَة.

تَسمَعُني أُنثَى الغُراب. تتحدّى الظَّلامَ بِشَجاعَةٍ لِتَطيرَ إلى جَانِبِي، ويذكّرُني شَيءٌ فِي نظَراتِها التي لا تَطرُفُ بهادِر. كانَت لهادِر نظرةٌ وتَعبيرٌ على الوَجهِ عِندَما كنَّا نوشكُ، نَحن الجِراء، على تجاوُزِ الحُدُودِ. إذا خرَجنا أَكثرَ مِن لَحظَةٍ واحِدَةٍ عَن غطاءِ عرينِنا الآمن، كانَ يَرفَعُ الفراءَ على كتفَيهِ وَيضرِبُ الأَرضَ بقدميهِ الأماميّتَين. كانَ يخفِضُ رأسَهُ ويُحدقُ فينا مُباشَرةً في العَينَينِ وهو يُطلِقُ زمجرَةً خفيضةً

مُهدِّدة. ولم أكُن أستَطِيع أن أُشيحَ بِوَجهي عَن تِلكَ التحديقَة. كانَت تُرعبُني. لَم يكُن يُشهِرُ علَينا نابًا ولا مِخلَبًا، لكِنَّنا لَم نعبُرْ أبدًا–ولا مرةً واحدةً-تلكَ الحدودَ التي كانَ يَضَعُها لنا.

هَل كُلُّ الذِّئاب تَفعلُ هذا؟ عليَّ أن أُجرِّب. إنَّهُ الأَملُ الوَحيدُ للذئبَةِ السَّوداء.

أُفَكِّرُ بكيفَ كان هادرٌ ينظُرُ إليَّ عِندَما كُنتُ أوشِكُ أن أتحدّى أَحَدَ الحُدودِ، وأَنتَقِلُ مِن فوري إلى النُقطةِ المقابِلةِ للذئبةِ السّوداءِ على جهَتي من ضفةِ النّهرِ الأسَود. أَضَعُ جَسَدي فِي هيئةِ مُراقِبِ جِراءٍ غاضِب. أنتَظِرُ حتّى يَغمُرَني ضوءُ صانعةِ صخَبٍ عابِرةٍ وأطلِقُ أَشرَسَ زمجَرةِ مُراقبِ جِراءٍ لدَيّ. أعلَم أَنَّها لا تَستَطِيعُ أَن تَسمعَني، لكنَّها تَستَطِيعُ أَن تَرى الطَّريقَةَ التي أَقِفُ بِها، وأضرِبُ الأَرضَ بأقدامي وأخفِضُ رأسي. يُمكِنُها أَن تَرانِي وأَنا أحدُجها بهذهِ النَّظرةِ الآمِرة، وقد استدارَت شفتاي بالعُوَاء.

«لا تعبُري!»

أضعُ كُلَّ ما فِيَّ مِن خَوفٍ ووَحدَةٍ فِي ذلِكَ العُواء. وأحدِّقُ فِيها بكُلِّ التَّهديدِ الذي أستطيعُ أن أستجمعَهُ لأحميَها.

«لا تعبُري! لَا تعبُري!»

أضرِبُ الأَرضَ حتَّى يوجعَني كتفاي ويرتجفَ صَوتي. وعِندَما لا يَعُودُ بوُسعي أَن أَفعلَ شيئًا أَكثَر، أذرعُ ضفَّةَ النَّهرِ الأَسوَد وأَبحَثُ عَن عينَيها الكهرمانيَّتَين. لكنَّ الظلامَ فَقَط هُوَ الذي يُجِيبُ نظرتي. أبتعِدُ متعثرًا عَن الضفَة، ويخفتُ عوائي مُتطامِنًا إلى نَشِيجٍ حزين.

لقَد فعلتُها. لقَد أنقذتُها.

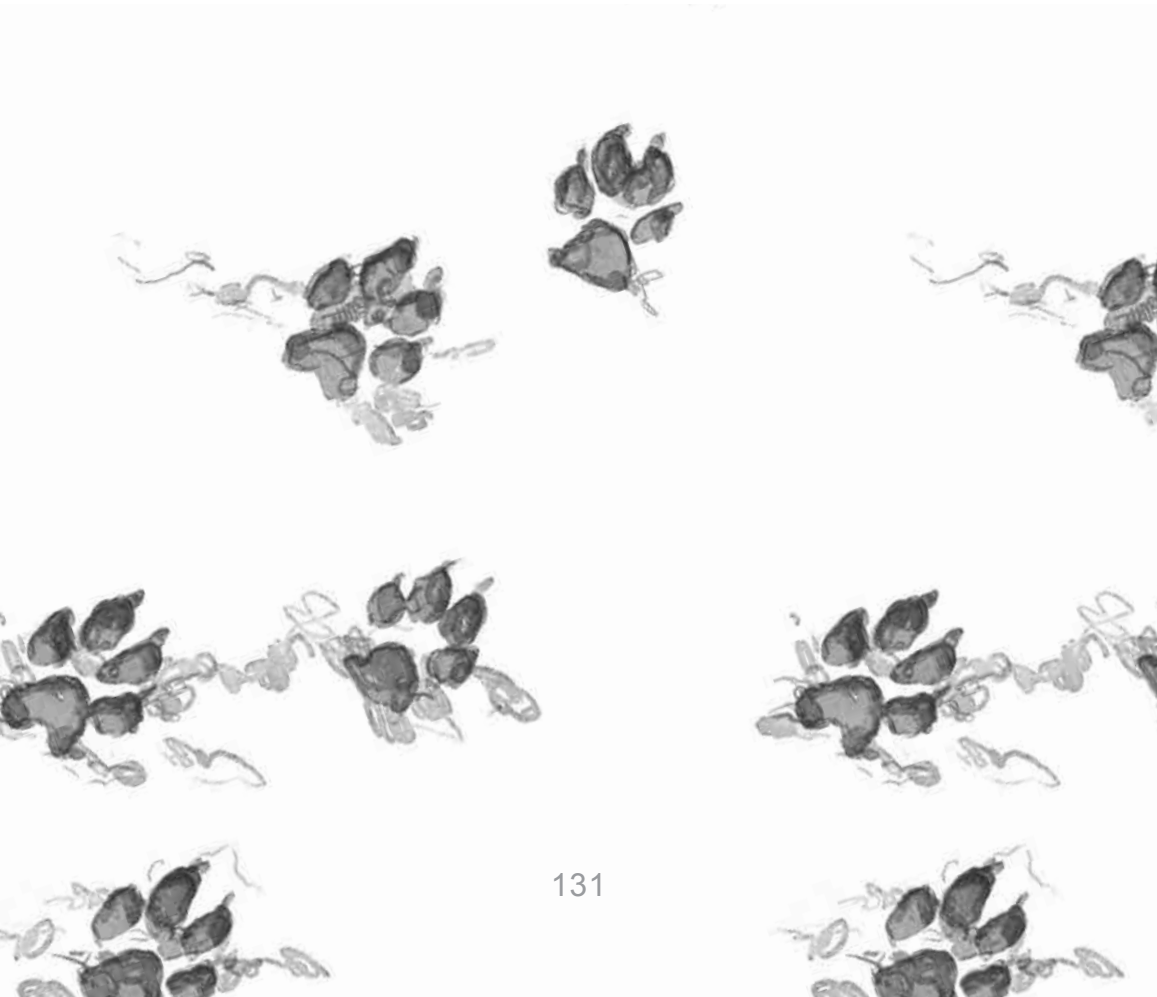

أسئلة الفصل

1. لماذا عَنْوَنَتِ الكاتِبةُ هذا الفَصلَ بـ (خَوْف)؟

2. "يَنْبغي أَنْ أَكونَ سَعيدًا، لكِنّني مُثْقَلٌ بِهاجِسِ الذِّكرياتِ" شَرَحَ سَريعٌ هذِهِ العِبارَةَ بِتَذَكُّرِ طُقوسِ الصَّيْدِ في قَطيعِهِ. صِفْ ذلِكَ، وما يعنيهِ في حياةِ سريعٍ بعيدًا عن قطيعِهِ.

3. الصَّيْدُ بِالنِّسْبَةِ لِلذِّئابِ هُوَ الحَياةُ بِكُلِّ مَباهِجِها. صِفْ وِجْهَةَ نَظَرِ سَريعٍ في الصَّيْدِ.

4. كَيْفَ أَنْقَذَ سَريعٌ الذِّئْبَةَ السَّوْداءَ؟ وَما الَّذي دَعاهُ لِإِنْقاذِها؟ فيمَ كانَ يُفَكِّرُ؟

5. تَأَمَّلْ جَمالَ هذِهِ الصُّوَرةِ: "يَكونُ القَمَرُ قَد أَصْبَحَ مِخْلَبًا أَصْفَرَ باهِتًا عَلى صَفْحَةِ الأُفُقِ" حاوِلْ أَنْ تَرْسِمَها مُوَضِّحًا شَكْلَ القَمَرِ في تِلْكَ الليلةِ. واكتُبْ جُملَةً مِن إِنْشائِكَ تَصِفُ فيها جَمالَ القَمَرِ.

ماء

تجِدُني أنثى الغُرابِ فِي الظَّلام. تجثُمُ على الأَرضِ بِجِواري كلَّ اللَّيل. وعِندَما تُشرِقُ الشَّمسُ، أَسِيرُ فِي أعقابِها. إنّها كُلُّ القطيعِ الذي لديَّ الآن. نَترُكُ النَّهرَ الأَسوَدَ بعيدًا وَراءَنا ويغمُرُني شعورٌ بالامتنان. المكانُ هادئٌ على الأَرضِ المسطَّحةِ المُنبَسِطةِ التي تَذرُوها الرِّياح. سَوفَ تَمرُّ عِدَّةُ أَيّامٍ قَبلَ أَن أجوعَ مرةً أُخرى، ولَكِنْ عندَما تضرِبُني الشَّمسُ بِكُلّ قوّة منتصفَ النهار أَشعرُ بالعَطَش. تُصبِح الصُّخورُ أَكثَر حِدّةً بينما نرتحِل. أُبطِئُ سرعتي من الركضِ إلى الهَرولَةِ وأختارُ طريقي بحيثُ أدورُ حَولَها. أنظُرُ وأشُمُّ باحثًا عَن الماءِ، ولا أثَر للماء.

أسقُطُ متخبّطًا تحتَ شُجيرة. ظِلُّها ليسَ أَكبرَ مِن جَسَدي. وليسَ المكانُ تحتَها أبرَدُ بِأيّ حالٍ، لكِنَّ وهجَ الشَّمسِ أتعَبَ عَينَيّ. أغلِقُهما لتَرتاحا، وأحاوِلَ أَن أطردَ الحَرارةَ بالظِل. فَمِي جَافٌّ مِثلَ عظمةٍ قَدِيمَةٍ، وَمَعَ ذلِكَ لا رائِحَةَ لِماء. يَزحَفُ النَّملُ صاعدًا فِي فِرائي ولا أجِدُ الطَّاقةَ لأتخلَّصَ مِنه. تدورُ أنثى الغرابِ عائدةً وتنتظرُ فِي الشّجَرةِ توّاقةً إلى المُضيّ. السَّماءُ طريقٌ سَهلٌ. لَا حجارةَ فيهِ تصنَعُ في قدَمَيها الكدَمات. تُناديني.

«انتظري!» أُردُّ نابحًا. «الظلامُ قَادِم. الهَواءُ الأبردُ قادِم».

شَرَع القمرُ فِي استعادَةِ سماكَتِهِ مرةً أُخرى، وسَوف يُسْبِغُ ضوءَهُ على السهول. لَكِنَّ الغِربانَ لا تطيرُ في اللَّيلِ، ولا حتَّى عِندَما يضيءُ القمرُ الأشياء.

أسـردُ لها أسـبابي بالقدْرِ الذي يَتَّسِـعُ لَهُ صَبرُ ذِئب، لكِنَّ أنثى الغـرابِ لا تقتنِع. تَطِيرُ مبتعدةً مرةً أُخرى وأنا أَتبَعُها، وإنَّما بِبُطْءٍ.

تتراجَعُ حَرَارةُ النَّهارِ ولَم نَعثُر على المَـاءِ بَعْد، لكِنّ أنثى الغـرابِ تَتَمَسَّكُ بِخَطِّ الغُروبِ كمَا لـو أنَّها طارَت في هَذا الطَّرِيقِ مِن قبلُ وَتَعرِفُ أَينَ يسكنُ الماء. نعبرُ المزيدَ مِن الخُطوطِ الرَّمادِية، لكِنَّها صدِئةٌ هنا مستلقيةٌ على الأَرضِ أَو متكوّرةٌ فِي كُراتٍ مُتشابِكة. رائِحَةُ البشَـرِ ذَهبَتْ من هُنا منذُ زمنٍ بَعِيد، لكِنَّني أرفُضُ السيرَ قريبًا من الخطوط. بعيدًا فِي الأفُقِ، أَرى أبقارًا، بِلَونِ الصَّدَأ على خَلفِيَّة فِضِّيَّةٍ وذهبيةٍ مِن العُشبِ والمَرَيمِيَّة. لستُ جائعًا والعَطَشُ هُوَ كُلُّ مَا أَستَطيعُ أَن أُفكِّرَ فِيه. أسيرُ وأنا مُتيقِّنٌ مِن أَنَّ أنثى الغـرابِ ستقودُني إلى الماءِ. إنّها بحاجةٍ إلَيهِ مِثلي تمامًا. وعِندَما تَغربُ الشمسُ تجِدُ شجرتَها لِقَضاء اللَّيل.

«أينَ الماء؟» أعوي.

تديرُ ظَهرَها لي.

«لقد تبعتُكِ وَمَا مِن ماء!»

لكنّها لَا تفعلُ سِوى الإجابةِ بالنعيق، وتهزُّ جناحَيها وتستعِدُّ للرُّقاد.

أَجِدُ لنفسي مَوقِفًا قُربَ أَشجَارِ العَرعَرِ وأستلقي لأريحَ أقدامي المُتألِّمَة.

أتخيَّلُ الخوضَ فِي الجَداوِل الباردةِ كالثَّلجِ فِي أَرضِ مَوطِني. يجافيني النَّومُ ولا يَأتي. الأَرضُ هنا صخريَّةٌ وَعِرةٌ والهواءُ ساخِنٌ وناشِف. لَا شيءَ لَهُ رائِحَةُ الوَطَن. أئِنُّ مُنتحِبًا مِثل جروٍ ولا أهتمُّ حتَّى لَو سَمِعَتني أنثى الغُراب. وَفي غمرةِ عطشي اليَائِسَ، أتذكَّرُ الأحمرَ الذي سالَ من تَحتِ قشرةِ الجُرحِ الصُّلبَةِ على كَتِفي. سَوف أشربُ حَتَّى ذلِكَ. ألعَقُ القشرةَ الصُّلبَة لِأَفتَحَ جِلدي. الجِلدُ خَشِنٌ تَحتَ لِساني وَأَكثَرُ جفافًا مِن الرَّملِ، لكنَّ حَوافَّ القشرةِ ترتفِعُ. ألعقُ بقوةٍ أَكبَر. يلسَعُني ذلكَ، لكنَّني لا أَهتَمُّ. تتباعَدُ الحوافُّ متداعيةً وفِي النِّهايَةِ تتَحَرَّرُ كُلُّ الشريحةِ تحتَ القِشرةِ وتنفَتِح. بشهقةٍ امتنانٍ ألعَقُ كَتِفي، لكنَّني لا أجدُ الأحمرَ لأشرَبَهُ–ليسَ سِوى عَلامةٍ بَيضاءَ نَاعِمَةٍ حَيثُ كانَ الجُرح ذَاتَ مَرة.

أُلقي برأسي إلى الخلفِ وأعوي وأعوي وأعوي حَتَّى يصِلَ عُوائي إلى القَمَر. وفِي ضوئهِ الكابي أغلِقُ عينَيَّ أخيرًا وأَنام. يَحمِلُني القَمَرُ فِي الحلُمِ كُلَّ الطريقِ عائدًا إلى أرضِ مِوطني بكُلِّ مِياهِها التي تنسابُ حلوةً، صافيةً وباردة.

عِندَما أستَيقظُ يكونُ عطشي قَد ازدَاد. وتُصيبُني كُراتُ الترابِ الصغيرةُ فِي فرائي بالحكَّةِ بقدرِ ما تفعلُ الحَشَرات. ولا يَستَطِيعُ أَيُّ قَدرٍ مِن التدحرُجِ والهرشِ أَن يَجعلَ الأُمورَ أَفضَل. الطُّيورُ تُحلِقُ فِي السَّماءِ فَوقي. تطيرُ مبتعدةً عن مَشرِقِ الشَّمس؛ طُيورٌ مغرّدةٌ وأسرابٌ مِن البَطِّ والإوَزِّ الزاعِقةِ بطوابيرها الطَّويلَة. وتقلِعُ أنثى الغرابِ في أعقابِ أَسرابِ الطُّيورِ، لَكِنَّنِي أَكثَرُ غضبًا وأقدامي أكثرُ ألَمًا وَأنا أَكثَرُ عطشًا مِن أَنْ أَستَطِيع اللِّحَاق بها. أَستَلقِي تَحت أشجارِ العَرعَر.

تَستَمِرُّ الطُّيُورِ فِي القُدومِ. وتنقضُّ سَحابَةٌ مِن العصافيرِ المُغَردَةِ وتغوصُ جميعًا معًا كما لو أنَّها كائنٌ وَاحِد. وتتبعُها مَجمُوعةٌ من الكراكي الرماديةِ العملاقة طويلَةِ الأَعنَاقِ عاليةِ الصَّوت. يَطِيرُون كُلُّهُم فِي نفسِ الاتِّجاه، ويتحَدّثونَ فِي وَقتٍ واحِدٍ، لكِنَّهُم ينخفضون أقربَ إلى الأَرضِ بينما يَمضون.

رُبَّما تسعى كُلُّ هَذِهِ الطُّيورُ وراءَ شَيءٍ ما. أنهَضُ، وأتسلقُ صَخرةً وأُلقي نظرةً. ثَمَّةَ شريطٌ أخضرُ في الأُفقِ، يومِضُ خلفَهُ شيءٌ أزرق.

أشرَعُ في الرَّكضِ وتَطوي خطواتي الطويلةُ الأَرضَ تَحتي، وَقَد نسيتَ الألمُ فِي أقدامي. كُلُّ مَا أستطيعُ التفكيرَ فِيهِ هُوَ الماءُ. أركضُ بِسُرعَةٍ حتَّى إنني أُفزِعُ عَائِلَةً مِن البُوم، تنفِرُ مِن عشِّها. ويتبعثرُ أرنَبٌ طَويلُ الأذُنَينِ في اتِّجاهٍ ورفيقتُه في الاتِّجاهِ الآخَر. الأَرضُ تُصبِحُ أَكثَرُ طَراوَةً كلَّما اقترَبْت. وأستطيعُ أَن أَشُمَّ روائحَ أشياءَ خضراءَ ناميَةٍ وبُحيرةٍ مَليئَةٍ بِالماءِ.

أندفِعُ إلى البحيرة وأشرَب. الماءُ بَارِدٌ، وَساكِنٌ، وحامِض.

أعبُّ الماءَ بجرعاتٍ كَبِيرة، لاهثًا بِارتِياح. والطِّينُ يهدِّئُ الألَمَ في أقدامي بَعدَ أيَّامٍ من السيرِعلى الأَرضِ الصخريّةِ الوعِرة. أتدحرجُ في الماءِ وأتدحرَجُ، مُغرقًا كُلَّ الحشَراتِ التي تَحُكُّ فِي فرائي. وأركُلُ الماءَ فَقَط لأستمتِعَ بسَماع رَشاشِهِ. وأخيرًا، أخوضُ مُرتَويًا في اتّجاهِ الشَّاطئِ وأهزُّ جَسَدي، ثُمّ أغطسُ تَحتَ المَاءِ وأهزُّهُ مَرةً أُخرى، فَقَط لأنَّني أَستَطيعُ أن أفعَل.

ثَمَّةَ طيورٌ حَولَ البُحيرةِ أَكثَرُ مِمَّا رأَيتُ طوالَ حَياتي. ما تزالُ طُيورُ الكراكي الرماديةُ الضَّخمَةُ التي طارَت إلى هُنا قَبلي تُصدرُ أَصواتَها الصاخبة، وتَرِفُّ بأَجنِحَتِها العَريضَةِ وتقفزُ وتدورُ مِثل جِراءٍ خرجوا للتَوِّ مِن العَرين. وثَمَّة طُيورُ كراكي أَصغَرُ بِأرجُلٍ صَفراءَ طويلَة. وتنحني البجعاتُ البَيضاءُ طويلةُ الأعناقِ، سوداءُ المناقيرِ لِبَعضِها البَعض. ويسبَحُ البَطُّ والإوزُّ مِن كُلِّ لَونٍ فِي دوائِر. بعضُها تحملُ جِراءَها على ظُهورِها. وبعضُها تسبَحُ جراؤُها وراءَها في خطوطٍ مِنَ الزَّغَبِ والزعيق. ولو كان هناكَ ذئبٌ لا يمانعُ أَكْلَ الرّيشِ فَإنَّهُ يَستَطيعُ أَن يَأكُلَ حتَّى الشّبَع. تُجفِّفُ الرّيحُ الدافئةُ فِرائي، وأنظُرُ إلى خَطّ الشَّاطِئ باحِثًا عَن وَجبَة. الأَشياءُ ذَاتُ الحوافرِ تأتي إلى الماءِ عِندَ الغَسَق. وسأكونُ مُستعِدًا لها عندما تجيء.

أختارُبُقعةً حيثُ يوجَدُ الكثيرُمِن طبعاتِ الحوافرِ فِي الطّين. أقبَعُ ساكنًا فِي العُشب الطَّوِيلِ فِي الجِوارِوأنتظِر. وبَينَما تستطيلُ الظِّلال، يأتِي غزالٌ رضيعٌ ابنُ سَنةٍ إلى الماءِ. قرونُهُ قَصِيرةٌ وجسمُهُ خالٍ من النُّدوبِ التي عادَةً ما تُرى على الغزلانِ المُجرّبة. وَهُو حَذِرٌ، وإنما ليسَ بِما يكفِي. أنقضُّ عَليهِ وَأَوجِّهُ الضَّربَة القاتِلةَ قَبلَ أَن يتسنّى لَهُ الوَقتُ ليهرب. يَسقُطُ على حافةِ الماء.

أتوقفُ لحظةً قَبلَ الأَكلِ؛ لَحظَةَ احترامٍ كما عَلَّمني أَبي. هذا أَوّلُ قتلٍ أقومُ بهِ وَحدِي. تلكَ الأشياءُ الصَّغِيرةُ–الأسماكُ، والأفاعي، والراكونات والفئران- لَم تَكُن شيئًا يستحقُّ الاحتفال. أما هَذا القَتْلُ فسوف يكونُ أبي فخُورًا به.

يجبُ أن تكونَ رفيقتي أنثى الغرابِ جائِعَة. لَم نَأكُل مُنذُ أيَّام. أُناديها وأفتَحُ الأحشاء. وتتكشَفُ الأَشياءُ الجَيِّدَةُ في حزمةٍ دافئةٍ يتصاعدُ منها البُخار. آكلُ بِضعَ قضماتٍ وأنادي أنثى الغرابِ مَرةً أُخرى. لقَد قادَتني كلَّ الطريقِ إلى الماءِ عبرَ السهوبِ الجافَّة. سَوفَ أَكُون مسرورًا بِصُحبتِها على اللَّحم. يَبدُو لي أكلي وحيدًا عملاً خاطئًا.

لكنَّ أنثى الغُراب لا تأتي.

أُناديها مرةً أُخرى.

يَنهَضُ سربٌ كامِلٌ مِنَ الغِربانِ مِن العُشبِ بنداءٍ عظيمٍ مُجلجِل. يأتونَ كُلُّهُم إليّ. يلتفّونَ بِأعدَادٍ هائِلَةٍ حَولَ اللَّحم. وأَنا أسعَدُ بالمُشارَكة. آخذُ الأجزاءُ التي هِيَ حِصَّةُ ذِئبٍ وأعكِفُ على مضغِها بَينما يَلتقِطُ الغِربانُ أجزاءَهُم مِن اللَّحم.

أبحثُ عَن رفيقتي أنثى الغُرابِ بَينهُم لكنَّهُم يبدونَ لي كلُّهُم متشابهين. أناديها لكنَّ أحدًا مِنهُم لا يرفَعُ رأسَهُ. أتشمَّمُ الهَواءَ لكِنَّ رائِحَةَ الغِربانِ تَبدُو كُلُّها واحِدَةً بالنِّسبَةِ لي. كانَت لرفيقَتي رُقعَةٌ صَلعاءُ على صَدرِها تُشبِه كثيرًا الشريطَ الأَبيضَ على كَتِفي. أبحَثُ عَنها، وعِندَما أجدُها، أطلِقُ نبحةَ تَرحِيب.

لكنَّها تواصِلُ الأَكلَ والشجارَ مَع قطيعِها كما لَو أنَّني لستُ هُناك؛ كَما لَو أنَّ القَرابَةَ بَينَ ذِئبٍ وَغُرابٍ شَيءٌ مُستَحيل؛ كما لَو أنَّ الأيّامَ التي سافَرنا فِيها معًا لا تَعني أَيَّ شيءٍ على الإطلاق. وعِندَما تستَطيلُ الظّلالُ ويبرُدُ الهَواء، يُقلِع كُلُّ غُرابٍ إلى السَّماءِ دُونَ إلقاءِ نَظرَةٍ إلى الوَراء. يجثمونَ معًا على الجانِبِ الآخَرَ مِن الماءِ، بعيدًا عَنّي. لقد أَصبَحَ لرفيقَتي قطيعُها الآن.

أكلتُ حتَّى الشَّبَع. وثَمَّةَ ماءٌ أَكثَرُ مِمَّا أَستَطِيعُ أَن أَشرَبَ، ومَعَ ذلِكَ لَم أشعُر أبدًا بأنَّني أَكثَرُ خواءً مِن الآن. أعرِفُ، وكنتُ أعرفُ دائِمًا، أَن أنثى الغرابِ لَن تَكُونَ لي رفيقةَ قطِيع. لا يُمكِنُ أَن يَحِلَّ مُجَرَّدُ طائرٍ مَحَلّ وثّابةَ وميّاسةَ، وبالتأكيد لَيس محل حَمِيم. ومَعَ ذلِكَ، قَطعنا رحلةً معًا. وتقاسَمنا اللَّحم. وكانَتْ دَليلي ورَفيقي. لا يَستَطيعُ هديلُ الحَمَامِ النَّاعِم أَو سَجعُ القُمريّ البهيجِ أَن يجلبا لِي السَّلوى. تنداحُ الغُيومُ ذهَبيَّةً وبرتُقاليةً ووردِيةً على صَفحَةِ سَماءٍ لا تَني تزدادُ زُرقةً. ولكنْ، حتَّى هذا الجَمالُ الآسِرُ لا يَستَطيعُ أَن يُنهضَني.

أسئلة الفصل

1. " إِنَّها كُلُّ القَطيعِ الّذي لَدَيَّ الآنَ" تَخْتَصِرُ هذِهِ الجُمْلَةُ مَشاعِرَ سَريعٍ اتِّجاهَ أُنْثى الغُرابِ. وَضِّحْ مراحِلَ تَطوُّرِ هذِهِ العَلاقَةِ حتّى وَصَلَت إلى هذه القوّةِ وهذا الإحساسِ.

2. ما المَوْقِفُ الّذي ظَنَّ سريعٌ أَنَّ أَباهُ سَيَكونُ فَخورًا بِهِ.

3. بِمَ تُفَسِّرُ هَجْرَ أُنثى الغُرابِ لِسَريعٍ وانْضِمامَها إلى قَطيعِ الغِربانِ. هَلْ تُؤَيِّدُ تَصَرُّفَها؟ وما رَأْيُ سَريعٍ في ذلك؟

4. صِفِ الحُزْنَ والخَيْبَةَ الّتي شَعَرَ بِهما سَريعٌ في نِهايَةِ الفَصْلِ.

5. "أَتَوَقَّفُ لَحْظَةَ احْتِرامٍ" لِماذا لَمْ يَتَوَقَّفْ سَريعٌ قَبْلَ تِلْكَ اللَّحْظَةَ في صَيدِهِ السّابِقِ؟

جَبل

أتحوَّلُ مُبتعدًا عَن صديقتي الوَحيدَةِ وأسيرُ على طُولِ شاطئِ البُحَيرة. ينفرِشُ الوَحلُ البارِدُ ناعِمًا تَحتَ أقدامي. أبحَثُ عَن آثارِ ذئبٍ بينَ كلّ طبعاتِ أَقدامِ البَطّ والغزلانِ والقيُّوط. ثَمَّةَ الكثيرُ مِن كُلِّ شَيءٍ هُنا-باستِثناءِ الشَّيءِ الوَحيدِ الذي أُريدُهُ أَكثَرَ مِن الماءِ والغِذاء. لا علامةَ واحدةً على أَنَّ أَيَّ ذِئبٍ قَد عبرَ مِن هَذا الطَّريق. ثَمَّةَ أشياءُ لتُؤكلَ أَكثرَ مِمَّا يمكنُ أَن أُسَمِّيَ، وإنما لا أَحَدَ لِآكُلَها مَعَه.

مَعَ ذلِكَ، لا يُمكِنُ أَن أَكُونَ كئيبًا بِبَطنٍ مُمتلِئةٍ وسماءٍ عامرةٍ بِالنُّجُوم. لَقَد افتقدتُ السَّفَر ليلاً. افتقدتُ لسعةَ البرْدِ الجبليّ. كُنتُ عطشانَ للسُّحبِ والضبابِ والمَطَر. هُنَا على هذه الأَرضِ المُنبسِطةِ حتَّى ضَوءُ القَمَرِ صارمٌ لا حنانَ فيه. واللَّيلَةَ، يتعلَّقُ القَمَرُ فوقي نِصفَ مُمتلِئٍ ويُضِيء عَليَّ دُونَ أَن تقاطِعَهُ سَحابةٌ كلَّ اللَّيلِ.

تنبسِطُ الأَرضُ مِن حَولي في كُلِّ اتِّجاه. وتبدو كُلُّ الأَشياءِ متشابهةً تمامًا. أتوقفُ وأتذوقُ الرّيح. ثمةَ مِياهُ البُحيرةِ والطُّيورُ على جانبٍ ولا شَيءَ سِوى المَريمِيَّةِ في كُلِّ مكَانٍ آخَر. تَجعَلُني نداءاتُ الضَّفَادِعِ المُتَبادلَةُ فِي البُحَيرةِ أرتجِف. جرَّبتُ ضفدَعًا ذاتَ مرّةٍ عندما شجعَني أخي ثاقب على أن أَفعَل. وَكانَ ذلِكَ أَسوأ شيءٍ أكلتُهُ على الإطلاق، كُلُّهُ لُعابٌ مِن الخارجِ وَمَرارةٌ فِي المُنتَصَفِ.

حتَّى ميّاسةُ، التي احتفرَت ذاتَ يَومٍ عِشَّ دبابير، كانَت تعرِفُ أفضَلَ من أكلِ الضَّفادِع، وسخرَت منّي لأيّام. لَنْ آكُلَ أيّ شَيءٍ لَهُ بُقعٌ على جِلدهِ مرةً أُخرى أبدًا.

أينَ في كُلِّ هَذِهِ الأَرضِ يُمكِنُ أَن يَعِيشَ الذِئاب؟ الطعامُ هنا وَفِيرٌ، وَلكِنْ لَا شَيءَ يَبدو لِي مِثلَ وطنٍ في هذه الأنحاء. أتحوَّلُ مُبتعدًا عَن الماءِ. وبحلولِ الوَقتِ الذي تَنهَضُ فيهِ الشَّمسُ، تكُون البحيرةُ قد أصبحت محضَ وميضٍ أزرقَ-فضيٍّ بعيدًا ورائي، وَيلُوح طيفُ جَبَلٍ فِي الأفُقِ. جَبَلٌ وَحِيدٌ، لكنَّني مُنجذِبٌ إليهِ على كُلِّ حالٍ. الأيائلُ تُحِبّ المُنحدَرات. وَإذا كانَ ثَمَّةَ ذِئبٌ فِي أيّ مَكان، فَسَوفَ يَكونُ على جَبَل. أتحَرَّكُ أَسرَعَ الآنَ وَقَد أَصبَحتُ أَرى مَواضِعَ أقدامي بوضوحٍ أكبر. ويصنَعُ ارتِفاعُ الأَرضِ والهواءُ المتموّجُ تغييرًا مُرحَّبًا بِه.

تمتدُّ بِضعُ شرائحَ رَقيقةٍ مِن الثَّلجِ إلى هنا هابطةً مِن القمّةِ، فأعرِفُ أن ثمَّةَ مياهًا هناكَ فَوقي. أَتسَلَّقُ المُرتقى بِخُطًا ثابِتَة. وتُخلي أجماتُ المريميّةِ شاحبةِ الخُضرةِ مكانَها لشجيراتِ العَرعَرِ الأعمقِ خُضرَة. الأَشجَارُ هنا قليلةٌ ومُتباعِدةٌ، وَأَصغَرُ مِن تِلكَ التي عَرَفتُها بينما كنتُ أكبُر. وَهِيَ لا تُخفِي أيَّ شَيءٍ يَصلُحُ لِلأَكل. أَستَطيعُ أَن أَشُمَّ رائحةَ سناجبِ الغَرير آتيةً مِن مكانٍ ما فِي المنحدراتِ والحقولِ الصخريةِ أَمامي. لدَيها منَ الحِسِّ السَّلِيمِ ما يجعلُها تَثبُتُ ساكنةً حتَّى لا أتمكنَ مِن رُؤيتِها، على عَكسِ سناجبِ السهلِ التي لَيسَ لَدَيهَا أَيُّ حِسٍّ مِن أَيّ نَوعٍ وتندَفِعُ خارِجَةً مِن مخابئِها دونَ أن تتكلَّفَ عناءَ النَّظَر لاتّقاءِ الخَطر. وهيَ لا تَستَحِقُّ عَناءَ الصَّيد؛ مجَّردُ لُقمةٍ مَن الشَّرائِطِ والصَّرير، هَذا هُوَ كُلُّ مَا تَحصُلُ عَليهِ. حَتَّى الدِّببَة، الذينَ يَأكُلونَ كُلَّ شَيءٍ تَحتَ الشَّمس، بِما فِي ذلِكَ العث، بالكادِ يتكلَّفونَ العَناء مَع سِنجابِ أَرض.

بَينَما أرتقي المرتفَع، تُفسِحُ الأَشجارُ الطَّرِيقَ لمروج مَفتُوحَةٍ فيها كُلُّ نَوعٍ مِن الزُّهورِ فِي العالَم. أسيرُ متعرِّجًا عبرَ كُلِّ أَخضَرَ وَأَصفَرَ وبرتقاليٍّ وأزرَقَ فِيه، وَأَقُول لِنَفسِي إنَّنِي أبحَثُ عَن عَلامَةٍ لغَزال أَو أيّلٍ لآكُلَ، لكنَّني مَا أزال ممتلئَ البطنِ مِن الأَمسِ. ما أُريدُهُ حقًا هُو رائحةٌ أو أثرٌ أو خصلةُ فِراءٍ لذئب.

هَذَا جَبَل. جَبَل! ينبغي أَن تكُونَ الذئابُ هنا.

أركُضُ لأيامٍ وأيام. أصبحَ القَمَرُ السّمينُ نحيلاً وها هوَ يعودُ سمينًا مَرَّةً أُخرَى، لكنّني لم أرَ مُنذُ أَن عبرتُ النَّهرَ الأَسوَد أثرًا لذئبٍ قَطّ؛ لَا طبعةَ مِخلَبٍ، ولا عَلامةً لرائِحَة. كَان لَدَيّ إخوَةٌ وَأَخَواتٌ؛ قطيعٌ كَامِل. وَلَم يخطُر ببالي أبدًا أَنَّ العالَمَ يُمكِنُ أَن يَكُونَ كبيرًا هكذا، أَو أَنَّني يُمكِنُ أَن أَكونَ وحيدًا فِيه. أَتذكرُ الذئبةَ على ضفةِ النَّهرِ الأَسوَد، تِلكَ التي جعلتُها تَبتَعِد. لَستُ نادمًا على إنقاذي إياها مِن السَّحقِ تحتَ صانعةِ صخَب. كنتُ أُريدُها أَن تَعِيش. لَكِنَّني لَم أرِد أبدًا أَن أَكونَ وَحدي. ينبغي أَن تكُونَ هُناكَ ذِئابٌ فِي مكَانٍ ما. لَو أَنَّني أَعرِفُ فَقَط إلى أَيّ طَرِيقٍ أتحوَّل.

أتوقفُ على قِمَّةِ تلٍّ فِي مُنتَصَفِ النَّهَار. أجدُ بقعةً مَحميةً بَينَ الصُّخُورِ حَيثُ تغطيني الأَعشَابُ الطَّويلَة. يُحلِّقُ زَوجٌ مِن النُّسُورِ جِينَةً وذهابًا على كتفِ الهَواء الصَّاعِد. تُهدهِدُني هَمهَمَةُ النَّحلِ النَّاعِس وترسلُني إلى النَّوم. وَفِي حلُمي،

أَسمَعُ صَوتَ حَوافِرِ تَضرِبُ الأَرض بعيدًا. فِي حلُمي، تركضُ الأيائلُ نَحوي؛ أيَائِلُ أَكثَرُ مِمَّا يمكنُ أن آكُلَ أبدًا، وَالذِّئابُ تُلاحِقُها على الأَعقاب. تقتربُ أَكثَر فَأكثَر، وعِندَما تُصبِحُ قَريبَةً حتى أكادُ ألمسُها، أستيقِظُ ذاهلاً-وحدِي على قِمَّةِ تَلّةٍ عَاريةٍ عَاصِفَة.

كانُوا قَريبينَ جدًا! أنبحُ نداءً متفائلاً، حتَّى مع أنَّني أَعرِفُ أَنَّهُ كانَ مُجَرَّدَ حُلُم. لكنَّ الصدى يعودُ إليَّ ليغيظَني. يهبِطُ رأسِي على الأَرضِ. كَيفَ يُمكِنُ أَن يكُونَ هُناكَ كُلُّ هَذا القَدرِ مِن الأَرضِ ولا ذِئاب؟ أطلِقُ تنهيدةً ثُمّ... أَشعَرُ بأَنَّ الأَرضَ تَرتَعِش.

استَمعُ وأتشمم حَولي، وَلكِنْ مَا مِن إلماحَةٍ إلى وُجُودِ الأيائل. أُبقي رقَبتي وذَقني مُنضغِطَينِ على الصَّخرِ. تَرتَعِش الأَرضُ كما يحدُثُ عِندَما تتنقَّلُ الأيائل. أنا لا أَحلُم. تتزايَدُ الارتعاشاتُ في جِلدِ الأَرض. مَا مِن رائحةٍ لأيائل. بَعدَ فَترةٍ مِن الوقتِ، أَسمَعُ دقاتِ الحَوافرِ قادمةً مِن الجَبَل. ثمةَ خطأٌ في الدقّات. هُناكَ شَيءٌ ما فِي الإيقاعِ. أنهضُ على أقدامي، لكنَّني أَبقى مُنخفِضًا ومُستعدًا للجَري، فِي حَالِ حدثت مُشكِلَة.

أستَمِعُ إلى النِّداءاتِ العالِيةِ التي تُطلقُها الأيائلُ عِندَما ترتحِل، لَكِنَّ كُلَّ مَا أستطيعُ سَمَاعَهُ هُو همهماتٌ وشخيرٌ مُنخَفِض. غَريبٌ جدًا. مَهما تكُن هَذِه الكائِناتُ، فإنَّ هُناك الكثيرَ مِنها. أَرى سَحَابَةَ الغُبارِ التي يصنعونَها أولاً، ثُمّ يبرُزونَ فَوقَ المُرتفَع-خيول!

الخُيُول والبشَرُ رِفاقٌ قَطِيع؛ دائمًا مَا كانوا يجيئونَ إلى جبالِنا معًا. كانوا يأخُذونَ الطَّعَامَ مِن بَعضِهِمُ البَعض. أنظُرُ وأشُمُّ باحثًا عَن البشَر. تِلكَ المصيدةُ المُعتادَةُ التي تُلصِقُ الرَّجُلَ بظَهرِ الحِصَانِ ليسَت هُنا. الحِصَانُ القَائِدُ أَكثَرُ سُمنةً مِن البَقِيَّةِ، وَالحِصَانُ فِي المُؤخَّرةِ هُو الأَطوَل. وعِندَما يَصِلونَ إلى المَرجِ المَفتُوحِ أسفلَ مِنّي، يُبطِئونَ الرَّكض إلى مشيٍ ويتوقفونَ ليرعَوا. يعضُّ أَصغَرُ اثنَين كلٌّ رَقَبَةَ الآخَرِ ويتسابقانِ حَولَ الآخَرين. يَسِيرُ الحِصَان الطَّوِيلُ

حَول حافَةِ المرج. يتشمَّم الرّيحَ باحثًا عَمَّا إذَا كانَت المتاعِبُ في الجوار. يُراقِب عَن كَثَبٍ مصارعةَ الصغيرَين، وعِندَما يقتربانِ من المُنحَدَرِ السحيقِ عِندَ أَحَدِ طرفَي المَرج، يدفَعَهُما بعيدًا عَن الخَطرِ ويُنهي قِتالَهُما بعضّةٍ واحِدَةٍ فِي المَكانِ المناسِب. إنَّهُ والِدُ القَطيع. مِنَ السَّهلِ رُؤيَةُ ذلِكَ.

جَمِيعُ الخُيُولِ لَها لَونُ القيّوطِ مَعَ غُرَرٍ وذيولٍ وسيقان سَوداء، وشرائطَ طويلةٍ من الشَّعرِ تمتدُّ على طولِ الظَّهر. تدورُ رئيسةُ المَجمُوعَةِ، الأَكثَرُ بَدانةً مِن الجَميعِ، حَولَ المَرجِ حتَّى تَجِدَ بُقعَةً يكسوها الثلجُ فِي ظِلِّ صَخرةٍ ناتِئة. تُحرِّرُ بِأَقدَامِها قطعًا صغيرةً وتقضُم شُربةً مِن الثَّلجِ، ثُمَّ تَعودُ إلى السَّيرِ فِي دَوائِرَ بِسُرعَةٍ مُتناقِصة.

ثمةَ شَيءٌ غَريبٌ فِي رائحَةِ الفَرَسِ القائدة. تُشبِهُ تقريبًا رائحةَ الأحمرِ الذي يَسِيلُ مِن الأيّلِ عِندَما تَقتُلُه. لكنّها ليستْ مثلَها تمامًا. من المؤكدِ أنَّني لَم أَشُمَّ مِثلَ هَذا مِن قبْل. والأبُ يستطيعُ أَن يشمَّهُ أيضًا. يُدوِّرُ شفتَهُ العُليا ويتنشَّقُ. يتَحَرَّكُ مُقتربًا مِن الفرسِ القائدةِ ويتحَدَّثُ إليها بِلُطف. يُلامسُها بِأنفِهِ ويسمحُ لَها بِأَن تَستَريحَ على كَتِفِهِ. لا أَستَطِيعُ أَن أُبعِدَ أنظاري عَن حنانِهما. يَذكِّرُني بحميم وبأيامِنا معًا فِي العَرين. أقفُ ساكنًا تمامًا فِي العُشب الطَّوِيل وأشاهِد.

تَزدَادُ الرَّائِحَةُ التي لا أَستَطيعُ تخمينَها قُوَّة. إنها رَائِحَةٌ بريّة، رائِحَةٌ حَادَّة، وثَمَّةَ شَيءٌ بِشَأنِها يجعَلُني جائعًا. تصبِحُ مشيةُ الفَرَسِ البدينةِ أبطأ وأبطأ. تَستَلقي على العُشب ثُمّ تنهَض. تَستَلقي مرةً أُخرى ويقفُ الأَبُ حارسًا فَوقَها. تَأتِي الخُيولُ الأُخرى واحدًا تِلوَ الآخَرِ وتتلامَسُ مَعَها بالأنوف. ثَمَّةَ شيءٌ ما يَحدُثُ هُنا.

ثَمَّةَ شَيءٌ يَحدُثُ هُنا بالتأكيد، وقَد يَكونُ شيئًا لَذيذًا. أجلِسُ على ذَيلي وأنتَظِر.

يُطلِقُ الأَبُ نخراتٍ مُشجِّعَة. وَبعدَ فَترةٍ مِن الوقتِ والأُمُّ تلِدُ هَذا الحِصَانَ الصَّغِيرَ مُباشَـرةً فِي مُنتَصَفِ عائلتِها-لا عَرِين، لَا جُحر. لَا شَيءَ. كُلُّ عائلتِها مَوجُودونَ هُنَاك، يشاهدونَها وَيَتَحَدّثُون إلَيها، ويلمسُونَها أنفًا لِأَنف.

أسئلة الفصل

1. عَمَّ كانَ سَريعٌ يبْحَثُ بالتَّحديدِ في هذا الفَصْلِ مِنَ الرِّوايَةِ. وَلِمَ كانَ مُتَحَمِّسًا لِصُعودِ الجَبَلِ؟

2. ما الشَّيءُ الّذي حالَ دونَ فَرَحِ سريعٍ بِتَوَفُّرِ الطّعامِ والشَّرابِ؟ هَلْ تَسْتَمْتِعُ بِتَناولِ الطَّعامِ حينَ تَكونُ وَحيدًا؟

3. ما الأفكارُ الّتي يَحْمِلُها سَريعٌ عَنِ الخُيولِ وَعَلاقَتِها بِالبَشَرِ؟ وَكَيْفَ كانَتْ نَظْرَتُهُ لِقَطيعِ الخُيولِ؟

4. في هذا الفَصْلِ عاشَ سريعٌ تَجْرِبَةً جَديدَةً، مَا هِيَ؟

صَيْد

تُقرقِرُ معدَتي بحسٍّ مِن التوقُّع. الجِراءُ لَذِيذَة. الجَمِيعُ يعرفونَ ذلِكَ. عِندَما كُنتُ أَتَعلَّمُ الصَّيد، أوضَحَ لِي هادِرٌ كيفَ أُسقِطُ جَروَ غَزال، فَقَط فِي حَالِ كنتُ أصطادُ وَحدي وبِسَاقٍ عَرجاءَ مِثلَه. وكانَ الجروُ حلوًا رقيقًا، عِظَامُهُ سَهلَةُ الكَسر، والأجزاءُ اللَّذيذَةُ داخلَ العِظَامِ طازجةٌ وَأَكثَرُ عُذوبَةً مِن أَيِّ شَيءٍ سَبقَ وأن أكلتُهُ مِن قبْل.

تمنحُ الفرَسُ الأُمّ جروَها لعقاتٍ طويلَةٍ بَطيئَة، وَتَأكُلُ كِيسَ الجِلدِ الذي وُلِدَ فِيه بَينَما تفعَل. وَيَرفَعُ الأَبُ رأسَهُ ويُطلِقُ نِدَاءً مليئًا بالانتصارِ الذي يعنيهِ قُدومُ حَياةٍ جَديدَة. يجعَلُني شَيءٌ فِي صَوتِهِ أرتجِفُ مِن الرَّهبَة. يركضُ قافزًا فِي دائرةٍ واسِعَةٍ حَولَ المَرج، هازًّا غُرَّتَهُ النّاعمَةَ على كَتِفَيهِ العريضَين. أنظُرُ جيّدًا إلى تِلكَ الحوافرِ وأتذكرُ ذَلِك الأيّلَ الذي كَاد يقتلُني. ويتردَّدُ صدى صَوتُ عِظامِي وَهِي تنكسِرُ واضِحًا فِي ذاكرتي. يؤلِمُني كَتِفي لدَى التفكيرِ فِيهِ، وألعقُ العلامةَ البَيضاءَ على جِلدي.

لَيسَ والدُ الخُيُولِ هَذا طويلاً مِثل أيّلٍ لكِنَّهُ بِنفسِ العَرضِ والقُوة. ويُضيءُ مِعطفُهُ الذَّهَبيُّ المائِلُ إلى البُنّي فِي ضَوءِ شمسِ العَصر الكابي. ركلةٌ واحدَةٌ مِنهُ، وَقد لا أتمكَّنُ مِن السيرِ مَرةً أُخرى. لا أُريدُ مُشاجَرةً مَعَه.
تأتي بَقِيَّةُ الخُيول إلى الحصانِ الوَليد. يلامسونَهُ بالأَنفِ ويُحادِثونَه. يحكُّونَ

بِلُطفٍ رَقبَةَ الأُمّ وجوانِبها التي تنضَحُ العَرَق. يحثُّونَها على الوُقوف. يتجوَّلونَ حَولَها، ولا يدوسونَ أبدًا على الصَّغيرِ الراقِدِ ليجِفَّ على الأَرض.

إنّهُم حَريصُونَ ولَطيفون–قطيعٌ، مِثلَ قَطيعي. ينظُرُ الأَبُ إلى عائلتِهِ وينخُر بِفَخر.

أُرِيدُ هَذَا. ليسَ مُجَرَّدَ أيِّ قطيعٍ يقبَلُني. أُريدُ أَن أقودَ قَطيعًا. كُنتُ أريدُ دائمًا أَنْ أَكونَ رئيسًا لثاقِب، فَقَط لأُثبِتَ أَن كونَكَ الأسرعَ يهمُّ أَكثرَ بكثيرٍ مِن كونِكَ الأضخَم. أردتُ دائِمًا أَن أَعتَنيَ بحميمٍ وأن أصطادَ لَه وأُبقيَه آمِنًا.

لَكِنَّ هَذا أَكثَرُ من ذلكَ. أَكثَرُ بِكثير. أُريدُ أرضًا تكونُ لي وَطَنًا. أُرِيدُ أَن أَضَعَ عَلاماتٍ

رطبَةٍ على مَكانٍ يخصُّني، مَكانٍ جَيّدٍ مليءٍ بالأَشجارِ والأيائل. أُريدُ ثلجًا ومطَرًا ومدىً متسعًا أركضُ فِيه حُرًّا.

وسَوفَ أَجِدُهُ حتَّى لَو اضطُرِرتُ إلى التَّرحال حَتَّى تنهمِرَ الثلوج. لَن أتوقفَ أبدًا عَن البَحث.

يَجعَلُني التَّفكِيرُ فِي العُثورِ على أَرضِي الخاصَّةِ وإنشاءِ عائلَتي أَرغَبُ فِي أَنْ أعويَ، وأن أرسِلَ ندائي عاليًا إلى القَمَرِ حَتّى لَو كُنتُ الذِّئبَ الوَحيدَ الذي يَعوِي.

ولكنْ ليسَ هَذا وقتًا للعواء. ينبَغي أن أمضي قدُمًا. يَجِبُ أَن أَترُكَ الخُيولَ في سَلام. هبطتِ الشمْسُ ولامسَت خَطَّ الأفُق، ولذلكَ أستعينُ بآخِرِ الضوءِ كي أختارَ طريقًا بَعيدًا عَن الجَبَل لا يعبُرُ أرضَ الخُيول. وأكونُ على وشَك المسيرِ عِندَما أَسمَعُ صَخرةً تَتدَحرَجُ وَرائي هابِطَةً التلّ. أَقِفُ سريعًا وممتلئًا بالتوقُّع. لَم أشُمُّ رائِحَةَ أَحَدٍ قادمًا. لَم أَسمَع أحدًا. ويُمكِنُ أَن يعنيَ هذا شيئًا واحدًا–ثمةَ صَيَّادٌ قَريب. أَمسَحُ بعينيَّ حَقلَ الصُّخُور وَرائي وأجِدُهُ. إنّهُ أَسَدُ الجَبَل. سَارِقُ الجِراء!

كان تَحذيرُ الأُمِّ الأَوَّلُ لنا مِن أسدِ الجَبَل. أخذَتنا إلى خَطّ مَن آثَارِ أَسَدِ الجَبَلِ في الغابَةِ. وحَفِظنا شكلَ طَبعاتِ أقدَامِهِ وَرائِحَتَه. ووصفَت لنا الأُمّ لَونَ فِرائِهِ وَعلاماتِ وَجهِه.

«إنه الصَّيادُ الصامِت»، قالَت الأُمّ. «إنه يتسَلَّقُ الأَشجار. وَهُويُهاجِم مِنَ الخَلفِ، ودائمًا-دائمًا-يَسرِقُ الصِّغار. حذار!»

أَنظرُ مِن فَوقِ كَتِفي إلى الخُيُولِ في المَرج. إنَّهُم يَستَعِدُّونَ لِقَضاءِ اللَّيل، ملتفِّينَ بدفءِ الجِرو الجَدِيدِ ودفءِ بَعضِهِمُ البَعض. وحتَّى الأَبُ يبدو مُرهقًا وقد أراحَ رأسَهُ على الأرضِ ليستَريح. وليسَ لدَيهِم غِربانٌ يطلِقونَ صيحةَ إنذار.

أَتحقَّقُ مِن طَريقِ هروبي. لستُ جروًا صغيرًا يُمكِنُ أَن يُسرَق فِي اللَّيلِ.

الحِصَانُ الجَدِيدُ هُوَ ما يُريدُهُ أَسَدُ الجَبل. يَجِبُ أَن أبتَعِد. لَكِنَّ الخُيولَ ليسوا مَخلوقاتٍ مُتسلِّلةٍ انعزاليّة. إنَّهُم لَيسُوا آكِلي عُشبٍ بلا عقولٍ مِثلَ الخِراف. إنَّهُم قَطِيع. أستطيعُ أَن أُحَذرَهُم. ينبغي أن أفعَل.

أَسَدُ الجَبلِ أَكبَرُ حجمًا مِنّي. يُمكِنُهُ أَن يَقفِزَ فيعبُرَ الأَنهَارَ التي عليَّ أن أعبرَها سِباحَة؛ أنْ يصعَدَ إلى أعالي الأشجارِ مثلَ الطّيور. لَو أنّ لديَّ قطيعًا إلى جانِبي، لما كنتُ سأخافُه لَحظةً، لكِنَّني وحدي مَع أَسَدِ جبلٍ ماكِر. يتقدّمُ مُقترِبًا من نِطاقي. فِي لحظَةٍ سوفَ تفضَحُني رائِحتي. وأتخِذُ قراري.

أُطلِقُ عواءً حادًّا واحِدًا. هذا هو كُلُّ التَّحذِيرِ الذي يُمكِنُني ادّخارُه. أنطلقُ هابطًا مِن قمَّةِ التَلّ. صحيحٌ أنّني سريع، لكِنَّ أسَدَ الجَبلِ أَسرَعُ فِي المدى القصِير. أطلِقُ سُرعَتي إلى أَقصاها وأسلكُ الطَّريقَ الأشدَّ انحدارًا الذي يُمكِنُني العثورُ عَليهِ.

ينهضُ الحصانُ الأبُ فِي لحظَةٍ واحِدة ويطلقُ نداءً مُجيبًا. يضرِبُ الأَرضَ بحوافِره. والقطيع كُلُّهُ يستَجيب. أَسمَعُهُم يركضُونَ حولَ الحِصانِ الصَّغير. يُوصِلونَ صيحاتِهم المُهدِّدَةَ إلى أَسدِ الجَبل، وتتجمعُ أَصواتُهُم معًا في ما يُشبِهُ العُواء. لا أَسمَعُ صَيحَةَ مَوتِ جَرو مَسرُوق. لقد تركَ أَسَدُ الجَبلِ الخُيولَ لشأنِها.

لا بُدَّ أنّهُ يجِدُّ فِي إثري الآن. أركضُ فِي مسارٍ مُتَعرِّجٍ وأَنا أَنظُرُ من فوقِ كَتِفي. يستَطيعُ أَسَدُ الجَبلِ أَن يَركُضَ بِصَمتِ ظِلّ. لَن أسمعَهُ قادِمًا أبدًا. أَنا مُستَعدٌ لِلقِتال لو كانَ الأمرُ يتعلَّقُ بِالأسنانِ والمَخالب. أقفِزُ من فوقِ الصُّخُور. أصبَحَتِ الخيولُ بعيدَةً خلفي الآن، ولم أعُد أَستطيعُ حتّى أن أَشُمَّ رائحتَها. أَضَعُ كُلَّ أَمَلي في السُّرعَة. تخفقُ أقدامي هابِطةً الجَبَل، مُباشرةً إلى أَسفل. أبقى في الأرضِ المفتوحةِ حتى لا يأخُذَني بقفزةٍ مِن حافةٍ ناتِئة. لا أشُمُّ رائحَةَ أَسَدِ الجَبَلِ في أعقابي، لكِنَّني لا أُبطِئُ سُرعتي. أركضُ بِكُلّ طاقتي عابرًا خَطَّ الأشجار، خلالَ غَيْضات العَرعَرِ وأجماتِ المريَمِيَّة.

أَعودُ مرةً أُخرى إلى الأَرضِ المُنبسِطةِ وأواصِلُ الرَّكض. يَنُوسُ ضَوءُ

النَّهارِ الأخِيرُ ذَهبيًّا على جُذُوعِ الحُورِ البَيضاء. أنحَرِفُ إلى جَانِبٍ وأنظرُ ورائي وأنا ما أزالُ أجري. لا شَيءَ يتحرَّكُ في الشَّفَقِ المسائيّ. والهَواءُ المُحِيطُ بِي نظيفٌ كُلُّهُ مِن رائحَةِ أسدِ الجَبَل. لو كانَت رفيقَتي أنثى الغُرابِ معي، لكانَت ستدقُّ ناقوسَ الخَطَر. الآنَ لا أحدَ سِوايَ أعتَمِدُ عَلَيهِ. أَضَعُ إيمانِي في قُدرةِ التَّحَمُّل. أسودُ الجَبَلِ سريعَةٌ، ولكنْ لَا أَحَدَ يستطيعُ التَّحَمُّلَ مِثلَ ذِئب. أصنعُ مسافةً بَيني وبَينَ المتاعِب. ويكونُ الظَّلامُ قَد حَلَّ تمامًا عِندَما أُبطِئُ ركضي إلى الهَروَلَةِ ثُمَّ المَشي.

كانَ الحَظُّ إلى جانبي هذهِ المَرة، لكِنَّني لَن أُجرِّبَ هَذِه الخُدعة مَرةً أُخرى. ليسَ مِن أَجلِ قَطيعٍ ليسَ لِي. أواصلُ المشيَ طوالَ اللَّيلِ وحيدًا مرةً أُخرى، وإنَّما مُمتنًّا لكوني على قَيدِ الحَياةِ.

أسئلة الفصل

1. ما الصِّفاتُ الّتي شَدَّتِ انْتِباهَ سَريعٍ في قَطيعِ الخُيولِ حَتّى يَقولَ: "إِنَّهُم قَطيعٌ مِثْلُ قَطيعي"؟

2. كَيْفَ عَلَّمَتِ الذِّئْبَةُ الأُمُّ صِغارَها الحَذَرَ مِنْ أُسودِ الجِبالِ؟

3. اِقْرأِ الفِقْرَةَ الّتي عَبّرَ فيها سَريعٌ عَنْ أُمْنياتِهِ قِراءَةً مُعبِّرةً، مُسْتَحْضِرًا كُلَّ مَشاعِرِ سَريعٍ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ.

4. سَجَّلَ سَريعٌ في هذا الفَصْلِ مَوْقِفًا بُطولِيًّا تِجاهَ قَطيعِ الخُيولِ، ما هُوَ هذا المَوقِفُ؟ ما رَأْيُكَ فيهِ؟

5. خُتِمَ الفَصْلُ بِعِبارَةِ سريعٍ "لَنْ أُجَرِّبَ هذِهِ الخُدْعَةَ مَرَّةً أُخرى، لَيْسَ مِنْ أَجْلِ قَطيعٍ لَيْسَ لي"
   - ما الخُدْعَةُ الّتي لَنْ يُجَرِّبَها سَريعٌ؟
   - ما المَشاعِرُ الّتي تَغْلِبُ عَلَيْهِ في هذِهِ العِبارَةِ؟

أَثَر

يرتفِعُ نَجمُ الذِّئابِ وَرائي. أَستَديرُ وَأنظُر خلفي. وأواصِلُ النَّظَرَ حتّى تخفُتَ النُّجومُ ويومضَ الأفُقُ بالذهَبي. أستطيعُ أَن أَذهَبَ إلى أرضِ الوَطَنِ. أَستَطيعُ أَن أتعقَّبَ آثارَ خطواتي. أَستَطيعُ أَن اتْبَعَ علاماتِ رائحَتي؛ أن أتشجعَ وأعبُرَ النَّهرَ الأَسوَدَ وأعودَ إلى الجِبالِ التِي أحِبُّها والأيائِلِ التي أحتاجُها. ينشطُ النّسيمُ. وفي العُشبِ الطَّويلِ حَولِي، تتَشبَّثُ طيورٌ صفراءُ صغيرةٌ بسيقانِ العُشبِ التي تتأرجَحُ وتنحَني. تُغرِّدُ وتصفرُ وتسجَعُ معًا، مِثل عُواءِ قَطِيع. ما أزالُ أسمَعُ عُواءَ قطِيعي في أَحلامِي. أتذكَّرُ ذلكَ الشُّعورَ عِندَما كنتُ أَرفَعُ رأسي وأشرعُ في الغِناءِ. كانَت أمواجُ الصَّوتِ تغسِلُني مِثلَ الماءِ. وأتذكَّرُ ذلك الشُّعُور عندَما ينتَهي العُوَاء: لا شيءَ في العالَمِ لا نستطيعُ أن نفعلَهُ معًا.

لكنَّ قَطِيعي ذَهَب. وإذا عُدْتُ إلى الجِبالِ، فسيتعينُ عليَّ أَن أَشُقَّ طَريقي بالقِتالِ إلى قطيعِ الذِّئابِ الشَّاحِبة. وَقد أصبحتُ أكثرُ نحولاً مِن السَّابِقِ. والآن بعدَ أن تعافى كَتِفي أصبحتُ أسرعَ مِن أَيِّ وقتٍ مضَى. لكنَّني لَم أكُن أثقَلَ واحدٍ في القطيعِ عِندَما غادَرْت. أستَدِيرُ مُبتعدًا عَن موضِعِ شرُوقِ الشَّمس. العَودَةُ ليسَتْ جوابًا لذئبٍ مِثلي.

أَسمَعُ خريرَ الماءِ في نَبْعٍ وأتعقَّبُ الصَّوتَ إلى حَيثُ يتدَفَّقُ خارجًا مِن الصُّخور. أعبُّ الماءَ البارِدَ ثُمَّ أَتبَعُ الجدولَ حتّى يتحوّلَ إلى مَجرىً أَكبَر. سَوف

يأتي شَيءٌ صالحٌ للأكلِ لِيشرَب. ما عليَّ سِوى الانتِظار. تمتَلِئُ الضّفَّةُ بالآثارِ المتقاطعةِ لأقدامِ الفِئران. أشرَبُ مَرةً أُخرى ثُمَّ أبحَثُ عَن غِطاءٍ لأستريحَ تحتَه. أَجِدُ شُجَيرةً وبُقعَةً مِن الظلّ. صَوتُ الماء يهدِهِدُني. سَوف أغفو في حرّ النهارِ ثُمَّ آكلُ عِندَما تأتي الغِزلانُ لتشربَ عِندَ الغروب. أمطِّطُ سيقاني المنهكةَ وأتثاءَب. وفي ذلكَ الشَّهيقِ مِن النّفَسِ ألتقِطُ مَذاقًا خافتًا جدًّا لـ... هل يُمكِنُ أَن يكُونَ؟

أرفَعُ أنفي في الهَواءِ، لكِنَّ هذه الرائحة تأتي مِن الأرضِ. أَثَر. أَثَرُ ذِئب! وأنا أَعرِفُهُ! أقفزُ في دائِرةٍ مِثلَ جَروٍ ثُمَّ أَتبَعُهُ وأنفي في التُّرابِ وَقد نسيتُ تعبي كُلَّه. يقودُني العبَقُ إلى المَصبّ. وفي الوَحلِ أَجِدُها، طَبعةَ قدَمٍ مِثاليَّةٍ بنقاطِ المخالبِ، والإصبعِ الكبيرِ ووِسادَةٍ كبيرةٍ مِثلَ وِسادَتي. أتنشَّقُ رائِحَةَ مواقعِ الأقدام. ثَمَّةَ شَيءٌ مَألُوفٌ فيها. وقتٌ طويلٌ مضى مُنذُ أن كُنتُ مَعَ ذِئبٍ آخَر. أتنشَّقُ بِعُمق وأُغمِضُ عينَيَّ لأتذكَّر. إنَّها أُنثى. ليست من أخواتي، وَليست أُمِّي، لكِنَّني شَمَمتُ هَذِهِ الذّئبَةَ مِن قَبْل. هل يُمكِنُ أَن تَكُونَ الذّئبَةَ الغَريبَةَ على الضفةِ البَعِيدةِ لِلنَّهرِ الأَسوَد؟ هَل وجدَتْ طريقةً لتعبُرَه؟

هل كانَت تبحَثُ عنّي كُلَّ هذا الوَقتِ؟

كان هاجِسي الأَوَّلُ هُوَ أن أتعَقَّبَ أثرَها. هذهِ العلاماتُ جَديدَة. يُمكِنُني أَن أَجِدَها. تصعَدُ فيَّ الرَّغبَةُ في الرَّكض، لكنَّني أتوقّف. أُلقي نظرةً أُخرى فاحِصةً على طبعاتِ أقدامِ الذّئبةِ الغريبَةِ وطبعةِ مخلَبي بِجانبِها. إنَّها ليسَت صَغيرة. بل إنَّها قَد تكونُ أَكبَرَ مِنّي. أختي وثّابةُ كانَت كذلِك. أنظرُ وأشمُّ باحثًا عن رائحَةِ الذّئابِ الأُخرى في قطيعِها. أذرَعُ المِنطقةَ كُلَّها في مساراتٍ مُتشابِكةٍ حتّى أتأكَّد. هُناكَ فقَط طَبعاتُ أَقدامِ هذهِ الذّئبةِ وَحدَها. ثمةَ رائحَةٌ

واحِـدةٌ فقَـط. إذا نَجَت هـذِهِ الذّئبـةُ بمُفردِها في هـذهِ البرّيَّة، فإنّها تكونُ أكثَر صَلَابَةً مِن كُلِّ شـقيقاتي مُجتَمِعَات. سـيترتَّبُ عليَّ أَن أكسَـبَ احترامَها.

«الذئبُ القائِدُ يُطعِمُ قطيعَهُ»، قَالَت الأُمُّ دائمًا. «لا شَيءَ آخَرَ يَهُمّ».

كُلُّ ما عَليَّ فعلُهُ هو أَن أُعِدَّ وليمةً لها. سـوفَ أحدِثُ قتلاً–وَيا لَهُ مِن قَتْل. سَأفتحُ الجِلدَ وَأَنشُرُ قِطعًا مُختَارةً من اللَّحمِ حولَ الجُثَّة. وسـتأتي النُّسُـور. ثُمَّ الصقورُ والغِربان. سيعلِنونَ عَن مأثرَتي وسـتأتي الذئبـةُ راكضَة. سَتُحني رأسَها لي وتتوسـلُ مِن أَجلِ حصَّة. نعَم! أَسـتطيعُ أَن أَرى هذا. بل إنَّني أَسـتطيعُ أَن أشـعُرَ بمذاقِهِ مُسبقًا.

لكِنَّ هذا سيتطلَّبُ الصَّبر. لقد تَعَلَّمتُ هذا في رِحلَتي. الذئب المتعَب أحمق. يَجِبُ أَن أَسـتريحَ أَو أنّني سأرتكبُ أخطاء أندَمُ عليها. سـوفَ تأتيني وجبَةٌ إذا انتظرتُ بجانِب الماء.

أسـتديرُ عائدًا إلى مخبئي وأسـتلقي في الظِلّ. أسـتيقِظُ مَرةً أُخرى وآخُذُ حمّامًا سـريعًا منَ التُّراب. أغمِسُ وجهي تحتَ الماءِ وأسمَحُ للتيار بِأن يُزيلَ عنّي وعثاءَ السَّـفر. يجبُ أَن أبدوَ مثلَ ذِئبٍ قائدٍ عندَما أقابلُها.

تحلِّقُ طُيـورٌ صغيرةٌ، صَفراءُ، مسـفوعَةٌ ورماديّةٌ على طولِ مَجرَى الجدولِ وتصطادُ الذُّبابَ بينَما أَسـتريح. وتقفزُ سمَكَةٌ مُرقَّطةٌ خارجَةً مِن الماءِ. تنتَصِبُ أذُنايَ في مُنتصَفِ النَّهارِ عِندَما أَسمَعُ صوتَ أقدامِ الغزلانِ وهي تشُقُّ طريقَها بحذَرٍ إلى الماءِ. تجتاحُني الرغبةُ في الصَّيدِ وتتسارَعُ دقّاتِ قلبي. أَنا أقوى الآنَ مِمَّا كنتُ في أَيِّ وقتٍ مَضى.

نَوعٌ جَديدٌ مِن الغزلانِ يأتي إلى الجَدولِ ليشرَب. ثمَّةَ الكثيرُ مِنها. وهي صغيرةٌ داكِنةٌ ببُطونٍ بيضاءَ ووُجوهٍ عريضَةٍ مُخَطَّطة. قُرونُها قَصيرةٌ سـوداء. رُبَّما لم أَجِد ذئابًا أُخرى في السابِقِ لأنَّني كُنتُ أصطادُ حيواناتٍ صغيرةً بِسَببِ الحاجَةِ، وَليسَ الغزلانَ والأيائلَ كما ينبغي لذِئب.

سـوفَ أقتلُ هذا الغزالَ أسـودَ القرنَين. هذا ما كان أبي يريدُني أن أفعلَهُ.

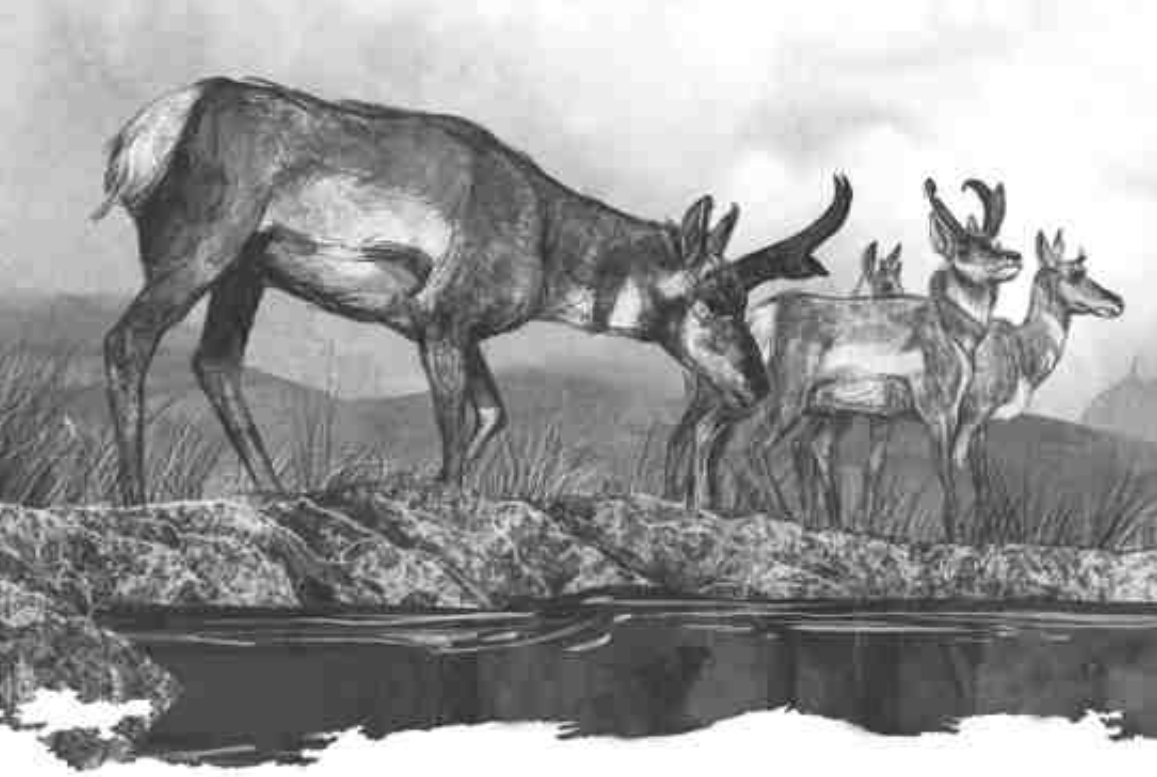

لَن أَستطيعَ أَن أستعيدَ أبي أبدًا، لكنَّني أَستَطيعُ أَن أجعلَهُ حيًّا بصَيد ي .

سوفَ أزَيِّدُ أغنيتَهُ فوقَ اللّحم. وستأتِي الذِّئبَةُ الغَريبَةُ إليَّ. وإذا أطعمتُها، فستتبَعُني مثلما كانَت أُمي ومُنشِدَةُ وهادرٌ يتبعونَه. وسوفَ أَطعِمُها مرةً أُخرى، وسوفَ تتبَعُني ثانِيةً. وإذا أطعمتُها طَوالَ الشِّتاء، فإنَّها لَن تترُكَني أبدًا.

أختارُ أَفضلَ ذكَرٍ في المجمُوعَةِ. قرونهُ السَّوداءُ طَويلَةٌ ومُنحنيَة. وعِندَما ينحَني ليشرَب، أنطلِقُ طاويًا الأرضَ بينَنا. يتبعثرُ الآخَرُونَ في كُلِّ الاتِّجاهاتِ لكنَّني حدَّدتُ طريدَتي. يَركُضُ الغزالُ بينما ينقضُّ صَقرٌ، مستقيمًا وسريعًا، بِلا أَيِّ فِكرةٍ سوى السُّرعة. أُوسِّعُ خطواتي مُقصِّرًا المسافةَ بيننا. وأَستطيعُ أَن أَشُمَّ رائحَةَ خَوفِه. سأجعلُهُ يسقُط. إنّها الخُدعةُ الوحيدَةُ التي أحتاجُها. أنتظِرُ أن يدفَعَ التَّعَبُ الغَزالَ الغَريبَ إلى التعثُّر، لكِنَّهُ يَجري ويَجري كما يجري المَاءُ، بسلاسةٍ وَسُهولَة، ويتَفادى الصُّخورَ بلا جهد.

ترتفِعُ حرارةُ النَّهار، لكنَّني شربتُ الكثيرَ مِن الماءِ. يُمكنُني أن أركضَ حتّى تغرُبَ الشَّمس. أقفزُ إلى داخلِ الشُّجيراتِ التي يَهرُبُ دائرًا حَولَها. أَصبَحَ الجَدوَلُ ورائي الآن. وكلانا نركُضُ وأفواهُنا مفتوحَة. الهَواءُ الجَافُّ يرهقُني. ولكِنْ، سيكونُ لديَّ الكثيرُ لأشرَبَهُ عِندَما يَسقُطُ الغَزال.

يستمرُّ في الركضِ. وأنا ألاحِقُهُ على الأعقاب. تركلُ أقدامُهُ سُحُبًا مِن الغُبارِ المَخلوطِ بالحَصى. أستطيعُ أن أواكِبَهُ خطوةً بخطوةٍ لكنَّني لا أَستَطيعُ أَن أتقدَّمَه. أبحَثُ عَن مِصيدَةٍ لأدفَعَ الغَزالَ إليها–قناةِ ماء، شقٍّ فِي صَخرةٍ، أجمةٍ كثيفَةٍ مِن الشُّجيرات. أَصبَح الماءُ بعيدًا وراءَنا الآن، ولا شيءَ فِي الأفُقِ سِوى أجماتٍ صغيرةٍ شاحبةٍ مِن الحشائشِ والمَريَميَّة.

ينتابُني التَّعَب، لكنَّني سوفَ أركضُ إلى الأبدِ إذا كانَ هذا هُوَ ما يتطلَّبُهُ الأَمر. وحتّى معَ ذلِكَ يمضي صاحِبُ القرنَينِ الأسودَينِ قدُمًا بلا هوادة. تَضرِبُ أقدامي الأَرضَ متزامِنةً مع إيقاعِ قلبي. أمامًا، أمامًا. وراءً، وراءً. لكنَّ الغزالَ

الغريبَ يُواصِلُ الرَّكضَ، سريعًا بِقَدرِ ما أنا قَويّ، ولا أَستطِيعُ أَن أُمسِكَهُ. قلبي يُؤلِمُني وأنا ألهَث. أتباطأُ من الركضِ إلى الهرولَةِ ثُمّ المَشي، نافثًا الغُبارَ مِن أَنفي. لقَد ذهبَتْ مأدُبَتي. وذهَبَ معها أَملي في العُثورِ على الذّئبَةِ الغريبَة. لماذا ستبقَى مَع ذئبٍ لا يستَطيعُ أن يُسقِطَ أَصغرَ غزالٍ هُناك؟

أَجِدُ أرنبًا بأذنَينِ طويلتينِ مُختبِئًا في حُفرةٍ في الأرضِ أَسفلَ أَجمَةٍ مَريَميَّة. وبقفزةٍ واحدَةٍ أصرَعُهُ وبثلاثِ قضماتٍ يكونُ قَد ذهَب. طَعامُ قيُّوط. أخفِضُ رأسي وأركلُ الغُبارَ بينما أَمشي. ولكِنْ، لأوَّلِ مرةٍ أكونُ سعيدًا لأنَّ أبي ليسَ هُنا ليشاهدَني. أكونُ سعيدًا لأنهُ لن يعرِفَ أيَّ نَوعٍ مِن الذِّئابِ أَصبَحتُ؛ ذِئبًا يستَحِقُّ أَن يكونَ وَحدَه.

أُهَروِلُ باحثًا عَن أجمةٍ مِن العَرعَر؛ عَن بَعضِ الظِلِّ لِأرتاح. ولكنْ لا شيءَ. ترابٌ أصفرُ. تُرابٌ أَحمَر. تُرابٌ أَسوَد. ليسَت هذهِ أرضًا لذِئب. رُبَّما يستَطيعُ ثعلبٌ يرغب فِي العيشِ على الفِئرانِ والأرانبِ فحَسب، أَن يَصنَعَ حَياةً على هذهِ الأَرضِ العاريَة. أُبطِئُ مِن الهَروَلَةِ إلى المشي، لكِنَّني أواصِلُ المَسير. والشَّمسُ تقومُ بمسيرِها الخاصِّ هي أيضًا على صَفحَةِ السَّماءِ، وظلّي هُوَ كلُّ الرِّفقَةِ التي يُمكِنُ أَن أجدَها.

أَستَريحُ في الشَّطرِ الأكثرِ حرارةً مِن اليومِ ثُمَّ أواصِلُ سَيري بينَما تَسقُطُ الشمسُ خَلفَ حاجزِ الأفُق. لا أستطيعُ أن أتحمَّلَ عناءَ البَحثِ في السَّماءِ عَن نَجمِ الذِّئاب. يلمَعُ نِصفُ قَمَرٍ فَوقي، وأنا نِصفُ ذِئبٍ فِي ضَوئِه-لا أيائِلَ، لا جِبالَ، ولا قَطيع. أُميلُ رأسي إلى الوراءِ لكيْ أعوي، لَكِنَّ حنجُرَتي لا تُسفِرُ سوى عن خواء.

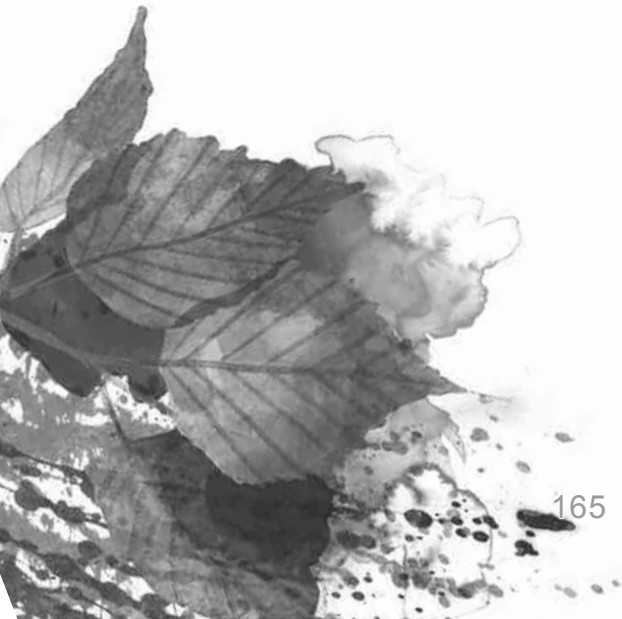

أسئلة الفصل

1. " لا شَيءَ في العالَمِ لا نَسْتطيعُ أَنْ نَفْعَلَهُ مَعًا" في أيّ سياقٍ قيلت هذِه العِبارةُ؟ ما الفِكْرَةُ الّتي تُؤَكِّدُها؟

2. كانَ لِلرّائِحَةِ في هذا الفَصْلِ دَوْرٌ مُهِمٌّ سَيُحَرِّكُ مَشاعِرَ سريعٍ، وسَيُغَيِّرُ في سَيْرِ الأَحْداثِ، وَضِّحْ ذلِكَ بِتَتَبُّعِ دَوْرِ الرائِحَةِ في فصول الروايةِ.

3. " أَنا أَقوى الآنَ مِمّا كُنْتُ في أَيّ وَقْتٍ مَضى" ما سِرُّ قُوَّتِهِ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ؟ وَما الأُمورُ الّتي تُمِدُّكَ بِالقُوَّةِ في حَياتِكَ؟

4. "لَنْ أَسْتَطيعَ أَنْ أَسْتَعيدَ أَبي أَبَدًا، لكِنّني أَسْتطيعُ أَنْ أَجْعَلَهُ حَيًّا بِصَيْدي" في أَيّ مَوقِفٍ قالَ سَريعٌ هذِهِ الجُمْلَةَ؟ تَناقَشْ مَعَ زُملائِكَ الأُمورَ الّتي تَجْعَلُ أَهْلَكُم فَخورينَ بِكم في حياتِهِم وَبَعْدَ مَماتِهِم.

5. اِسْتاءَ سَريعٌ مِنْ نَفْسِه كَثيرًا في نِهايَةِ الفَصْلِ.
   - ما سَبَبُ اِسْتيائِهِ؟
   - ما العِباراتُ الّتي وَصَفَ بِها نَفْسَهُ؟

امْضِ

أواصِلُ المسيرَ كُلَّ اللَّيلِ والصَّباح. أتخذُ مسارًا مُتعرجًا عَبرَ السهبِ باحثًا عَن أثَرٍ للذئبةِ الغَريبَة. ولكنْ، ما مِن علامَةٍ لها. لا أعرِفُ أينَ أذهَب. أَعرِفُ فقَط أنّ الأَرضَ التي تَحتي لا يُمكِنُ أَن تكونَ وطنًا لي أبدًا. أستطيعُ أن أبقى حَيًّا علَيها، لكنَّني لَم أَستَطِع أَن أُحبَّها أبدًا مِثلما أحببتُ جبالي الملفَّعةَ بالضَّبابِ في أرضِ الوطن. أَرفَعُ رأسي لألتقطَ رائحةَ الذئبَةِ الغريبَة.

يُمكِنُ أَن تكونَ في أَيِّ مكانٍ مِن الأفُقِ إلى الأفُق. أَمشي وأركضُ وأستريحُ طِوالَ اليَومِ، ولكِنْ لا أَثَر–لا أَثَر لأقدامِها ولا رائحةَ لَها في الهواءِ، ولا حتّى تَجمُّعًا للصُّقورِ والغِربانِ يدُلَّني على المكانِ الذي اصطادَت فيه. أفتقِدُ رفيقَتي أنثى الغرابِ كما لَم أفتقدْها مُنذُ أَن غادرتُ ضفَّةَ البُحِيرة. أواصلُ سيري خلالَ اللَّيل، باحثًا بِالأَنفِ والآذان. وفي اليَومِ التالي والتالي أواصلُ البَحث. إنّها هُنا في مكانٍ ما. أُنادي، ولا يُجيبُني سِوى الصَّمت. ولا أَستَطِيعُ حتّى أَن أَجِدَ رفقةً في صَدى.

عِندَما تشرِقُ الشَّمسُ مَرةً أُخرى أَرى في الأمامِ جبالاً بلونٍ أزرقَ ضاربٍ إلى الرّماديّ. جِبال! ستكونُ فيها أَشجارٌ ومروجٌ وأيائِل. سيَكونُ في الجِبالِ هواءٌ عليلٌ وأيائِل. ستكونُ فيها إبَرُ الصُّنوبَرِ الناعمةِ التي تستريحُ عليها الأجسادُ، وأيائِل؛ مَاءٌ بَارِدٌ سائغٌ لِلشُّرب، وقطعانٌ بلا نهايةٍ مِن الغزلانِ والأيائِل.

إذا كانَ ثمَّةَ أيُّ ذِئابٍ في هذهِ الأَرضِ الخاوِيَةِ الواسِعَة، فسوفَ يكونونَ في الجِبالِ. وإذا رأت الذئبَةُ الغريبَةُ الجِبالَ، فسَوفَ تُريدُها بِقَدرِ ما أريدُها. أمضي قدُمًا وقَد اتقدَتْ فيَّ مُجدَّدًا شمعةُ الأمل. بمرورِ اليَومِ تُصبحُ الجِبالُ أَكبَرَ، وأَكثَرَ استِدَارةً وقَتامَة. الرّيحُ تشتَدُّ. وبينما أَمضي يصبحُ العشبُ أطولَ قامةً وأكثَر كثافةً والأَرضُ أكثَرَ لُيونَة. أقتربُ من بِركةٍ لِكي أَشرَب، لكِنَّ رائحَةَ مائِها كريهَةٌ ويتصاعدُ مِنها بُخارٌ دافِئ. أُحدِّقُ في أعماقِ البركةِ، لكنَّني لا أجدُ شيئًا حيًّا هُناك. سَوفَ أشربُ مِن مكانٍ آخَر.

عندما يحِلُّ المساء، أَستطيعُ أَن أَرى أَنَّها لم تكُنْ جبالاً وإنّما غيوم. غيومٌ فحَسْب. غيومٌ طويلَةٌ قاتمةٌ وحُبلى بالمَطَر. لكنَّني لا أستَسلِم؛ الغيومُ الماطرةُ تتجمَّعُ أمامَ الجِبالِ مِثلما تتجمَّعُ الغِربانُ فوقَ الطَّريدَةِ المَيتة. ورائحَةُ المَطَرِ، حتّى الذي لَم يَسقُط بعدُ، تُزوِّدُني بالشَّجاعة. أَمضي عَدوًا نحوَ الغُيومِ وهي تأتي نَحوي أيضًا. أَستطيعُ أن أتذوَّقَ الماءَ في الهواءِ وأن أشعُرَ بهِ على جِلْدي، لكِنَّ المطرَ لا يَسقُط. تهُبُّ الرّيحُ بقوةٍ أَكبَرَ ناثرةً قطعًا مِن العُشبِ في الهواءِ، ويقصِفُ الرَّعدُ، ولكنْ لا مَطَر. أرتجِلُ طوالَ اللَّيلِ بينما يُحاصرُني صَوتُ الرَّعدِ مِن كُلِّ الجِهَاتِ، وتُعشي عينَيَّ ومَضاتُ البَرق.

طقسٌ ناريٌّ، كانَ هادِرٌليسمّيه. ذاتَ يومِ صَيفٍ عِندَما ارتفَعَ عمودٌ مِن الدُّخانِ مِن الغابَةِ بعدَ البَرق، جمعَنا نحنُ الجِراء معًا، وأخبرَنا عنِ الحَريقِ الذي جَعَلَهُ أعرَجَ–عَن تلكَ الرُّقعةِ في جانبِهِ الخلفيّ حَيثُ لَن ينمُوَ الفِراءُ مَرةً أُخرى-وعن ركضةِ حَياتِه.

سيقولُ هادِر: «النارُ لا تأبَهُ لمدَى شجاعتِك».

«النارُ لا يَعنيها مدَى شجاعتِك»، كان سيَقولُ مَرةً أُخرى لأنَّ ثاقِبًا لم يكُن يستَمِعُ إليهِ أبدًا. وكان يُواصِلُ الحديثَ ويُواصِل.

«النارُ تَصعَدُ مُنحدَرًا».

«النارُ تنتظِرُ هُنيهَةً عندَ قِمّةِ جبَل».

ودائمًا، دائمًا، «عليكَ أن تبحثَ عنِ الماء».

أُعاينُ الهواء. في الأمامِ، الهواءُ صافٍ، لكِنَّ ثمةَ ريحًا مُعاكِسةً تُخفي جمِيعَ الروائحِ التي ورائي. لا بُحيرةَ هُنا للاحتماءِ إذا جاءتِ النّار. أضَعُ أملي كُلَّهُ في المَطَرِ وحدَه. أحلُمُ بالمَطَرِ عندما أتوقَفُ لأستريح. أستطيعُ أن أشمَّ رائحتَهُ في ذاكرَتي، لكنَّ المَطرَ لا يَسقُط.

في الصَّباحِ، تصبحُ الغُيُوم أطوَلَ وأكثرَ قُتامةً، لكنَّها عبَرتْ وأصبحَتْ ورائي الآن. أَمضي قدُمًا بعِنادٍ، عَطشانَ أكثرَ مِن كَوني جَوعانَ. وعلى طُولِ خطِّ الأفقِ ترتفعُ بُقعَةٌ أكثرَ مِن البقيّة. أَهِيَ الجِبال؟ لقَد خُدِعتُ مِن قبلُ لكنَّني أواصِلُ ارتحالي يحدُوني الأمل.

بِحُلولِ مُنتصَفِ النَّهارِ تهبُّ الرّيحُ متأرجِحةً في المكانِ جالِبةً هزيمَ الرَّعدِ ووميضَ البَرقِ العَظِيم. ينتصبُ فرائي كُلُّه. يدفعُني نبضُ الصَّوتِ إلى الأمام، وما يزالُ المَطَرُ لَم يَسقُط. أستمِعُ وأشمُّ باحثًا عنْهُ. ولا مَطَرَ ولكِنْ ثمَّةَ صَوتٌ آخَرُ -هديرٌ ثابِتٌ وفَرقَعَة. أستديرُ وأَرى الدُّخان.

دُخان!

تجتاحُني الرَّهبةُ مِن الأَنفِ إلى الذَّيلِ وتُجمِّدُ أطرافي بينما أبحثُ عن طريقٍ للهروب. الدُّخانُ يُمكِنُ أن يخدعَك. إنَّهُ يَسرِقُ رائحتكَ ويبطئُ ركضَكَ، ويخنُقُ أنفاسَك. إنَّهُ يُخفِي الطَّريقَ الآمِنَ عنكَ ويجعلُكَ تَسقُط. بل إنَّ النارَ التي وراءَ الدُّخانِ أسوأ. يُمكِنُها أن تُزمجرَ مِثلَ دُبٍّ وأن تركضَ بنفسِ سرعتِه، لكنكَ إذا استدرتَ للقتالِ لَن تجدَ شيئًا لتغرسَ فيه أسنانَك. يتكوَّمُ طعمُ الخَوفِ المريرِ عميقًا في حَلقي. ثمَّةَ أشياءُ يَستطيعُ الذِّئبُ أن يُقاتِلَها وأَشياءُ لا يستطيعُ قتالَها.

يَجِبُ أن أركُضَ، ولكنْ إلى أين؟ لو كانَت أنثى الغُرابِ هُنا، لكانَتْ ستُريني طريقًا. لكنَّ كلَّ ما أستطيعُ رؤيتَهُ هو العُشبُ الجافُّ وأجماتُ العَرعَرِ

كلّ اتّجاهٍ وطيفُ التّلالِ فِي أفُقِ الغُروب. يجرِي الماءُ مِن الأرضِ المُرتفعَةِ إلى المُنخفِضَة. وإذا كانَ هُناكَ تلّ، فإنّ هناكَ جَدولاً يسيلُ منهُ في مكانٍ ما.

«ابحَثْ عَن الماء»، قَال هادِرٌ إنّه فُرصتي الوَحِيدَة.

أركضُ. لَيس عدوًا، وإنّما قفزًا. سيكونُ هذا اختِباري. سيستَنزِفُ كُلَّ ذَرةِ قُوةٍ جمعتُها في دَورةِ القَمَرِ الطَّويلَة التي قضيتُها في التّرحال. أركضُ قفزًا بِثَباتٍ، وأُبقي عينَيَّ على الأرضِ. لا يُمكِنُني أن أتعثَّر. أتَخيَّلُ قَطيعي يركضُون إلى جانِبي؛ حَمِيمًا، وميّاسةَ، ووثّابة، وثاقِبًا. الأُمّ تقودُ الطَّريقَ مَعَ مُنشِدَة، والأبَ يَركضُ حارِسًا في الخلفِ مَعَ هادِر. أكاد أَشعَرُ بِهِم يلامسونَ كتفيَّ ويعضُّون ذَيلي.

«لا تستسلِم أبدًا»، يقولونَ لي.

«أنتَ الأسرعُ بينَنا جميعًا».

«سوفَ أتبعُكَ إلى أَيّ مكان».

«امْضِ. امْضِ. واصْل».

يرتفِعُ هَدِيرُالنَّار. تنتَشِرُرائحَةٌ مُرةٌ مِن حَولي. وتدفعُ الريحُ النَّارَ والدُّخانَ أَمامَها. تصبحُ التِّلالُ في الأفقِ أَكبَرَ. يَمُرُّ زَوجٌ مِن الطُّيورِ الخَضراءِ اللألاءةِ أَمامي. يحومانِ بُرهةً ثُمّ يَحُطَّان ليستريحا على كتِفَيّ.

لا يزنانِ شيئًا على الإطلاقِ، لكنَّني أَستطيعُ أَن أَشعُرَ برفيفِ قلبَيهِما الصَّغيرَين، وذلِكَ يمنحُني الشَّجاعَة. بِضعَ لحظاتٍ مِن الرّاحَةِ ويواصلانِ طريقَهُما مِثلَ شُعاعَين أَخضَرينِ مِن البَرقِ. أحدّدُ مسارَهُما وأتعقبُه.

يجعلُ الدُّخانُ لونَ الشمسِ كَهرمانِيًّا ثُمَّ أَحمَرَ، ثُمّ بُنّيًا بلونِ الأَرض. رائحَتُه تتَشبَّثُ بفِرائي وتُحرِقُ حَلقِي. تملأُ الطُّيورُ السّماءَ هاربةً أمامَ النَّار؛ غِربانٌ وطيورٌ مُغردةٌ، ونُسورٌ وغَرانيق. تَطِيرُ مُنخفِضَة وأَنا أَتبَعُها.

يُخبِرُني أَنفي وأذنايَ بأنَّ النَّارَ أَصبَحتْ أَقرَب. أرمشُ كي أطْرُدَ الحصَى مِن عينَيَّ وأواصِلُ الرَّكض.

تظهَرُ الغزلانُ ذَواتُ القُرونِ السوداءِ مِن الدُّخانِ بِجانِبي وقد مدَّت أعناقَها الطويلَةَ المَسفوعَةَ إلى الأمامِ وهيَ تركُض. وتظهَرُ الخُيولُ الرماديةُ الصَّغيرةُ، آذانُها الكَبيرةُ ترتعشُ مِن الذُّعرِ، وكأنَّها أشباحٌ على جانِبي الآخَر. كلُّهم يركضونَ فِي قَطيع. بِالأَمس كانُوا سيصبحونَ لي طعامًا، لكنَّني اليومَ أَتمنَّى لهُمُ الحَياة.

أَشعُرُ بارتفاعٍ في الأرضِ وَمن خلَلِ الدُّخانِ أَرى شُجيراتٍ وبضعَةَ جُذوعٍ نحيلةٍ لأشجارِ جَارِ الماءِ والحُور. إنَّها المذاقُ الأَوّلُ لأشياءَ أَكبَرُ سوفَ تأتي. أواصلُ قُدُمًا بِجَهد، متنفِّسًا بِقُوَّة. وتركضُ الأرانبُ البرّيَّةُ والقيُّوطُ جنبًا إلى جَنبٍ مِثل رِفاقٍ في قَطيع.

الدُّخانُ يُشوِّشُ حاسَّةَ الشمِّ لديّ. وهديرُ النَّارِ يُغرقُ كُلَّ صوتٍ يُمكِنُ أَن أَسمَعَهُ. والنَّارُ تقفِزُ أَمامِي على أحدِ الجانبَين. تُفَرقِعُ زاحفةً عَبرَ العُشب. تُمسِكُ بأَشجارِ العَرعَر، تتسلَّقُ سيقانَها بأزيزٍ وتضربُها حتّى يفُورَ الجِذعُ مُنفَتِحًا ويُمطِرَ وابلاً مِن الشَّرَر.

يضِجُّ الهواءُ بالسُّخونَةِ وأنحرِفُ مبتعِدًا عَن النِّيران. وبينَما أَتسلَّقُ صاعِدًا التلَّ أرى جذوعَ أشجارِ جَار المَاء والبتولا فِي الشَّفَقِ الدّاخِن. إنّها أَشجارٌ تَنمُو بِجانِب الجداوِل. أستطيعُ أَن أَثِقَ بأنَّها تُعلِّمُ الطريقَ إلى الماءِ.

ارتفاعُ الأرضِ يُبطئُ سرعتي، لكِنَّ النّارَ لا تُبالي بالمُرتفعات. تَزيدُ سرعتُها. وأنا أبتلِعُ ذُعري وأركضُ بأقصى ما أستَطيعُ، أذُنايَ مشدودتانِ إلى الوراءِ وقلبِي يخفِقُ بِقُوَّة. يَجِبُ أَن يكونَ هُناكَ مَاءٌ فِي مكانٍ ما! النارُ تهدُرُ في كُلِّ مَكانٍ حَولي. وأَسمَعُ انقِصافَ الجُذوعِ المُحترقةِ ودويَّ ارتطامها، وطقطقةَ إبرِ الصُّنوبَرِ المُشتعِلَة. تقفزُ النَّارُ مِن شجَرةٍ إلى التي تليها، مُمطِرةً الشَّرَرَ والأَغصانَ المحترِقة. أُراوغُ مبتعِدًا. يطيرُ غُصنٌ مُحتَرِقٌ آخَرُ في الهواءِ ويهبِطُ في طريقي. أُناوِرُ لأتفاداهُ مَرةً أُخرى. تُضِيءُ ألسِنةُ النَّارِ السَّماءَ التي سوَّدَها الدُّخانُ وتصنَعُ ظلالاً وامِضَة.

يَشْرَعُ كتفِي في إيلامي بينما يُصبِحُ ارتفاعُ الأرضِ تحتَ أقدامي أكثرَ حِدّةً. أرى خَطّ القمَّةِ في الأمامِ. أجِدُّ لِلوصولِ إليهِ آملاً أَن هادِرًا كانَ مُحقًّا في ما قالَه عن النارِ والقِمم. تأكلُ الشَّراراتُ فِرائي مِثلَ ذُبابٍ يقرُص. يتعثرُ أرنبٌ يَركضُ بجِواري، ويتدَحرَجُ أذناهُ على ذَيلِهِ حتَّى يتَوقَّف. ولا أتوقفُ، لكنَّني أَسمَعُه يَصِيح. الراكضُونَ مِن حَولي يتعثَّرون. وأَنا أناضِلُ للحِفاظِ على توازُني.

تَحمِلُ الرِّيحُ الأَعشابَ والغُصونَ المُحتَرِقَة وتُدوِّرُها في الهواءِ، وتصنَعُ منها عمودًا دوارًا هائلاً مِن النَّارِ أَطوَلَ مِن الأشجارِ وأَطوَلَ مِن الغُيُومِ يندَفِعُ مُداهِمًا طريقي. أجفلُ وأخفِضُ رأسي لأتجنَّبهُ، لكِنَّه يُدَوِّمُ ويدورُ عائدًا في اتجاهي مَرةً أُخرى، ويقطَعُ طريقَ هُروبي، ويشعِلُ الحشائِشَ بينَما يَمضِي ليضعَني وسطَ دائِرةِ النَّار. أكبَحُ اندِفاعِي حتَّى أتوقَّف. والحَرارةُ تحاصِرُني مِن كُلِّ جانِب.

يتقرّحُ أنفي وتتشقَّقُ شفتاي. أينما ولَّيتُ وجهي ثمةَ لا مَهرَب. حَلقي أكثرُ جفافًا مِن إمكانيةِ العُواء، بل وحتّى مِن إمكانِيَّةِ الأَنِين.

امْضِ.

صَوتُ أَبي يتردَّدُ في داخلي معَ نَبضِ قلبي. أجاهِدُ يائسًا كَي أَمضِي، ولكنْ مِن أيِّ طريق؟ أَدورُ وأدورُ مرةً وأُخرى. لا أستطيعُ أَن أَرى وراءَ ألسِنَةِ اللَّهَبِ الضاجَّة.

واصِل.. امْضِ!

لَن أنحَنيَ لهذِهِ النَّار. لا يمكِنُني أَن أَفعَلَ، حتّى بينَما تَصغُرُ دائِرةُ العُشبِ غَيرِ المُحتَرِقِ حيثُ أسير. أَعصُرُ عينَيَّ حتَّى تنغلِقا أمامَ سِياطِ الرّيحِ الحارِقَة. تنحدِرُ الأَرضُ تَحتَ أقدَامي. سوفَ يتدفَّقُ المَاءُ نُزولاً. أتحوَّلُ إلى الجانبِ المُنحَدِرِ مِن التَّلّ. العُيونُ ما تزالُ مُغلقَة.

أستَجمِعُ نفْسي من أجلِ قفزةٍ كبِيرة. أندَفِعُ قافِزًا عَبرَ دائِرةِ النَّارِ المُدَوّمَة. أَضرِبُ الأَرضَ على مُنحَدَرٍ هابِط. أتدحرَجُ وأتدحرَجُ فِي التُّرابِ حتَّى تذهبَ رائحَةُ فِرائي المُحترِق. أثِبُ واقفًا على أقدامي وأركضُ. النَّارُ في أعقابي تكوي أقدامي. النَّارُ فوقَ رأسي تسفَعُ فِرائي. الأَغصَانُ المُحترِقَة تَسقُط وتشعِلُ المزيدَ مِنَ الأشجار. الأرضُ تُصبِحُ أكثرَ انحدارًا وأنا أضاعِفُ سرعَتي.

«امضِ.. واصِلْ».

أَعِدُ بأن أفعلَ، أَبي، وقطيعي، ونفْسي.

وسطَ إعصارِ النَّارِ لا أَستطيعُ أن أسمعَ، أو أرى أَو أشُمَ الماءِ، لكنَّهُ يجِبُ أَن يكونَ هُناكَ في قاعِ الوادي. أَمضِي، أتعثَّرُ، وأنهضُ على أقدامي وأركضُ مَرةً أُخرى. وها هُوَذَا أخيرًا. لَيس جدولاً فحَسْب، وإنما نَهر. نَهر! وأندَفعُ إلَيه.

آهِ! أَيُّها الغَوثُ الحُلْو! أغطُسُ فيهِ كُلّي، مُطفِئًا كلَّ شرارةٍ في فرائي. المَاءُ المُبَرِّدُ، المُهدِّئُ، المُنقِذُ. أخيرًا. أسبحُ مَع مَجرى النَّهرِ حولَ منحنًى وإلى فُسحةٍ أَوسَعَ في النَّهرِ، بضفافٍ رَمليَّة عريضةٍ على جانِبٍ وصخورٍ عاريةٍ على الجانبِ الآخَر.

نقِفُ فِي المَاءِ معًا-القيُّوط والغزلانُ والأرانب. ومَع أنَّني جائِعٌ لا أستطيعُ تحريضَ رغبةَ الصَّيدِ فيَّ. الحَرِيقُ يحتَدِمُ قادمًا إلى حافّةِ الماء. والأشجارُ المُحترقةُ تُفرقِعُ، تتصدَّعُ وتسقُطُ في النَّهرِ بهسيسٍ عَظيمٍ ويصعدُ البُخار. الحرارةُ تهبُّ لاذعةً. أغطسُ في الماءِ حتّى كتفَيّ. والنَّهر يجرِي سريعًا وباردًا وحقيقيًّا. لَم أَكُن ممتنًّا أبدًا لِلماء مِثلَما الآن.

فِي ضَوءِ

النَّارِ الأصفرِ البرتقاليّ،
أبحَثُ بينَ جَميعِ الحَيواناتِ عَن
العينَينِ الكهرمانيَّتَينِ والأذُنَينِ السَّوداوَينِ
للذئبةِ الغَريبَة. لكنَّ الدخانَ بَالِغُ الكثافَة. لا
أَستَطيعُ أن أشُمَّ حتى رائحةَ الظَّبيِ الواقفِ بجواري.
أبحَثُ في هذا الشَّفَقِ الغَريبِ في مُنتصَفِ النَّهارِ مِن السُّخَامِ
والرَّماد. تقفُ الظِّباءُ ذاهلةً بينما ترتفِعُ جنُوبُها وتنخفضُ
لاهثةً مِن الرَّكض. وتستريحُ الطُّيورُ الصغيرةُ على أَكتافِها
منهكةً تمامًا. وإلى جِوارِها تَقف دُبَّةٌ وجروُها. ويتلامسُ حِصانانِ رماديانِ
صَغيرانِ طويلا الآذانِ بالخُطومِ طلبًا للسلوى. الكثيرُونَ نَجَوا، لكِنَّ الذئبةَ
الغريبةَ ليسَتْ هُنا.

طَوالَ هذا الوقتِ، كُلّ هذا الوقتِ الطَّويل، كانت ترتجِلُ مِثلي تمامًا،
وأنا لَم أعثُرْ علَيها أبدًا. والآنَ فاتَ الأوانُ كثيرًا. لقَد ضاعَت منّي إلى الأبَد، وأنا
أكثَرُ تعَبًا حتّى مِن القُدرةِ على البُكاءِ.

عِندَ حافَةِ الماءِ، تستعِرُ النَّار. في إحدى اللَّحظاتِ، تكونُ ألسِنةُ اللَّهبِ
بارتفاعِ كتفٍ فحَسب، تُطَقطِقُ ثُمّ تَخمُد. وما تزالُ الأَشجارُ والشجيراتُ
تتوهجُ بالنَّار، لكِنَّ العُشبَ ذَهَب. التُهِمَ. ولَم يتبقَّ مِنهُ سِوى الدُّخانُ ووميضُ
حَرارة. وبمُرورِ الوقتِ، ينقشِعُ الدُّخانُ قليلاً، كاشفًا عَن قَمَرٍ شبهِ مُكتمِل. وفي
ضوئِهِ، تتبعثَرُ الأرانِبُ وفئرانُ الحقلِ والسَّناجب. تخرُجُ ذئابُ القيّوطِ الصغيرةُ

والثعالبُ مِن النَّهرِ وأخطو خارجًا بعدَها، وما أزالُ ذاهلاً وفي رأسي دُوار، ولم تستيقِظْ فيَّ رغبةُ الصَّيدِ بَعْد. الرمادُ ينزِلُ كالمطر، تاركًا في حلقي نكهةً مُرةً حادةً عِندَما أَشرَب. تخطو الغزلانُ بِبُطء ورشاقةٍ صاعدةً إلى الشَّاطِئِ البَعيد. تنفُضُ عنها الخوفَ وتذوبُ في ظِلالِ الأَشجارِ الفِضِّيَّة. أَشرَبُ بِعُمقٍ على الرَّغمِ مِن المذاقِ المُرّ. أَمشِي على الضَفَّةِ الخضراءِ وحيدًا على الجانِبِ الآخَرِ مِن النَّهرِ. أنهَدُّ على الأرض. ألعَقُ باطنَ أقدامي المحترِقةِ، وأذهَبُ فِي النَّوم.

أسئلة الفصل

1. تَعَلَّقَ سريعٌ في هذا الفَصْلِ بِأَمَلٍ؟ ثُمَّ خابَ أَمَلُهُ؟ اِشْرَحْ هذا وَفْقَ أَحْداثِ الفَصْلِ.

2. ما هِيَ قِصَّةُ عَرَجِ هادِرٍ كَما أَخْبَرَ سَريعٌ؟ في أَيِّ سِياقٍ ذَكَرَها؟ وَماذا أَخْبَرَهُ هادِرٌ عَنِ النّارِ؟ اُكْتُبِ الجُمَلَ الَّتي أَعْجَبَتْكَ في وَصْفِ سَريعٍ لِلنّارِ المُشْتَعِلَةِ في الغابَةِ.

3. اِقْرَأْ فِقْرَةَ الدُّخانِ قِراءَةً مُعَبِّرَةً، ثُمَّ صِفْهُ بِأُسْلوبِكَ لِزُمَلائِكَ.

4. " امضِ، اِمْضِ، اِمْضِ"، ذُكِرَتْ هذِهِ العبارَةُ في الفصلِ الثّالِثِ، وفي هذا الفَصْلِ أيْضًا، وكانَتْ هِيَ كَلِمَةُ النَّجاةِ التي أَفْضى بِها الذِّئْبُ الأَبُ لِسريعٍ.
   - عُدْ إِلى الفصلِ الثّالِثِ من الرِّوايَةِ، واذْكرِ المَوْقِفَ الذي ذُكِرَتْ فيهِ.
   - تَحَدَّثْ عَنْ أَثَرِها عَلَيْهِ في الفَصْلَيْنِ.

5. اِصْنَعْ مُعْجَمَكَ حَوْلَ "أَلْفاظِ الحَريقِ"، وَاكْتُبْها هُنا.

عُواء

توقظُني رائحَةُ الدُّخانِ مَفزوعًا. أنهضُ سريعًا وأُجفلُ عندما تلامِسُ أقدامي المَحرُوقَةُ الأَرض. أنظُرُ وأدور. رائحةُ الدُّخانِ تعبِقُ في كُلِّ مكانٍ ولكِنْ لا نارَ في مَرمى النَّظَر. أَنفُضُ الرَّمادَ عَن فِرائي، وأنظرُ إلى النَّهرِ باحثًا عَن أَيِّ علامةٍ على أَن الحَريقَ قَد عبرَه إلى هذهِ الضَفّة. لا أثَرَ لهديرِ اللَّهَبِ وفَرقَعَةِ النّيران، وإنَّما ذلِكَ الاندِفاعُ الثَّابِتُ لِلنَّهرِ فحَسْب. تُشرِقُ الشَّمسُ بُرتقاليَّةً-بُنيَّةً مِن خلَلِ الضَّباب. أطرُفُ لأطردَ مِن عينيَّ لسعةَ الدُّخانِ وأنبحُ السُّخامَ الأسودَ مِن فَمي. أَنظرُ حَولي مرةً أُخرى، بِبُطءٍ هذهِ المَرة. الغزلانُ والأرانبُ والطُّيور–كلُّ الحيَواناتِ التي كانتْ في النَّهرِ بالأمسِ-ذهبَت جميعًا. أسقِطُ ذقني على الأَرضِ فتصعَدُ نفحةٌ مِن الرَّمادِ مِن العُشبِ وإبرِ الصُّنوبَر المحترِقَة. لَن يأكُلوا من هذا العُشب-لَيسَ حتَّى يَغسِلَهُ المَطَر. أتمطّى، مُرهقًا حَتَّى العَظْم. أتدحرَجُ مَرَّتَينِ وأتخبَّطُ مَرةً أُخرى على العُشبِ المُنسَحِق.

أَنامُ وأستيقظُ وأنامُ مرةً أُخرى طَوالَ اليومِ. أتثاءَبُ وأتمطّى بينَما تنحدِرُ الشَّمسُ وراءَ الجِبالِ. ومَعَ طلوعِ القَمَرِ، تتَحَوَّل وُجهَةُ الرّياح، ذاهبةً بالدخانِ فوقَ الأَرضِ المَحرُوقَة. والرَّمادُ العائمُ والسخامُ يذهبانِ ويعودُ طعمُ ماءِ النَّهرِ حُلوًا مَرةً أُخرى. أَشرَبُ حتَّى الارتواءِ ثُمّ أحدِّقُ في الأَرضِ المَحرُوقَةِ على الجانِبِ الآخرِ مِنَ النَّهرِ.

إنّها سَوداءُ بِالقَدْرِ الذي يمكنُ أن أشاهدَه. وإذا كانَت الذئبةُ الغريبَةُ هُناك، فإنَّها ستكونُ مرةً أخرى بعيدةً عنّي على الضفّةِ الأخرى. لَن تكُون ثمَّةَ آثارٌ يمكنُ تعقُّبها على الأَرضِ المَحرُوقَة. لَن أَجِدَها أبدًا.

يسكُبُ القمرُ ما يكفي من الضوءِ لِيصنَع الظِّلال. كانَ مكتمِلاً هكذا آخِرَ مَرةٍ عِندما جاءَت الذِّئابُ الشاحَبةُ مِن الجِبالِ لتقتلَ عائلَتي. وقَد ارتحلْتُ بعيدًا جدًا مُنذُ ذلِكَ الحِينِ. لَم أعُد ذلِك الذِّئبَ القديمَ نفسَهُ.

أَتعَقَّبُ مَجرى النَّهرِ بقلبٍ مُثقَل، لكنَّ هذه الأرضُ تبدو مَعَ كُلِّ خُطوةٍ أَكثرَ شبَهًا بالوطَن. صديقاتي القدامى، أَشجارُ الصّنَوبَرِ والتنُّوبِ تستقبلُني أولاً. والتُّوتُ البَرّيّ! ليسَ ناضجًا تمامًا، لكنَّني أَستطِيعُ أَن أَشُمَّ رائحَةَ الدِّببَةِ التي جاءَت لتتفقَّدَهُ. يصبحُ الهواءُ أَكثَر بُرودَةً وأَنا أَتسلَّق المرتفَع. وأستطيعُ أَن أَشُمَّ رائحَةَ بُيوتِ الأَرانِبِ والسناجبِ البرّيَّة. وَثمةَ آثارُ غزلانٍ تتسكَّعُ مِن مَرج إلى آخَر. أَحُكّ جسَدِي باللِّحاءِ المألوفِ لِشجَرةِ شوكَرانٍ، كما لَو أنَّني أُحَيّي رفيقًا في قطِيعي. أَعتلي قِمَّةَ التَّلّ ويُقابلُني هَواءٌ رطبٌ أَكثَرُ بُرودَةً، مُدوّمًا مِن قِمَّةٍ صَخريَّةٍ إلى أُخرى. يقِفُ جبَلٌ على جبَلٍ أَمامي وقلبِي يطيرُ لمَرآها.

ثَمَّةَ أشجارٌ جَديدَةٌ هُنا، وروائحُ لَم أقابِلْها أبدًا مِن قبلِ. هُناكَ شَيءٌ صَغيرٌ بلونٍ بنيٍّ غامِقٍ، يشبِهُ ابن عُرسٍ وإنَّما بِأَقدامٍ متشابكةٍ مثل أقدامِ البطّ، يَصطادُ السَّمكَ في قاعِ الجَدولِ تَحتي. وثَمَّةَ شَيءٍ رطبٌ كثِيفٌ دُوديٌّ

الشَّكل بِأَقدام، يندَفِع كالسَّهم داخلاً حفرةً وخارجًا منها لِيأكُلَ العناكِب. أستطيعُ أن أَشَاهِدَ هذِهِ الحِيلَةَ كُلَّ اللَّيلِ. أواصِلُ المسيرَ وأتنشَّقُ الرَّوائِحَ الجَديدَةَ غَيرَ المَألوفَةِ حتَّى أتعثَّرَ بِشجَرةٍ عملاقةٍ، تنبَعِثُ منها رائحَةٌ لا مَثيلَ لَها، ساقُها سَميكةٌ ولَونُها مِثلَ فِراءِ ثَعلَب، والإبرُ تنبثِقُ مِنها مِروحيّةً مِثلَ جَناحِ طائِر. أَنظُرُ إلى أَعلَى وأَعلَى. حتَّى النُّسُورُ لا تستَطيعُ أَن تعثُرَ على أعلى هذِهِ الشَّجَرة. تجتاحُني رجفةٌ لمرآها.

أخفِضُ ذَيلي وألمسُها بأنفي باحترام–والدةَ الأَشجار هَذِه. أتكوَّرُ لأستريحَ في سريرِ الأوراقِ الطريّةِ الناعمةِ التي طرحَتها الشَّجَرة. يرافِقُني النعيقُ العمِيقُ المَألُوفُ لبومةٍ كبيرةٍ والزعقاتُ الحَادَّةُ لبومةٍ أخرى صَغيرةٍ كُلَّ اللَّيلِ.

بينما أُفكِّرُ في عائلتي، أُفتِّشُ في أفُقِ الوَطنِ عَن نَجمِ الذِّئاب. سوفَ يَرتفِعُ مُبَاشَرة قبل أن تنهضَ الشَّمسِ. والآنَ أفتقِدُ عائلتي أَكثَرَ مِمَّا افتقدتُهم في كلِّ رِحلتي الطَّويلَة. كان ينبغي أَن يكونوا هُنا معِي. كنتُ أركضُ كُلَّ هذا الوقتِ وَبي أملٌ جامِحٌ في أَن يكُونَ أحدٌ منهم قَد نَجا؛ أملا في أَنْ يكونوا قَد وجَدوا آثاري وتعقّبُوها.

والآن، أخيرًا، وجدْتُ مكانًا حيثُ يُمكِنُنا أن نعيشَ كما ينبَغي أَن تعِيشَ الذِّئاب.

لكنَّني وحيدٌ تمامًا. النُّجُوم تقومُ بِمَسيرِها البَطيءِ في السَّماءِ، وتمامًا عِندَما يَخطُو نَجمُ الذئابِ صاعدًا فَوق خَطِّ الأفُقِ أَسمَعُ صوتَ عواء.

عُوَاء!

أقفزُ واقفًا على أقدامي وأتشرَّبُ الصَّوت. إنّهُ رائِع–لا يَستطِيعُ أَيُّ من ذئابِ القيوطِ المصأصِئةِ أن يصنعَ مثلَه. ليسَ نخراتِ دُبٍّ، وَليسَ عَويلَ أَسَدِ جَبَل. لا شَيءَ سِوى «عووووووو» صافيةٍ طويلَة يرتدُّ صداها عنِ التَّلال. يجعَلُ الصوتُ فرائي يقِفُ حتّى الأَطراف. أستديرُ لأواجِهَ الصَّوت. أَرفَعُ رأسي باحِثًا عَنْ رائحَةِ صانِعِه. تهبُّ الرّيحُ في الاتجاهِ الخَطأ لجلبِ الرائحةِ، لكِنَّ الصَّوت... لا يُمكِنُ أَن يكُونَ بَعيدًا.

بي جوعٌ إلى الرِّفقةِ كما لَم أجُعْ أبدًا لِلَّحم. قَبلَ دَورةِ قَمَر، كُنتُ لأركضَ كَي أحيِّيه دُونَ أَن أفكِّرَ حتّى لِثانِيَةٍ واحِدَة. لكنَّني ارتحلتُ بعيدًا وطويلاً جدًّا بِحَيثُ لَن أرتكبَ مِثلَ هذا الخَطأِ الآن. يُمكِنُ أَن يكُونَ صديقًا ذلِكَ الذي يعوي في الظَّلامِ، وحيدًا وباحثًا عن الرفقةِ مِثلي فقَط. أَو يُمكِنُ أَن يكونَ ذِئبَ استِطلاع؛ رسولاً لقطيعٍ مُختَبِئٍ في مكانٍ ما في الجِوار؛ قَطِيعٍ جاهِزٍ لقتلي إذا خَطَوتُ إلى أَرضِهِ.

أستَمِعُ وأنتَظِر. عِندَ غُروبِ الشَّمسِ يَعوِي الذئبُ مَرةً أُخرى. ولا تنضمُّ أَيُّ أَصواتٍ أُخرى إليه. أذهبُ في اتِّجاهِ الذِّئبِ الجَديد، لكنَّني أنظُرُ وأشمُّ باحثًا عَن علاماتِ رائحَةٍ لمنطقةِ قَطِيع. أبحثُ عَن أَرضٍ مُرتفعَةٍ. وأفكِّرُ في طُرُقٍ للهُروب.

ما مِنْ حُدودٍ يُمكِنُ العُثورِ علَيها. ولا علامةً لذئابٍ مُنافِسَه. أتخِذُ قراري، وأركضُ نَحوَ الذِّئبِ الجَديد. وبينَما أركُضُ أَسمَعُ طَقطقَةَ نَقّارِ الخشَبِ وقَرقَرةَ طائِرِ أَبُو زُرَيقٍ أَزرَقَ بِرأس أَسوَد. وثمَّةَ أَرانِبُ ساحليةٌ قَصيرةُ الآذان، مُختلِفةٌ تمامًا عَن أَرانِب الصَّحراءِ الطَّويلَةِ الضَّامِرة، التي تغطسُ للاحتماءِ بينَما أركضُ في الجِوارِ. كُلُّ هذا يذكِّرُني بِالوَطَن. ولكنْ ليسَ كُلُّ شَيءٍ هُوَ نَفسُهُ. هُنا، ثَمَّةَ أَشجَارٌ لا أَعرِفُ اسمَها. وطيورٌ لَم أَرَها أبدًا مِن قبْل. لكِنَّهُ مِثلُ الوَطَن. ويُمكِنُ أَن يكونَ الوَطَن.

بينَما أقتَرِبُ مِن المكانِ الذي يأتي مِنهُ العُواءُ، أنظُرُ وأتشمَّمُ بحثًا عَن رائحَة. أركضُ في مَسارٍ مُتعرِّجٍ وأكتشِفُ رائحةً لَم أَجِدْها مُنذُ غادرتُ الوَطن.

أسئلة الفصل

1. "لكِنَّهُ مِثْلُ الوَطَنِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكونَ الوَطَنَ"
   - ما مُواصَفاتُ الوَطَنِ الجَديدِ الَّذي قَرَّرَ سَريعٌ الاسْتِقْرارَ فيهِ؟
   - ما الأُمورُ المُهِمُّ تَوافُرُها في أَيِّ أَرْضٍ حَتّى تَكونَ وَطَنًا مِثالِيًّا لِلْإِنْسانِ؟

2. "**أَسْمَعُ عُواءً، أَقْفِزُواقِفًا عَلى أَقْدامي، وُأَتَشَرَّبُ الصَّوْتَ**"، عَلامَ تَدُلُّ هذِهِ الصّورَةُ؟

3. خَتَمَتِ الكاتِبَةُ هذا الفَصْلَ بجُملَةٍ على لسانِ سريعٍ.
   - حَدِّدِ الجملةَ؟ .....
   - كَمْ مَرَّةً تَكَرَّرَتْ كَلِمَةُ (لي) فيها؟ بِمَ تُذَكِّرُكَ هذِهِ الكَلِمَةُ؟

قطيع

أصبحتُ جاهِزًا الآن. أعوي للذئبِ الجَديد. أضَعُ كُلّ قُوَّتي وكُلَّ آمالي فِي العُواء. يرتدُّ صَداهُ عن قِمَمِ الجِبال. وفي الصَّمتِ الذي يعقُبُ يأتي عواءٌ أَوطَأ، وأكثر حلاوَة. أرتشِفُ الصَّوتَ ومِنْ فرطِ فرحَتي أكادُ أردُّ بنُباحِ جَروٍ. أوقِفُ نفسي وَسَط اهتزازِ ذيلي وأطلِقُ عواءً مَهيبًا جليلاً-عواءً كانَ لِيجعَلَ قَطِيعي فَخورًا. يَعوِي الذِّئبُ الجَديدُ ردًّا. أَرفعُ رأسي وأتذوقُ الرّيح. نعَم! إنّه على القمّةِ الأُخرى المقابِلة، على بُعدِ لَيلَةٍ مِن الرَّكض الجَيِّد. لَن أهتمَّ حتّى لو كانَ ركضًا لِعشرِ ليالٍ، لَن أتوقفَ حتّى أجِدَهُ. سوفَ أطوي الأَرضَ التي بَيننا كما يَطوِي طائِرٌ صفحةَ السَّماء.

أتذكَّرُ عِندَما عَاد أَبي إلى البيتِ مِن الصَّيدِ، واحتشدْنا كُلُّنا أمامَهُ وقد أحنينا رؤُوسَنا وأسبلنا ذُيولَنا. مرَّ بيننا وربتَ بِأَنفِه على رأسِ كُلِّ واحدٍ مِنّا، لِيُرِيَنا أَنَّنا ننتمي إلى قطِيع،

واعدًا بِأن يُطعِمَنا دائمًا. أُريدُ أن أكونَ ذئبًا مثلَ أَبي لِهذا الذّئبِ الجَديد. بَل إنَّني لَم أقابلْهُ بَعدُ وأريدُ مُسبقًا أن أعتني بِه. أن أصطادَ لَه. أن أحميَه.

أشقُّ طَريقي هابطًا التَّلّ إلى الوادي الذي بينَنا. ثَمَّةَ أيائِلُ لِلصَّيد، وأَرضٌ لِوضعِ عَلامةٍ عليها، وعرينٌ ليُحتفَر، وسماءٌ ليلِيَّةٌ تنتَظِرُ أَن تُملأَ بالعُواء. أتخِذُ الطريقَ صاعدًا الجانِبَ المُقابِل. يناديني الذئبُ مَرةً أُخرى، ومَرةً أُخرى مِن نفسِ المكان. إنَّهُ يُرشِدُني إلَيه.

يصعدُ الأَملُ في داخِلي وأنطلقُ طاويًا القطاعَ الأَخِيرَ مِن الأَرضِ الصاعِدة. تنتشرُ الأَشجارُ ذاتُ اللَّونِ الثَّعلَبِيّ والإبرِ التي تُشبِهُ أَجنِحَةَ الطُّيورِ كثيفةً على هذِهِ الأَرضِ هُنا، وغَيْضات السرخَسِ والتُّوتِ البريّ. نِداءٌ واحِدٌ أَخِير، قَريبٌ

جدًّا، وها هِيَ ذِي-ذئبةٌ بلونٍ أَسوَدَ غرابيٍّ تَخطرُ في مَرجٍ أَمامِي. ذِئبَةٌ سَودَاءُ بعيونٍ كهرمانية.

أَتَنفَّسُ عَبقَها، مُتذكِّرًا. إنَّها الذّئبَةُ الغَريبَةُ في الجانِبِ البعيدِ مِن النَّهرِ الأَسوَد. سَوفَ أَعرِفُها في أَيِّ مكان. أقفُ ساكنًا حابسًا أنفاسي، فقَط لأنظرَ إلَيها.

أنبَحُ لَها.

إنّها جمِيلَةٌ جدًّا ولا أَستَطِيعُ أَن أُبعدَ أنظاري عَنها.

أنبَحُ لَها بخفوتٍ مَرةً أُخرى. «قطعتُ شوطًا طويلًا لأعثُرَ عليكِ».

أقفُ بفخرٍ وثِقة. أرفَعُ أذنيَّ وذيلي عاليًا وأمشي في اتّجاهِها.

وهي تَردُّ على نظرتي بنُباحٍ خافتٍ كالأنِين.

تَرفَعُ أُذُنَيها وذَيلَها عاليًا. إنّها كبِيرةٌ. كُلَّما اقتربتُ أكثرَ رأيتُ أنَّها بِنفسِ طُولِي وعَرضِ أكتافي. ينبغي أن يكونَ ذئبٌ هربَ صغيرًا من أرضِ موطنِهِ خائفًا. لكنَّني تركتُ ذلِكَ الذِّئبَ بعيدًا ورائِي. أنا الآنَ أكثَرُ مِن مجرَّدِ ذئبٍ سَريع. لم تعُد السُّرعَةُ الشيءَ الوحِيدَ الذي لديَّ لأعرضَه. لقَد قطعتُ أرضًا أكثَرَ مِمَّا قطعَت أُمِّي أو أبي أبدًا. وقَد رأيتُ حيَواناتٍ جَديدَةً، وأشجارًا جَديدَةً، وطيورًا لَم يلتقِيا بِها أبدًا، وأراضيَ لَم يسافرا فيها قَطُّ.

«نادِيني طَوّاف»، أَقولُ لها.

«لَيل»، تُجيبُ، «أنا ليل».

لونُها أسودُ لامعٌ مِن الأَنفِ إلى الذَّيل.

لكِنَّها لا تخفِضُ لي رأسَها ولا تُسبِلُ لي ذيلَها، ولا حتَّى بِأَدنى إيماءَة.

ما هكذا حسبتُ مسارَ الأُمُور.

أتوقَّف. كانَ أَبي هو الزّعيم الأوحدُ الحَازِم لقطيعِنا. لَم يشرَحْ لي أبدًا كيفَ أُقابِلُ ذئبًا راشِدًا لأوَّلِ مَرةٍ. أقتَرِبُ خطوةً. وأتوقفُ مرةً أُخرى.

تواصلُ النَّظَر إليَّ بِهذهِ العُيونِ الكهرَمانيَّةِ التي لا تطرُف، ولا أَستطيعُ أَن أهرُبَ مِن تحديقَتِها. أسيرُ خطوةً أُخرى.

وهيَ، لا تُخفِضُ لي ذَيلَها.

أُحاولُ كلَّ الحِيَلِ التي نجَحَتْ معَ أخواتي. أنبحُ بنبرةٍ آمِرة. أضربُ

الأَرضَ بقدمَيَّ الأمامِيتَين. كَان حَمِيمٌ ينحَنِي لِي دائمًا عندما أفعل، وميّاسةُ أحيانًا، وفِي النِّهايَةِ عِندَما أَصبَحنا ناضجينَ تمامًا، كان بإمكاني حتّى أن أَجعَلَ وثّابةَ تُسبِلُ لي ذيلَها، لكِنَّ هذِهِ الذِّئبَة، هذِه الـ «لَيلُ»، لَن تتزحزَح. لا أعرفُ ماذا أفعلُ تاليًا.

تمشي لَيلُ خطوةً نَحوي. وأُخرى.

ذَيلُها الآنَ مرتفِعٌ أطولَ مِن أَيّ وقت. يلوّحُ مِن جانِبٍ إلى الآخَر. لا أَستطِيعُ التَّوقُّفَ عَن النَّظَرِ إلَيهِ، مَعَ أَنَّ ذئبًا ذكيًّا كانَ لِيُراقِبَ الأسنان. يُمكِنُ أَن تكونَ هذِهِ خِدعَة. ينبَغي أَن أكونَ حذِرًا. أعوي بأعمقِ عواءٍ لديَّ وأضربُ الأَرضَ بأقدامي مرةً أُخرى.

تخفِضُ صدرَها إلى الأَرضِ، لكِنَّ هذِهِ ليسَت انحناءةَ ذئبٍ تَابِع. إنّها تَستَعِدُّ للانقضاض. أربضُ أنا بدوري وعِندَما نقفزُ معًا يكونَ ذلِكَ مِثل الأيائل التي تتصادَمُ رأسًا بِرأسٍ في المَعركةِ. أركضُ على طُولِ المَرجِ وَلَيلُ تركضُ في أعقابي، قَريبَةً جدًّا حتّى إنَّني أشعُرُ بأنفاسها.

أستديرُ نابِحًا عِند حافَةِ المَرج وأطاردُها. إنّها سريعَةٌ وقوية. نجري ونَدُورُ حَولَ المَرجِ ونَدُور، هِيَ في الأمامِ أولاً ثُمَّ أنا. إنّها جامحةٌ وشرسَة. صيادةٌ بِالولادَة.

إذا قبلَتْ بي، لَنْ أجوعَ أبدًا.

مِن أَعلَى أَسمَعُ نِداءَ غُراب. يهبطُ على طرفٍ مُنحنٍ لِشجَرةِ شوكران، ممطرًا أوراقَها الإبريةَ على كلَينا. أَعرِفُ أَنَّهُ لَيسَ صديقتي أُنثَى الغُراب، لكنَّني أسعَدُ بِأَنْ أجِدَ قريبًا لَها هُنا بَعدَ كُلِّ رحلاتي.

سوفَ أستَمِعُ إلى الغِربان كما فعَلَ أَبي وكما فعَلَ أَبوهُ مِن قَبلِه.

«هل ستصْطادُ؟» تَقولُ لي.

«نعم».

«أيائل؟» تقول.

«نعم».

«دائِمًا؟»

«نعم!»

أركضُ معَها، وأَنسى الأَلَمَ والرِّحلَةَ الطَّويلَةَ وكلَّ وحدَتي تُنسى. نتَوقَّفُ على القمَّةِ ونُنصِتُ. ثُمّ نركضُ بِصَمتٍ باحِثَينِ عَن الفضاءاتِ المَفتوحَة التي بِلا أَشجَارٍ حَيثُ تُحبُّ الأيائلُ أَن تَرعى. نلتقطُ رائحَةً في نفسِ اللَّحظَةِ وتعرفُ لَيلُ ما يجِبُ أَن تفعلَ مِن دُونِ كلامٍ. تقودُ مُطاردةَ الأيائِل، وتختارُ الاقترابَ

الصّامِت. نتوقَّفُ قليلاً لنراقب، ونلاحِظُ أيّلاً رضيعًا يتجولُ بعيدًا في طرفِ المجمُوعَة. أَقودُ المُطارَدَة. أُبعِدُهُ عَن بَقيَّةِ القَطِيع، وأديرُهُ مِرارًا لأبقيه فِي الأرضِ المفتوحَة. ثمَّ نُوجِّهُ الضَّربَة القاتِلَةَ معًا. ويَسقُط الأيّل. أعاجلُهُ بعضّةٍ أَخيرةٍ على الحَلْقِ حتّى تكُفَّ أرجلُهُ عَن الركل.

نقِفُ على وَجبتِنا، والأَحمَرُ يسيلُ مِن أفواهِنا. وهِيَ تَعرِفُ. تنتَظِر. لِلَحظةٍ فقَط حتى نُظهِرَ امتنانَنا للروحِ التي أَخَذناها. وفي تِلكَ اللَّحظَةَ، أكونُ أكثرَ امتنانًا لِلرُّوح التي وجدتُها مِن تِلكَ التي أَخَذتُها. ما تزالُ لا تخفِضُ لي ذيلَها وأَظنُّ أَنَّها لَن تفعَلَ أبدًا. لكِنَّها لَم تَجعَلْني أخفِضُ ذَيلي لَها أيضًا. رابِطَةٌ مُتساوِيَةٌ. مِثلَما كان أُمّي وأَبي.

عِندَما أَكَلنا حتّى الشبَعِ مِنَ الأيّلِ وترَكنا نَصيبًا للقيُّوط والغِربان، كنتُ أَكثَرَ اكتِفاءً مِمَّا استَطاعَ الطَّعامُ أن يجعلَني وحدَهُ في أيّ وَقت. نَسِيرُ عائدَيْنِ إلى مَرجِنا وَنضَعُ عَلاماتٍ على كُلِّ شَجَرةٍ، واحِدَةً فوقَ الأُخرى. ليسَ علامَتي فَقَط، وإنَّما علامتنا.

طَوالَ حَرارةِ الصَّيفِ وبَرَكَةِ الشِّتاءِ الثلجِيَّةِ، نصطادُ جنبًا إلى جَنبٍ. ثَمَّةَ وفرةٌ في الأيائلِ وجداولُ مليئَةٌ بِالمِياهِ الصَّافِيَةِ لِلشُّرب. في بعضِ الأَيَّامِ نركضُ في الثَّلجِ لأجلِ بهجَةِ الركضِ الخَالِصَة. نَملأ اللّيالِي بالعُواء، ونضَعُ العلاماتِ على حُدُودِ أَرضِنا بمُثابرة. ولكِنْ، لا عواءَ مُهدِّدًا مِن قَطيعٍ عَدُوّ. ليسَ ثَمَّةَ سِوى نهرٍ أسودَ واحدٍ، ونادرًا جدًّا ما تأتي رائحةُ البشَرِ الكريهَةُ إلى غابتِنا. مِنَ السَّهلِ تَجنُّبهم بينَما نجولُ في التّلالِ والوديانِ والبحيراتِ المختبئةِ في جبالنا. هكذا ينبَغي أَن تعيش الذئاب.

حتّى مَعَ ذلِكَ، في بعضِ الأيَّامِ، أتفقدُ جانِبَ مَشرِقِ الشَّمسِ مِن جبالِنا

وأنظرُ ورائِي. أَتَذكّرُ حَمِيمًا. وأُرسِلُ عوائي إلَيهِ على جناحِ الرّيحِ، ليسَ لأنَّني أَظنُّ أَنَّهُ يُمكِنُ أَن يسمعَني. وإنما أناديهِ لأنّني، في قلبي، أُريدُ أَن أُصدِّقَ أَنَّهُ هناكَ في سَفحِ جَبلٍ في مكانٍ ما، معَ ذِئابٍ طيّبةٍ حَولَهُ والكثيرِ مِن الأيائل لِيأكُل. أُرِيدُ أَن أُصدِّقَ أَنَّهُ حتَّى في سعادَتهِ تلك، سوفَ يبحَثُ دائمًا عَنّي. لقد تبِعَتني رائحَةُ أخي وذكراهُ كُلَّ هذا الطَّرِيقِ، عَبرَ الأَنهارِ والبراري والجِبالِ والأَرضِ المَحرُوقَة. أستنشقُ في دَاخِلي هذِهِ الذِّكرى، عارفًا أَنَّنا سنظلُّ دائِمًا، ولَن نَكُونَ أبدًا، معًا.

يُبقي الشِّتاءُ الجبالَ في قَبضَتِهِ المُجمِّدَة، لكنَّ ثلجَهُ يذوبُ مَعَ مُرُورِ الأَيَّامِ إلى ربيع. تُصبحُ ليلُ هادئةً وأَكثَرَ غُموضًا مِن ذِي قَبلُ. وَتحفِرُ عرينًا عَميقًا فِي الوهدَةِ الأَكثَرِ اختِباءً فِي أَرضِنا. نُخطِّطُه بِالعُشبِ معًا ثُمّ تُخفِي نفسَها وتحتجِبُ عَنّي، لأَيّام وأَيّام. اصطادُ وَحدي وأَجلِبُ لَها الأفضلَ مِن كلِّ شيء. ولا أعوي. لا أَستطيعُ أَن أعويَ بينَما هِيَ مُختفِيةٌ عنّي، لكنَّني أراقِبُ نَجمَ الذِّئابِ في أفُقِ الصَّباح. وأنتَظِرُ وآمَل.

يكبُرُ القَمَرُ مِن شَريحَةٍ إلى دائِرة، وعِندَما أَظُنُّ أَنَّ ليلايَ لَن تَعُودَ إليَّ أبدًا، أَسمَعُ أصواتًا تُثرثِرُ عميقًا في داخِلِ العَرين؛ صَوتَ ليلايَ وثلاثَةَ أصواتٍ إضافِيَّةٍ أُخرى.

يَبدَأُ جِراؤُنا فِي الظَّلامِ، لكِنَّ أَنفي يُخبِرُني بأَنَّهُم جِرائي. جِراؤُنا. قطيعٌ لَنا وحدَنا. ألمَسُ لَيلَ بأنفي شاكرًا. وألعقُ كُلَّ الجِراءِ الثَّلاثَةِ مِن الأُذُنَينِ إلى الذَّيل، وأَحفَظُ كُلَّ قِطعَةٍ مِنهُم. كُلُّ خُطوةٍ مِن رِحلَتي الطويلةِ كانَت مِن أَجلِ هذا، ويا لَجَمالِ هذا! أَرفَعُ رأسي وأهتِفُ بِأَسمائِهِم لِنَجمِ الذِّئابِ الحارِس، الذي يراقبُنا جميعًا من عَليائِهِ هُناك.

المحيط
الهادئ
واشنطن
ش
ش
ع
ج
بورتلاند
جبال والوا
أوريغون
جبال كاسكيد
محمية
مالهيور
نهر روغ
كاليفورنيا
نيفادا

أسئلة الفصل

1. "القَطيعُ يَنْتَمي إلى الجِبالِ، وَالجِبالُ تَنْتَمي إلى القَطيعِ" قالَتِ الأُمُّ.
   - ما دَلالَةُ هذِهِ العِبارَةِ في حَياةِ الذِّئابِ.
   - ماذا تُمَثِّلُ الأَيائِلُ لِلْقَطيعِ؟

2. تَنَوَّعَتْ دَلالاتُ العُواءِ في الفُصولِ السّابِقَةِ، لكِنَّ مَعْناهُ في هذا الفَصْلِ مُخْتَلِفٌ، يَخُصُّ سَريعًا فَقَط. وَضِّحْ ذلِكَ.

3. لَمْ يَتَباهَ سَريعٌ بِسُرْعَتِهِ في هذا الجُزْءِ مِنْ حَياتِهِ كَما كانَ يَتَباهى مِنْ قَبْلُ.
   - اِقْرَأِ الفِقْرَةَ الَّتي تُعَبِّرُ عَنْ ذلِكَ.
   - بِمَ صارَ سَريعٌ يَتَباهى بَعْدَ التَّجارِبِ الَّتي خاضَها وَحْدَهُ.

4. " جِراؤُنا قَطيعٌ لَنا وَحْدَنا".
   - ما مَشاعِرُ سَريعٍ اتِّجاهَ جِرائِهِ الثَّلاثَةِ؟ اِقْرَأِ الفِقْرَةَ المُعَبِّرَةَ عَنْ ذلِكَ.
   - مِنْ تِلْكَ الجِراءِ الثَّلاثَةِ بَدَأَ قَطيعُ سَريعٍ يَكْبُرُ وَيَزْدادُ عَدَدُهُ، اِقْرَأِ المَعْلوماتِ الوارِدَةَ في نِهايَةِ الرِّوايَةِ عَنْ عَدَدِ جِراءِ الذِّئْبِ سَريعٍ.

5. عَنْوَنَتِ الكاتِبَةُ الفَصْلَيْنِ الأَوَّلَ وَالأَخيرَ بِنَفْسِ العُنْوانِ "قَطيعٌ" ما دَلالَةُ ذلِكَ.

أسئلةٌ عامّة عن الرواية

1. عُدْ إلى أَوَّلِ صَفْحَةٍ في الرِّوايَةِ، إلى مَنْ أَهْدَتِ الكاتِبَةُ «روزان باري» هذِهِ الرِّوايَةَ؟ هل تعتَقِدُ بِأَنَّ الرّاوِيَةَ قَدْ كَتَبَتْها لِشَخْصٍ ما، أَوْ مجموعَةٍ من الأَشْخاصِ، أم أَنَّها لَمْ تَقْصِدْ إلّا (طوّافًا)؟ وَضِّحْ إجابَتَكَ.

2. عَنْوَنَتِ الكاتِبَةُ الرِّوايَةَ بِـ «ذِئْبٌ اسْمُهُ طَوّافٌ» بَيْنَما الذِّئْبُ اسْمُهُ سَريعٌ.
   - مَنْ أَطْلَقَ عَلَيْه هذا الاسْمَ؟ ما دَلالَةُ اسْمِ «طوّاف»؟
   - عُدْ إلى إجابَتِكَ عَنْ هذا السُّؤالِ في الفَصْلِ الأَوَّلِ، وَصَحِّحْها بَعْدَ أَنِ انْتَهَيْتَ مِنْ قِراءَةِ الرِّوايَةِ.

3. تَحْمِلُ الرِّوايَةُ بُعْدًا رَمْزِيًّا يَتَّضِحُ مِنْ أَوَّلِ فُصولِها إلى نِهايَتِها.. تَناقَشْ مَعَ عَقْلِكَ، ثُمَّ زُمَلائِكَ في الصَّفِّ، وَاكْتُبْ رَمْزَ كُلٍّ مِنْ:
القَطيعُ، ثاقب، الذئب الأب، هادر، حميم، أنثى الغراب، نجم الذئاب، العرين، الأيائل، الذئاب الشاحبة.
(قد تختلف إجاباتكم، وهذا هو سر جمال الرمزية في أي عمل أدبي)

4. وتكتب الجملة التي بين القوسين بخط أصغر، وتُزاح إلى اليسار في سطر وحدها. .. سأرسل صورة توضيحية في رسالة

5. أَجْرِ بَحْثًا في الشَّبَكَةِ المَعْلوماتِيَّةِ عَنْ روزان باري، وَاقْرَأْ المَزيدَ عَنْها، وَراسِلْها شَخْصِيًّا لِتُبْدِيَ رَأْيَكَ في روايةِ «ذِئْبٌ اسْمُهُ طَوّافٌ».

6. اِسْتَمَدَّتِ الكاتِبَةُ الصُّوَرَ الجَمالِيَّةَ في الرِّوايَةِ مِنَ البيئَةِ، عُدْ إِلى الرِّوايَةِ وَانْتَقِ مِنْها بَعْضَ الأَمْثِلَةِ عَلى هذِهِ الصُوَرِ.

7. تَزْخَرُ الرِّوايَةُ بِأَنْواعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الحَيَواناتِ والنَّباتاتِ، اِمْلَأِ الجَدْوَلَ الآتِيَ بِناءً عَلى ما كُنْتَ تَعْرِفُهُ وَما عَرَفْتَهُ مِنَ الرِّوايَةِ.

الحَيَوانُ/النَّباتُ	أَعْرِفُهُ قَبْلَ الرِّوايَةِ	عَرَفْتُهُ مِنَ الرِّوايَةِ

8. تَزْخَرُ لُغَةُ الرِّوايَةِ بِمُفْرَداتِ الأَصْواتِ المُخْتَلِفَةِ، أُحْصُرْ هذِهِ الأَصواتَ، وَمَيِّزْها في جَدْوَلٍ كَالآتي:

أَصْواتٌ خاصَّةٌ بِالبَشَرِ	أَصْواتٌ خاصَّةٌ بِالحَيَواناتِ	أَصْواتٌ خاصَّةٌ بِالنَّباتاتِ	أَصْواتٌ خاصَّةٌ بِالطَّبيعَةِ: رَعْدٌ، بَرْقٌ، نارٌ، ماءٌ.

الذئب الحقيقي وراء القصة

هذه القصة مستوحاة من حياة ورحلات ذئب رمادي حقيقي يدعى «أوريغون 7». ولد في «قطيع إمناها» في جبال والوا الواقعة في شمال شرق ولاية أوريغون في الولايات المتحدة الأميركية. وقام علماء الأحياء بتثبيت ياقة مزودة بجهاز تعقب على عنق «أوريغون 7». وقد سمح لهم ذلك بتعقُّب حركته، والمساعدة في حماية الماشية، ومعرفة المزيد عن كيفية سلوك الذئاب.

في أيلول (سبتمبر) 2011، كان عمر «أوريغون 7» عامًا واحدًا تقريبًا عندما غادر موطنه وسافر مسافة 1600 كيلو متر عبر شرق وجنوب ولاية أوريغون وشمال كاليفورنيا. وعلى الرغم من أنه مر من أراضي تربية الماشية والأغنام على الطريق، إلا أنه لم يقتل أيّ مواشٍ. وأنهى «أوريغون 7» رحلته في جبال سيسكييو، وهي موطن مشابه لذلك الذي نشأ فيه، غني بالغزلان والأيائل. وهناك وجد ذئبةً في مكان لم يشاهَد فيه ذئب آخر منذ حوالي 90 عامًا. وعندما أخذ الباحثون عينة من الحمض النووي للذئبةِ، عرفوا أنها سافرت إلى ولاية أوريغون من قطيع في ولاية إيداهو. ولا بد أن تكون قد التقطت رائحته وتعقبت آثاره إلى موطنهما الجديد.

صورة للذئب "أوريغون 7" التقطت بكاميرا تعقُّب

لرفيقة "أوريغون 7" معطف فرائي أسود مثل هذا الذئب. وتشكل ولاية أوريغون موطنًا للكثير منها

في العام 2014، أنجب «أوريغون 7» ورفيقته ثلاثة صغار. واجتازَ الثلاثة جميعًا فصل الشتاء الأول، وفي صيف العام 2015، أنجب الزوجان دفعةً ثانية من الجراء. وهم يُعرَفون باسم «قطيع روغ» Rogue Pack لأنهم يعيشون في مستجمعات المياه في نهر روغ. وأطلق تلاميذ المدارس في ولاية أوريغون على «أوريغون 7» اسم «جيرني».

جراء ذئاب يخرجون من عرينهم

ذئاب برية صُوّرت في أوريغون

سافرت ذئبة من نسل «جيرني» إلى شمال كاليفورنيا، حيث وجدت زوجًا وشكلا «قطيع لاسِن» Lassen Pack. ووُلد أول صغارهما في ربيع العام 2017. وتعتبر ذئاب «قطيع لاسِن» وجيرانها «قطيع شاستا» Shasta Pack، أول ذئاب تعيش في ولاية كاليفورنيا منذ 100 عام.

حتى كتابة هذه السطور، يبلغ عمر «جيرني» نحو عشر سنوات-وهو إنجاز رائع لذئب بريّ. ولا يعيش معظم هذه الذئاب نصف هذه المدة. وقد أنجب هو وأُنثاهُ الدفعة الخامسة من الجراء في ربيع العام 2018.

باحثون يثبتون ياقات مع جهاز تعقب على الذئاب لتعقبها في البراري

عن الذئاب

السرعة: تستطيع الذئاب أن تعدو بسرعة تصل إلى 65 كيلومترًا في الساعة. وهذه أبطأ من أسرع حيوان بري في أمريكا الشمالية، الظبي، الذي يمكن أن تصل سرعته إلى 88 كم في الساعة. لكن الذئاب عداؤون رائعون للمسافات البعيدة، وعادة ما يقطعون 50 إلى 100 كم كل يوم. وإذا كان يتنقل تحت الضغط، يمكن أن يقطع الذئب 160 كم في يوم واحد! ولا تعيق الذئابَ التضاريس الوعرة أو الأسوار أو المنحدرات الشديدة أو المسطحات المائية أو الإصابات أو أحوال الطقس من أي نوع.

الحجم: يبلغ طول الذئب من 1.4 مترًا إلى 4 أمتار من الأنف إلى الذيل. ويتراوح متوسط وزنه بين 30 و50 كغم. الذكور أكبر من الإناث، والذئاب في القطب الشمالي هي الأكبر في نوعها.

التواصل: تتواصل الذئاب بواسطة العواء، لكنها تتواصل أيضًا بلغة الأجساد وتعبيرات الوجه. ويمكنها سماع الأشياء على بعد 16 كيلومترًا ويمكنها التقاط طبقات صوت عالية للغاية، لا يستطيع البشر سماعها.

تتمتع الذئاب الرمادية بالعديد من وسائل التكيف لمساعدتها على البقاء في البرية. وفيما يلي بعض من خصائصها المدهشة.

الأسنان: للذئب 42 سنًّا–ويزيد هذا العدد 10 أسنان عن أسنان البشر! وعضة الذئب أقوى من عضة الأسد أو النمر أو الدب الأشيب. وتأكل الذئاب بسرعة–يمكنها تناول 9 كيلوغرامات من اللحوم دفعة واحدة-أي ما يعادل 100 قطعة من الهامبرغر. ويمكن تمييز براز الذئاب عن حيوانات القيوط بقطع العظام والجلد فيه.

الرائحة: الرائحة حاسمة في عملية الصيد بالنسبة للذئاب. وتستطيع الذئاب شم رائحة الفريسة من مسافة تزيد على 3 كم. كما تساعد الرائحة الذئب أيضًا على التحدث إلى الذئاب الأخرى. وهي تُعلِّم أراضيها بوضع البول حولها بانتظام، لتحذير الذئاب الأخرى وإبقائها بعيدة. وللذئاب علامات رائحة في مخالبها بحيث يمكن للذئب أن يتعقب ذئبًا آخر. وكانت هذه هي الطريقة التي وجد بها «جيرني» رفيقة في ميكيوس.

آثار الذئب

الأثر المرفق بالحجم الحقيقي. وينتمي أي أثر بأربعة أصابع، وبحجم يدكَ وهي ممدودة، إلى ذئب رمادي. وليس هناك أكبر منه سوى أثر الدبّ.

قطعان الذئاب

تعيش الذئاب في قطعان قد تكون صغيرة من ذئبين، أو كبيرة من 30 ذئبًا، لكن معظم القطعان تضم ما بين 5 و8 ذئاب. ويقود القطيع أب وأم يقيمان رابطة طويلة الأمد. وقد يتخذ الذئب الذي يموت رفيقُه رفيقًا آخر، وفي بعض الأحيان قد يتزاوج ذئب مع عدة إناث من قطعان مختلفة، ويترك لذئاب أخرى تربية صغاره.

تبقى بعض الذئاب في مناطق قطعانها إلى الأبد. ويغادر البعضُ وينضمون إلى قطيع مجاور. والبعض، مثل «جيرني»، يذهبون إلى الشتات، ويغادرون الوطن لتكوين قطيع جديد في منطقة جديدة.

تولد جراء الذئاب في الربيع. ويزن الواحد منها أقل من نصف كيلوغرام عند الولادة، وتكون لهم عيون زرقاء تتحول إلى كهرمانية بعمر 8 أشهر. يقوم أعضاء القطيع بسحب قطع كبيرة من اللحم إلى العرين لكي تأكلها الأم أثناء رعايتها لصغارها. وفي وقت لاحق، يحملون اللحوم في حلوقهم ويحضرونها للجراء الذين يلعقون أفواههم لحملهم على سعال اللحم الممضوغ مسبقًا. ويصل جراء الذئاب إلى حجم البالغين بعمر عام واحد، ويكونون كبارًا بما يكفي ليفترقوا عن قطيعهم في سنتهم الثانية أو الثالثة.

الذئاب في البرية

يحتاج قطيع الذئاب المفرد إلى مساحة من الأرض تضم ما يكفي من الغذاء لإطعام جميع أعضائه. وسيكون للقطيع موقع منتظم للالتقاء داخل أراضيه حيث تتجمع الذئاب وتنام. وتحفر الذئبة الأم عرينًا للجراء في الجوار. وعندما يكون هناك الكثير من الطعام، يمكن أن تصل مساحة مناطق القطيع إلى 40 كيلومترًا مربعًا. وفي القطب الشمالي، قد يحتفظ القطيع بمنطقة تبلغ مساحتها 800 كيلومتر مربع. لكن معظم القطعان في الولايات الأميركية الثماني والأربعين الدُنْيا لها مناطق بمساحات حول 160 كيلومترًا مربعًا.

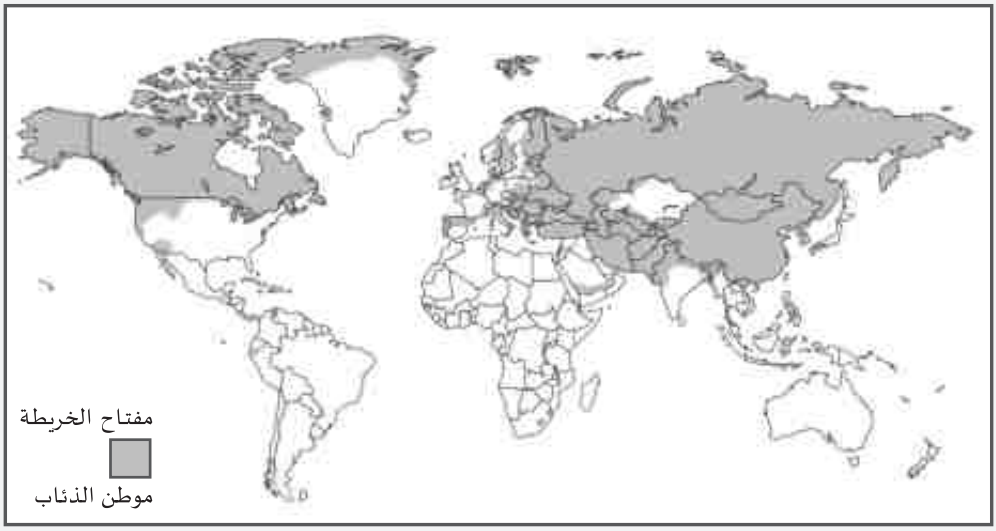

كانت الذئاب الرمادية ذات مرة منتشرة في جميع أنحاء أوروبا وآسيا، حتى تم اصطيادها لتوشك على الانقراض. وبحلول القرن العشرين، أصبحت الذئاب بثلث قوتها السابقة ودُفِعت إلى الأماكن النائية والجبلية. وهي تعود الآن عبر أنحاء أوروبا. وتشكل الجزر البريطانية واحدًا من آخر أجزاء القارة التي تعيد الذئاب السكنى فيها.

تصطاد الذئاب الثديات ذات الحوافر مثل الغزلان والأيائل والموظ -وأحيانًا الثيران الأميركية. وعن طريق الصيد معًا، تستطيع الذئاب إسقاط حيوانات يزيد وزنها عن الذئب الواحد بما بين 5 و15 مرة. لكن الأيائل تقاوم، وغالبًا ما تعاني الذئاب من كسر عدة أضلاع بسبب حوافر فريستها. وتستهدف الذئاب فريسة أصغر عندما تكون الفرائس الأكبر شحيحة، وأحيانًا يأكلون الجيف. وهم لم يصطادوا البشر أبدًا. والأكثر من ذلك أن لدى الذئاب البرية غريزة قوية للغاية لتفترس ما علّمها آباؤها صيده، ولذلك تستهدف الماشية كملاذٍ أخير فحسب.

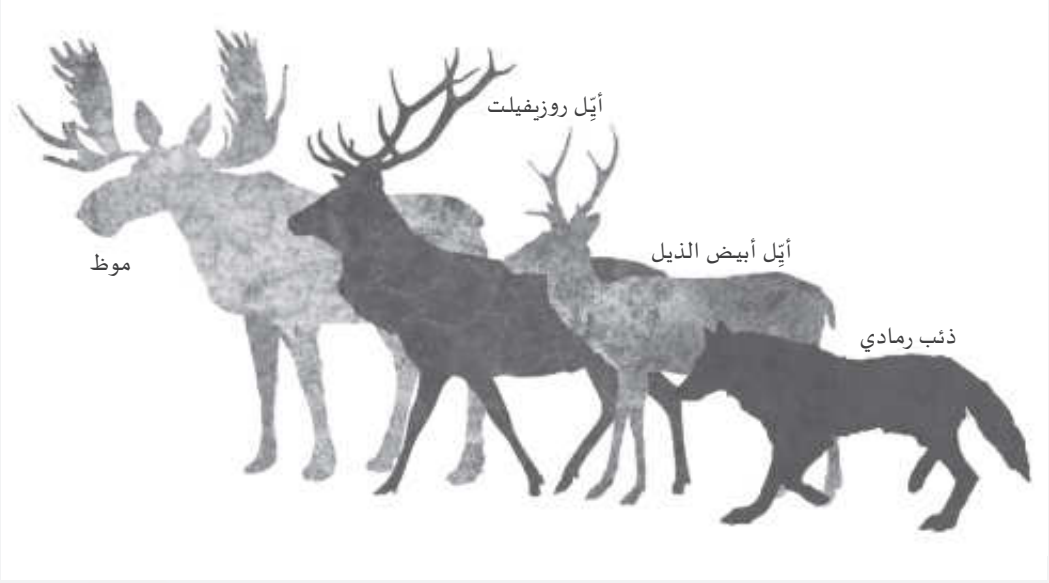

بالعمل كقطيع، تصطاد الذئاب فريسة أكبر منها بكثير

غالبًا ما تعمل الغربان والذئاب معًا في البرية لاصطياد فريسة. وتقوم الغربان بمشاهدة الفريسة وتقود الذئاب إليها. ثم تفتح الذئاب بعد ذلك أحشاء فريستها–وهو شيء لا تستطيع الغربان، التي ليست لها مناقير معقوفة، أن تفعله بنفسها.

موائل الذئاب في شمال غرب المحيط الهادئ

سافر «جيرني» عبر العديد من المناطق الطبيعية الشهيرة في ولاية أوريغون بينما كان يشق طريقه إلى الموطن الجديد.

البراري

تتربع براري زومواﻟﺖ Zumwalt Prairie على مساحة 300.000 فدان من آخر المروج العشبية المحلية في أمريكا الشمالية. ولأنها تقع في مكان قصيّ ويتراوح ارتفاعها بين 1.100 و1.700 متر، لم يتم استزراعها مطلقًا. وتشكل زومواﻟﺖ موطنًا للعديد من الطيور، من العصافير المغرِّدة الصغيرة إلى النسور الذهبية. وتدعم الأعشاب والأزهار البرية حيوانات الرعي والحيوانات المفترسة على حد سواء، وتشكل موطنًا لأكثر من 100 نوع من النحل. وتقع تلال كانيون Hells Canyon إلى الشرق. وبمساحتها البالغة نحو 2.445 مترًا، فإنها أعمق من تلال «غراند كانيون». وكانت براري زومواﻟﺖ أيضًا موطنًا لعصابة الرئيس جوزيف من هنود نيميبو.

الأيائل حيوانات صاخبة. فهي تنبح، وتغرِّد، وتصفر، وتصيح، وتموء وتُبوِّق. تُنمي الوعول مجموعة من القرون كل ربيع يصل وزنها إلى 18 كغم، بمعدل بوصة واحدة في اليوم، وهذه القرون هي أسرع أنواع العظم نموًّا.

يبلغ حجم **ذئاب القيوط** نصف حجم الذئاب العادية وهي أكثر قابلية للتكيف. تعيش عمرًا يبلغ ضعف عمر الذئاب العادية، ويمكنها أن تأكل أي شيء تقريبًا، وتستطيع أن تعيش في مناخات تتراوح من الصحراء إلى التندرا. بل إنها تزدهر في المدن الكبيرة.

الطائر الطنان هو نوع من الطيور البهلوانية. ويمكنه التحليق والانتقال في جميع الاتجاهات، حتى إلى الوراء، بسرعة 27 كم في الساعة. ويعادل وزنه وزن بنسٍ واحد، وتبني هذه الطيور أعشاشًا بحجم حبة الجوز، وتأكل كل يوم ضعف حجمها من الرحيق وحبوب اللقاح والحشرات والأشجار.

تنمو **أزهار كاماس** الأرجوانية في المروج الرطبة. وعند طبخها ببطء، تصبح جذورها نشاءً حُلوًا–وهو أحد الأطعمة الأساسية في نيميبو.

للنيص الخجول آكل النباتات 30.000 ريشة. وعندما يتعرض للهجوم يردُّ بها. ويخترق الريش لحم المفترِس وينفصل عن النيص، سامحًا له بالفرار. وللريش أشواك وهو ينتفخ عند ملامسة الدم، مما يجعل من الصعب إزالته.

الصحارى والأراضي الرطبة

في العام 1908، تم إنشاء محمية مالهيور الوطنية للحياة البرية، لحماية طيور الكراكي والبلشون من صيادي الريش الذين قتلوا مئات الطيور لمجرد جمع بعض من أجمل أنواع الريش. وتقع المحمية على الحافة الشمالية للحوض العظيم. وعادة ما تجري كل المياه من الجبال إلى المحيط. لكن أمطار الشتاء في الحوض العظيم تجري إلى الداخل وتغذي البحيرات والمروج الرطبة والمستنقعات التي تتبخر في الصيف لتكوين صحراء. والمحمية التي تبلغ مساحتها 20.760 كم^2 هي واحدة من أكبر الأراضي الرطبة المحمية في أمريكا الشمالية. وهي موطن حيوي للطيور على طريق طيران المحيط الهادئ. وتزور مئات الأنواع هذه المحمية، قادمة من مناطق بعيدة مثل التندرا في القطب الشمالي وغابات الأمازون المطيرة. كما تشكل المحمية أيضًا موطنًا للغزلان، والظباء، والقيوط، وابن عرس، والمِنك، والنيص، والغرير. وقد عاش الهنود الحمر الشماليون في هذه المنطقة منذ آلاف السنين.

الظباء من الأنواع الحية القديمة–عمرها أكثر من 20 مليون سنة. وهي ليست من البقر الوحشي ولا الغزلان: ولها عظم شوكي مثل القرن في الرأس، لكن الغطاء الخارجي لها ينسلخ كل عام مثل قرون الوعول. ولا تستطيع سوى الفهود فقط أن تركض أسرع من الظبي الذي تبلغ سرعته 88 كم في الساعة. ولكن، على عكس الفهود، تستطيع هذه القطعان الركض لعدة أميال بنصف سرعتها القصوى.

تعيش **الخيول البرية** في نوعين من القطعان-قطيع عائلي تقوده فرس، ويدافع عنه فحل، أو قطيع من الذكور العزاب الذين يطردهم الفحل إلى خارج القطيع. وحتى يعاود الانضمام إلى القطيع، يجب أن يتغلب الحصان الأعزب على الفحل في قتال. وفي الأثناء، تقيم إناث الخيول روابط مدى الحياة مع مهور آخرين في قطيعهن.

يمكن أن يصل طول **طائر الكركي** إلى 1.5 متر وأن يصل عرضه على امتداد جناحيه إلى مترين. وتهاجر الكركي كل عام من كندا إلى جنوب الولايات المتحدة. ويمكنها أن تقطع مئات الكيلومترات في يوم واحد. وترقص الكراكي، قافزة بأجنحة ممدودة، وتنحني، وتزمر، وتهسهس وتقذف أنسالَ العشب في الهواء. وهي ترقص لتدافع عن مناطقها، ولتهديد مفترس، ولتعليم الصغار ولتقوية الرابطة الزوجية التي تمتد مدى الحياة.

الغابة

غابة سيسكيو نهر روغ Rogue River Siskiyou الوطنية هي الأكثر تنوعًا من الناحية النباتية بين جميع الغابات الوطنية الأمريكية. وهنا يلتقي مناخ البحر الأبيض المتوسط لكاليفورنيا مع المناخ الممطر المعتدل لولاية أوريغون الغربية، والحرارة الجافة للحوض العظيم. ويتلقى الجانب الغربي من سيسكيوس من 2 إلى 3 أمتار من المطر، بينما لا تتلقى المنحدرات الشرقية سوى 1.8 مترًا فقط. وتضم مستجمعات المياه في نهر روغ أكثر من 300 كم من الأنهار البرية والمناظر الطبيعية الخلابة التي تشكل موطنًا لأسماك السلمون والتروت والسلمون المرقط. وقد دعمت هذه الأسماك وسافانا البلوط والكاما شعب تاكيلما الذين عاشوا هنا لأكثر من 10.000 سنة.

أسماك **سلمون الربيع (الملك)** هي الأكبر من بين جميع أنواع السلمون، حيث يصل وزن الواحدة منها إلى 50 كغم. وهي تولد في المياه العذبة، وتهاجر مئات الكيلومترات إلى المحيط ثم تسافر آلافًا أخرى إلى خليج ألاسكا. وهي طعام مفضل لدلافين الأوكرا وأسود البحر. وبعد عدة سنوات تقضيها في البحر، تعود سمكة سلمون الربيع كل الطريق إلى الجداول في موطنها الأصلي حتى تتناسل.

تعد طيور **الغربان والغُداف** من بين أكثر الطيور ذكاءً. يبلغ حجم الغداف ضعف حجم الغراب ويصل طول امتداد جناحيه إلى 1.3 مترًا. يمكن أن تعيش هذه الطيور في مجموعة واسعة من الموائل، من الغابات المطيرة الكثيفة إلى الصحارى الميتة، ومن شواطئ المحيط إلى قمم الجبال. وهي تعيش، مثل الذئاب، في مجموعات عائلية، وتبحث عن التعاون وتقيم روابط طويلة الأمد مع رفيق واحد.

لا يزال **الكوغر**، المعروف أيضًا باسم أسد الجبل، مثل الأسود الأفريقية وليست له غرة مثله، لكن أسود الجبل صيادون متسللون رائعون. ويمكنهم القفز لمسافة 5 أمتار، وأن يُسقطوا غزالاً بقفزة واحدة ويكسروا عنقه بعضة واحدة.

يستطيع **شجر الصنوبر الغربي الأحمر** أن ينمو لآلاف السنين وأن يبلغ طوله أكثر من 60 مترًا، لكن طول كوزه المخروطي لا يتجاوز 2 سم. ويسهل العمل بأخشابه التي تمتاز بالديمومة. ويتم استخدامه لصناعة القوارب وأعمدة الطوطم وبناء المنازل والأدوات والسلال والملابس والحبال والدواء. وتوفر أشجاره الغذاء والمأوى للعديد من الحيوانات. وتسميه قبائل الشمال الغربي «شجرة الحياة».

ملاحظة المؤلفة

الهجرة هي نبض قلب العالم. وتنتقل العديد من المخلوقات من مكان إلى آخر، من الفراشة الملكية التي تزن ثلث غرام وتطير ما يقرب من 5.000 كيلومتر، إلى الحوت الرمادي الذي يقطع نفس المسافة البعيدة ويزن 40 طنًّا. وتهاجر الحيوانات بحثًا عن الغذاء والمأوى؛ وتهاجر أيضًا لتلد صغارها. كما تهاجر عندما يهدد حيوان آخر موطنها وعندما يصبح الموطن مزدحمًا جدًّا. وهي تهاجر بسبب المناخ، ولأن البشر استولوا على أراضيها، وبسبب الكوارث الطبيعية مثل الفيضانات والعواصف والزلازل وحرائق الغابات.

ويهاجر البشر أيضًا، لأسباب كثيرة. إننا نسافر للعثور على العمل، والطعام، والمأوى؛ أو هربًا من الحرب والكوارث الطبيعية؛ أو لنكون أقرب إلى الناس الذين نحبهم؛ وللعيش في أمان وحرية.

آمل أن يكون لقصتي عن الذئب صدى لدى القراء الذين تم اقتلاعهم من مكانٍ مألوف ويحاولون العثور على طريق إلى موطن جديد. وأتقدم بجزيل شكري لجميع الأشخاص الذين رحبوا بي بحرارة عندما عشت بعيدًا عن الوطن، وأعرب عن امتناني الأكبر للناس من جميع أنحاء العالم الذين انتقلوا إلى ولايتي الأصلية وجعلوها مكانًا أكثر ثراءً وإثارة للاهتمام.

شكروتقدير

أود أن أقدم عظيم شكري وامتناني للأشخاص الذين ساعدوني في كتابة هذه القصة ودفعها إلى النشر. وأخص بالشكر جون ستيفنسون من مصلحة الأسماك والحياة البرية في الولايات المتحدة، الذي تابع «أوريغون 7» في رحلته الرائعة، والكاتب وخبير الحياة البرية غاري فيرغسون الذي ساعدني على فهم تعقيدات سلوك الذئاب. وقد منحتني ورشة عمل «مخيّم الكتّاب» في «فيشتراب» الفرصة للتخييم لمدة أسبوع في منطقة زومولت والتعرف إلى المنطقة بعمق. وأقدم شكري الجزيل لوكيلة أعمالي الموهوبة والمثابرة، فيونا كينشولي، والفريق الإبداعي في «مطبعة أندرسون»–كولي ساكور، وكيت غروف وسوسيلا بيبرس. كما أزجي عميق شكري لمونيكا أرمينو، التي يجعل فنها المذهل هذا الكتاب أجمل كثيرًا مما كان يمكن أن أصنع بمفردي. وأخيرًا، أقدم بالغ شكري لرفاق قطيعي الخاص، بيل، مونيكا، براين، كوليت ومادلين: أشكركم على مصاحبتي في هذه الرحلة.

معجم المفردات

معجم الفصل الأول: القطيعُ

- يَضُجُّ(فِعْلٌ) ضَجَّ: أَحْدَثَ جَلَبَةً وَصِياحًا بِسَبَبِ جَزَعِهِ.
- أَنْهَلُ (فِعْلٌ): نَهِلَ الشَّخْصُ :شَرِبَ حتّى رَوِيَ.
- المُتَصاغِرَةُ (اسْمٌ): صَغُرَ الشَّخصُ: رَضِيَ بِالذُّلِّ والهَوانِ، هانَ وذَلَّ.
  - صَغُرَ شَأْنُهُ: حَقُرَ.
- جامِحٌ(اسْمٌ): رَكِبَ جَوَادًا جَامِحًا: مُنْدَفِعًا، وَثَّابًا.
- غَضٌّ(اسْمٌ): الغَضُّ: الطَّرِيُّ الحديثُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.
- يَتَطامَنُ (فِعْلٌ) تَطامَنَ الشَّيءُ: انْخَفَضَ.
- هَسيسٌ(اسم): الكلامُ الخَفِيُّ لا يُفهم.

معجم الفصل الثاني: مراقبة

- نَعُبُّ (فعل) عَبَّ الماءَ، عَبَّ عَبًّا: شَرِبَهُ بلا تَنَفُّس. شَرِبَهُ دُفْعَةً وَاحِدَةً.
- الصَّقيعُ (اسم): الطَّبَقَةُ السَّطْحِيَّةُ مِنَ الْمَاءِ تَتَحَوَّلُ إِلَى جَلِيدٍ بِفِعْلِ شِدَّةِ البُرُودَةِ.
- مُناوَشَة(اسم): ناوَشَ العَدُوَّ: اِخْتَبَرَ قُوَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُقاتِلَهُ، قاتَلَهُ مِنْ بُعْدٍ.
  - نَاوَشَ الشَّيْءَ: خالَطَهُ.
- نُدَفِهِ، النُّدَفُ(اسم) جَمعُ: نُدْفَةٌ.
  - النُّدْفَةُ: القَليلُ من الشَّيْءِ، النُّتْفَةُ.
  - نُدْفَةُ الثَّلْجِ: ما يَنْزِلُ مِنْهُ شَفّافًا كَالقُطْنِ.
- التَّمَلُّصُ(اسمٌ) تَمَلَّصَ مِنْهُ: تَخَلَّصَ، أفْلَتَ مِنْهُ.
  - تَمَلَّصَ مِنْ أَدَاءِ وَاجِبِهِ: تَهَرَّبَ.

معجم الفصل الثالث: منافس

- يَنْداحُ(فعل): اِنداحَ الشَّيءُ: اِنْبَسَطَ، اِمْتَدَّ.
- جَذِلًا(اسم): جذِلَ الطِّفْلُ فرِح، فاضَ سُرورًا:
  -وجهٌ جَذِل، - قلبٌ جَذْلانُ/ جَذِلَ لِلنَّبَأِ السّارِّ.
- أَرْبِضُ(فِعْلٌ): رَبَضَ في المَكانِ: لَصِقَ بِهِ وَأَقَامَ بِهِ مُلازِمًا.
- الأَشْعَثُ(اسم): أَشْعَثُ الشَّعْرِ: مُغْبَرٌّ، مُتَلَبِّدٌ.
- مُغْتَبِطِينَ(اسم): مُغْتَبِطٌ: فَرِحٌ، مَسْرُورٌ.

معجم الفصل الرابع: قتال

- النِّيْصُ (اسْمٌ): القُنْفُذُ الضَّخْمُ.

معجم الفصل الخامس: أيائل

- ضَحْلَةٌ (اسم): ضَحَلَ النَّهرُ: قَلَّ ماؤُهُ.
- أَذْرَعُ(فعل): ذَرَعَ الطَّريقَ: أَيْ قَطَعَهُ بِسُرْعَةٍ كَأَنَّهُ يَقيسُهُ.
- مُجْفِلًا: الجُفولُ: الفَزَعُ والانْزِعاجُ.
- المُلَفَّعة(اسم): لَفَّعَ رَأْسَهُ: غَطَّاهُ.
- السُّهوب(اسم): مُفردُها: السَّهْبُ / السُّهْبُ: الفَلاةُ.
  - السَّهْبُ /السُّهْبُ من الأَرض: ما بَعُدَ مِنْها واسْتَوَى في سُهولَةٍ؛ وَهِيَ أَجْوافُ الأَرْضِ.
- تُدَوِّمُ(فِعْلٌ): دَوَّمَ الطَّائِرُ في الفَضاءِ: حَلَّقَ ودارَ في الفضاءِ.
  - دوَّمَتِ الكِلابُ: أَمْعَنَتْ في العَدْوِ.
- الوِهادُ(اسم) مَفْرَدُهُ: الوَهْدَةُ: الأَرضُ المنخفضَةُ.
- يَحورُ(فِعْلٌ) حارَ الثَّوْرُ: صاحَ وحَأَرَ.

معجم الفصل السادس: ألم

- اليافِعينَ(اسْمٌ): يَفَعَ الغُلامُ: تَرَعْرَعَ، شَبّ وَناهَزَ البُلوغَ.
- وَضيعَيْنِ (اسْمٌ): الوَضيعُ: ضِدُّ الشَّريفِ، وَهُوَ الَّذي لا قَدْرَ لَهُ وَلا احْتِرامَ بَيْنَ النّاسِ.
- تَتَبَدَّدُ(فِعْلٌ): بَدَّدَ يَتَبَدَّدُ، تَبَدُّدًا، فَهُوَ مُتَبَدِّدٌ.
  تَبَدَّدَ الشَّيْءُ: ضاعَ، تَفَرَّقَ.
- يَنْسَلُّ(فِعْلٌ): يَتَحَرَّكُ خُفْيَةً دونَ أن يُعْلَمَ به.

معجم الفصل السابع: أنثى الغراب

- النَّتِنَةُ(اسْمٌ): نَتَنَ الشَّيْءُ: خَبُثَتْ رائِحَتُهُ وَفَسَدَ، وصارَ تالِفًا.
  نَتَنَ الجُرْحُ: تَقَيَّحَ وَالْتَهَبَ.
- المُتَشَنِّجَةُ(اسم): اسمُ فاعِلٍ مِنْ تَشَنَّجَ
  - تَشَنُّجُ الأَعْصَابِ: انقِباضُ وَتَقَلُّصُ العَضَلاتِ بِشَكْلٍ لا إِرادِيٍّ.
- الصَّخَبُ(اسْمٌ): أَصْواتُ القَوْمِ المُخْتَلِطَةُ المُرْتَفِعَةُ، صَوْتُ الإِنْسانِ بِجَلَبَةٍ وَصِياحٍ.
- عقيرتِي(اسم) العَقيرَةُ: الصَّوْتُ.

معجم الفصل الثامن: لقاءٌ

- إِسْبالٌ (اسم) أَسْبَلَ الثَّوبَ: أَرْسَلَهُ وَأَرْخاهُ ،
  - أسبَل الفرسُ ذَنَبَه
- التَّوَسُّل(اسم): توسَّلَ إلى: تَقَرَّبَ إِلَيْهِ طالِبًا العطفَ.
- الغِرّان(اسم)، مفردُها الغِرُّ: وهو الغافِلُ غيرُ المجرّبِ.
- إِرَبًا(اسم) الإِرْبُ: العُضو الكامل. قطَّعه إِرْباً إِرْباً: عُضْوًا عُضوًا.
- هَديرٌ(اسم): هَدَرَ الْحَمَامُ: قَرْقَرَ، أَيْ كَرَّرَ صَوْتَهُ فِي حَنْجَرَتِهِ.
  - هَدَرَ الْبَعِيرُ: رَدَّدَ صَوْتَهُ فِي حَنْجَرَتِهِ.

معجم الفصل التاسع: برقٌ

- انْقِصافٌ(مصدر) انقصفَ الكَأْسُ: انْكَسَرَ
  القَصْفُ: صَوْتُ الرَّعْدِ الشَّديدُ المُتَكَرِّرُ والمُتَقَطِّعُ.
- الأعقاب (اسم) جمع عَقِب: آخرُ كلِّ شيءٍ.
  والعَقِبُ: عظم مؤَخَّر القدم، وهو أَكبرُ عظامِها.
- المُعْشي(اسم): فاعل من أعشى: رَجُلٌ أَعْشى، صَارَ بَصَرُهُ ضَعِيفًا.
- أَلوبُ (فعلٌ): لابَ: اسْتَدارَ حَوْلَ الماءِ وَهُوَ عَطْشانُ لا يَصِلُ إِلَيْهِ.
- الأَزِيز(اسم) صَوْتُ الرَّعْدِ، وَصَوْتُ غَلَيانِ القِدْرِ.
- الجاسِئةُ(اسم) جَسا: صَلُبَ وغلُظ، يبس.
- شَحَذَ(فعل): شَحَذَ هِمَّتَهُ: نَشَّطَهَا، قَوَّاهَا، أَثَارَهَا.

معجم الفصل العاشر: الوادي

- الرَّحو(اسم): الهَشُّ من كُلِّ شيءٍ.
- المُتهدِّلُ(اسم): مَصْدَرُ تَهَدَّلَ،
  - تَهَدُّلُ أَغْصَانِ الشَّجَرِ: تَدَلِّيهَا
  - تَهَدُّلُ الشَّفَةِ: اِسْتِرْخَاؤُهَا
- حاوِيَ الْوِفاضِ: لاَ يَمْلِكُ شَيْئًا، صِفْرَ الْيَدَيْنِ، لاَ شَيْءَ مَعَهُ.
- تَنْداحُ الأرضُ: تَتَّسِعُ فَتُرى مِنْ بعيدٍ.
- نتوءاتٌ: مفردُها نُتوءٌ: شَيْءٌ بارِزٌ؛ مُرْتَفِعٌ بِوُضوحٍ عَمّا حَوْلَهُ.
- أَخاديدُ: مفردُها أخدودٌ: فَتْحَةٌ عَميقَةٌ أَوْ حُفْرَةٌ في الأَرْضِ.

معجم الفصل الحادي عشر: شبيهةُ الذئبِ

- تَجْثُمُ(فِعْلٌ): جَثَمَ الحَيَوانُ والإنسانُ: لَزِمَ مَكانَهُ فَلَمْ يَبْرَحْهُ، أو لَصِقَ بالأَرضِ.
  - جثَمَ الهَمُّ عَلى صَدْرِهِ: ضَغَطَ وَأَثْقَلَ عَلَيْهِ.
- يُمَسِّدُ(فِعْلٌ): مَسَّدَ الجِسْمَ/ مسَّد على الجِسْمِ: دَلَّكَهُ؛ لَيِّنَهُ بِتَمْريرِ الكَفِّ عَلَيْهِ.
- يَرْطُنُ (فِعْلٌ): رَطَنَ يَرْطُنُ، رَطانةً ورِطانةً، فَهو راطِنٌ
  - رَطَنَ في كَلامِهِ: تَكَلَّمَ لُغَةً غَيْرَ مَفْهومَةٍ، فيها خَليطٌ مِنَ الأَعْجَمِيَّةِ والعامِّيَّةِ.
  - رَطَنَ فلانٌ: تَكَلَّمَ بِالأَعْجَمِيَّةِ.

معجم الفصل الثاني عشر: طعامٌ

- أَتَمَطّى(فعل): تَمَطَّى النَّهارُ: طالَ، امْتَدَّ
  - تَمَطَّى الرَّجُلُ: تَمَدَّدَ.
- اِزْدَرَدَ (فِعْلٌ) ازْدَرَدَ/ يَزْدَرِدُ، ازْدِرادًا، فهو مُزْدَرِدٌ، والمفعولُ مُزْدَرَدٌ.
  - اِزْدَرَدَ اللُّقْمَةَ: بَلَعَهَا بِسُرْعَةٍ. يَمْضُغُ حينًا وَيَزْدَرِدُ حينًا.
- جُرُفٌ (اسمٌ): الجمع: أَجْرَافٌ، جُرُوفٌ، جَرَفَةٌ
  - الجُرُفُ: مُنْحَدَرٌ صخريٌّ شاهِقٌ وبخاصّة عند الشَّاطئِ.
- الأَجَمَةُ: الشجرُ الكثيرُ الملتَفُّ. جمعُها: أجَماتٌ وآجامٌ وأَجَمٌ.

معجم الفصل الثالث عشر: خوفٌ

- يَضوعُ (فِعْلٌ): تَضَوَّعَتِ الرّائحَةُ/ ضاعت: طابَتْ وَاشْتَدّ انْتِشارُها.
- عَبَقٌ (اسْمٌ): عِطْرٌ، أَريجٌ.
- تَعْروني (فِعْلٌ) عَرا، عَرَاهُ المَرَضُ: أَصابَهُ، غَشِيَهُ، أَلَمَّ بِهِ.
- لَوْنُ الكَهْرَمانِ: مادّةٌ طبيعيّةٌ صفراءُ ذهبيةٌ، أو بُنِّيَّةٌ سوداء.
- القصيّة(اسمٌ): قَصِيَ المكانُ: بَعُدَ. قَصِيَ الرَّجُلُ عَنْ أَهْلِهِ: تَباعَدَ عَنْهُمْ.
- أَحْدُجُ (فِعْلٌ) حدَجَ/ حدَجَ بِـ، يَحدِجُ، حَدْجًا، فهو حادِجٌ، والمفعول مَحْدوجٌ.
  - حَدَجَ الشَّخصَ: رماهُ بنظرةٍ حادَّةٍ.

معجم الفصل الرّابعُ عشر: ماءٌ

- يُسْبِغُ (فعل): يَغْمُرُ
  أَسْبَغَ اللهُ عَلَيْهِ النِّعَمَ: غَمَرَهُ بِهَا، أَتَمَّهَا عَلَيْهِ.
- مُنْتَحِبٌ(اسم): انتَحَبَ: بكى بكاءً شديدًا.
- الكابي(اسم): الفحمُ الّذي خَمَدَتْ نارُهُ، الضوءُ الكابي: الضوءُ الذي اتخذَ لونَ الفحمِ الكابي.
- الهرش(اسم)، هرَشَ يَهرُش، هرْشًا: يَحُكُّ بِيَدِهِ.
- رَشاشُ الماءِ (اسم): ما تَطايَرَ مِنْ قَطَراتِ الماءِ.

- الزَّغَبَ(اسم): الزَّغَبُ: صَغارُ الريش والشَّعْر ولينُه.
- أعكِفُ (فعل): عَكَفَ على الشّيءِ: أقامَ عليه ولَزِمَهُ.
- سجعُ(اسم): سَجَعَتِ الحَمامَةُ: رَدَّدَتْ صَوْتَها عَلى نَغْمَةٍ واحِدَةٍ، هَدَلَتْ، ناحَتْ.
- تَنِي: أَنى الشيءُ: تأخّرَ وأبْطَأَ عن وقتِهِ.
- تَذْروها (فِعْلٌ) ذَرا، يَذْرو، اذْرُ، ذَرْوًا. ذَرا التُّرابُ: طارَ في الهَواءِ وَتَفَرَّقَ وَتَبَدَّدَ.
  -ذرَتِ الرِّيحُ التُّرابَ: أطارَتْهُ وَفَرَّقَتْهُ.

معجم الفصل الخامسُ عشر: جبل

- ناتئة(اسم): نتَأَ، يَنتَأُ، نُتُوءًا ونَتْئًا، فهو ناتئ.
  - نتَأَ الشّيءُ: برزَ في مَكانِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْفَصِلَ عَنْ مُحيطِهِ.
- الدبق(اسم): دَبِقَ بِالشَّيْءِ: لَصِقَ بِهِ وَلَمْ يُفَارِقْهُ.

معجم الفصل السادس عشر: صيْدٌ

- تنضَحُ(فعل): نَضَحَ الماءُ: سالَ ورَشَحَ عندَ فَوَرانِهِ.
- غَيْضات(اسم): الغَيْضَةُ: الأَجَمَةُ، الموضعُ يكثر فيه الشجرُ ويلتفّ.

معجم الفصل السابع عشر: أثرٌ

- أُغَضِّنُ(فعل) غَضَّنَ يُغَضِّنُ، تَغْضينًا
  - غَضَّنَ الشّيءَ: ثنّاه وجعّده، دخلْتُ عليه فغَضَّنَ لي جَبْهَتَهُ.
- وَعْثاءُ: المشقّةُ والتّعَبُ.

معجم الفصل الثامن عشر: اِمْضِ

- قتامة(اسم): قَتَمَ يَقتُم ويَقتِم، قُتومًا وقَتامةً، فهو قاتِمٌ
  - قَتَمَ الجَوُّ: اِكْفَهَرَّ، تَغَبَّرَ، أَظْلَمَ
  - قَتَمَ الوَجْهُ: اِكْفَهَرَّ، اِزْدَادَ عُبُوسًا.
- حُبْلى(اسم) جمعُهُ: حُبْلَيات وحَبالَى
  - امرَأَةٌ حُبْلى: حامِلٌ، تحمل في بطنها جنينًا،
  - غيومٌ بِالمَطَرِ: تحمِلُ المَطَرَ.
- الغَوْثُ(اسم): الإغاثَةُ والنُّصْرَةُ.
- مسفوعةٌ (اسم) سفَعَ / سفَعَ بِـ، يَسفَع، سَفْعًا، فهو سافِع، والمفعول مَسْفوع
  - سفَعَتِ الشَّمسُ وجهَه: لَفَحَتْهُ لفْحًا يسيرًا فغيَّرت لونَ بشرتِه وأصابتْهُ بالاسْمِرارِ.

- مأدَبَتي: المأدبة(اسم) الجمع: مأدَبات ومأدُبات ومآدِبُ.
  - المَأْدَبة، والمأْدُبة: الطعامُ يُصْنعُ لِدَعْوَةٍ.
- السُّخامُ (اسم):
  - السُّخَامُ: سوادُ القِدْرِ.
  - السُّخَامُ: الفحمُ.
  - ليلٌ سُخامٌ: أَسْوَدُ.
  - يَوْمٌ سُخامٌ: يومٌ أسْوَدُ.

- الخطوم (اسمٌ): مفردُهُ: الخَطْمُ: الأَنْفُ، أو مُقَدّمُهُ.
- يَنْقَشِعُ (فِعْلٌ): انقشعَ/ انقشعَ عن، ينقشِع، انْقِشاعًا، فهو مُنْقشِع، والمفعول مُنْقَشَع عنه.
  - اِنْقَشَعَتِ السَّحُبُ بَعْدَ نُزُولِ أمْطَارٍ غزِيرَةٍ: اِنْكَشَفَتْ، زَالَتْ.

معجم الفصل التاسع عشر: عواءٌ

- المُصَأْصِئَةُ (اسم): صَأْصَأَ الجَرْوُ: حاولَ النّظَرَ وَلَمَّا تَتَفَتَّحْ عَيْناهُ.
  - صَأْصَأَ الرجلُ: جَبُنَ
  - صَأْصَأَ مِنْ فلان: خافَ وذَلَّ له

- جامِحٌ (اسم)، الجمع: جامحون وجوامِحُ
  - اسم فاعل من جَمَحَ/ جَمَحَ إلى
  - رَكِبَ جَوَادًا جَامِحًا: مُنْدَفِعًا بِقُوّةٍ، وَثَّابًا.

- الضّامِرَةُ (اسمٌ): ضمَرَ يَضمُرُ، ضُمُورًا، فهو ضامِرٌ.
  - ضَمَرَ العُودُ: جَفَّ، رَقَّ
  - ضَمَرَ جِسْمُهُ: نَحُفَ، هَزَلَ، ضَعُفَ

معجم الفصل العشرون: قَطيعٌ

- تَخطرُ (فعل) خَطَرَ في مَشْيِهِ: تَمايَلَ وتَبَخْتَرَ عُجْبًا وخُيَلاءَ.
- الوَهْدَةُ (اسْمٌ): الحُفْرَةُ أَوِ الأَرْضُ المُنْخَفِضَةُ.